الدكتور
السيد محمد ديب

من روائع الأدب العربي

في العصرين الأموي والعباسي الأول

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ — ١٩٩١م

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ... وبعد

فلقد جمعت بين دفتى هذا الكتاب أربعة عشر نصاً أدبياً — عشرة فى الشعر ، وأربعة فى النثر — لتكون معبرة عن التيارات الأدبية فى العصرين الأموى والعباسى الأول .

وسوف يجد القارىء خمس قصائد كاملة ، وهى لعمر بن أبى ربيعة وبشار بن برد وأبى نواس وأبى تمام والبحترى ، وخمسة أجزاء من قصائد وهى للأخطل وابن قيس الرقيات والكميت والفرزدق وجرير .

وفى الكتاب أيضاً أربعة نصوص نثرية - خطبتان ورسالتان، ثلاثة منها كاملة وهى للحجاج بن يوسف وابن المقفع والجاحظ ونص غير كامل وهو لأبى حمزة الشارى .

وجاءت القصائد الكاملة والمنقوصة فى الغزل والمدح والهجاء والفخر والخمر والوصف والرثاء ، وتعددت قصائد المديح بسبب أنه الفن الذى اتخذه الشعراء مطية للسياسة حيث فرضت نفوذها على الأدب فى العصر الأموى بخاصة .

وتعطى قصيدة عمر بن أبى ربيعة انطباعاً عن نمط الحياة الاجتماعية فى بيئة الحجاز، وهى بيئة كثر فيها الغناء واللهو بسبب أن الأمويين أغروا أبناء الصحابة والتابعين بالمال والفراغ .

وتعكس قصيدة الأخطل بعض الصراعات المختلفة حول السلطة الأموية فى بيئة (الشام) وما يتبعها ، وهى ذات أغراض متعددة وإن اتخذ المدح إطارا عاما لكل توجهاته فيها . وابن قيس الرقيات شاعر مدح وسياسة ، وقد

عرض رؤية آل الزبير فى الخلافة ومدح مصعبا وافتخر بقريش ، ودعا لوحدتها فى رائيته المشهورة ، وهى قصيدة تنطلق من بيئة العراق .

ويعبر الكميت عن الشيعة ، ويمدح الهاشميين ، ويعلن الثورة على بنى أمية فى كل مكان .

والفرزدق وجرير صورة أخرى لبيئة العراق يختص الشاعران فيها نفسيهما بالنقائض ، وقد وازنت بين ما اخترته لكل واحد منهما .

وتأتى خطبة الحجاج لتعبر عن القهر الأموى وهى خطبة حماسية سياسية ملتهبة . وتكتمل الاختيارات فى العصر الأموى بخطبة أبى حمزة فى أهل المدينة ، والتى تعبر عن طريقه الخوارج فى الفكر والعبادة والقتال .

وتموت الأحزاب السياسية فى العصر العباسى الأول ، ويختلط العرب بالعجم ، ويظهر المذهب الشعرى الجديد ، وقد اخترت من أدب هذا العصر قصيدة لبشار لايتخابث أو (يتماجن) فيها ، أما أبو نواس فهو رائد ومجدد فى شعر الخمر ، ولهذا قدمت له قصيدة قصيرة ، لتعبر عن مذهبه وموهبته فى هذا اللون .

وعرفت بأبى تمام وشرحت قصيدة (السيف أصدق أنباء من الكتب) والتى وصف فيها حرب عمورية ، ومدح المعتصم ، وهى قصيده حماسية عرض فيها لبعض الجوانب من الصراع بين العرب والروم .

وقصيدة البحترى رثاء للأمة كلها من خلال حديثه عن مصرع المتوكل ، وفى آخر الكتاب رسالتان الأولى لابن المقفع والثانية للجاحظ .

أما منهجنا فى شرح النصوص وتحليلها فهو لايختلف من قصيدة لأخرى ولربما اختلفت طريقة التقديم لكن الذوق والرؤية والأداة والحكم على النص لاتختلف ، والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل .

دكتور / السيد محمد ديب

المطرية بالقاهرة فى { ٢٦ من محرم ١٤١١ هـ
١٧ من أغسطس ١٩٩٠م

القسم الأول

من روائع الأدب العربى فى العصر الأموى

أولا : الشعر :

قصيدة فى الغزل الصريح

لعمر بن أبى ربيعة

التعريف بالشاعر :

ولد أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة فى الليلة التى قتل فيها عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — .

وكانت ولادة ابن أبى ربيعة بمكة على أرجح الأقوال، ولأن أسرته كانت قد هاجرت إلى يثرب فذكر البعض لهذا السبب أن ولادته كانت بالمدينة، لكن بقية أخباره فى كتاب الأغانى لأبى الفرج وغيره من الكتب ذكرت أن أباه قد عاد إلى مكة بعد الهجرة، وكانت ولادة أبى الخطاب بها فى السنة المذكورة ولهذا يقول عمر فى بعض أشعاره :

وأنا امرؤ بقرار مكة مسكنى
ولها هواى فقد سَبت قلبى[1]

فأبو الخطاب شاعر قرشى من أسرة بنى مخزوم، وهى أسرة ذات ثراء وجاه، فجده الذى ينسب إليه وهو أبو ربيعة كان رجلا شجاعا، وكان لجده هذا أخوان معروفان فى تاريخ قريش .

أما الأول : فهو هشام بن المغيرة ، وأما الثانى : فهو الوليد بن المغيرة. وقد أنجب أبو ربيعة ابنه (عبد الله) الذى كبر واشتغل بالتجارة

---

(١) الديوان ، ص ٢٧ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٨م

وكان ينتقل بها إلى اليمن، ثم يعود إلى مكة، ليعيش سيداً بين ساداتها، ولقد تزوج عبد الله بامرأة حبشية جاء منها بولد سماه «الحارث»، ثم تزوج ثانية بامرأة من سبايا اليمن كانت تسمى «مجدا»[1] وهى التى أنجبت له عمر الذى كنى بأبى الخطاب .

وأسلم عبد الله وولاه الرسول — ﷺ — ولاية فى اليمن تسمى : «الجند» واستمر والياً عليها حتى توفى سنة خمس وثلاثين من الهجرة أثناء الحصار لبيت عثمان بن عفان بالمدينة .

وتوفى عبد الله وولده «عمر» لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، فتولت أمه تربيته ، واعتنت به ، وكانت تبالغ فى الاهتمام والعناية بمظهره ؛ لأنه كان وحيداً لها . ولقد عاش حياته مرفهاً مهتماً بمظهره وعطره وترفه طوال حياته .

وتزوج أبو الخطاب ، وتذكر بعض الروايات أنه أنجب ولداً وبنتاً، وكانت له مغامرات كثيرة مع المرأة العربية سواء أكانت من مكة حيث يقيم ، أو من المدينة ، أو من نساء العرب اللاتى يأتين لزيارة بيت الله فى مكة . فكان يتعرض لهن فى الطواف وغيره من مشاعر الحج ، ويشبب بهن ، ويعلن حبه لكل امرأة ذات حسن يلقاها . وهو القائل :

يقصد الناس للطواف احتسابا … وذنوبى مجموعة فى الطواف[2]

---

(١) وكانت نصرانية ... راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ ص ٥٥٨ دار التراث العربى الطبعة الثالثة .

وراجع أيضاً الأغانى لأبى الفرج الجزء الأول ، وكذلك التطور والتجديد لشوقى ضيف ص ٢٢٠ دار المعارف، الطبعة الخامسة .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٤ ص ١٠٧ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٣ م .

ومع كل مايقال ويذكر من روايات حول مغامرات عمر ، فقد كان مسلما متأثراً بالإسلام ، وذكر صاحب الأغانى أنه تاب فى الأربعين من عمره ، ولا شك فى أن من يقرأ روايات الأقدمين عن عمر سوف يجد بينها تباينا كبيراً مما يدفع الناس للاختلاف حوله قديماً وحديثاً ، ولكنهم يتفقون جميعا على منزلته ومكانته المرموقة بين شعراء عصره .

ولقد توفى سنة ثلاث وتسعين من الهجرة بعد سبعين سنة قضاها مع المرأة والشعر والغناء فى بيئة الحجاز .

عمر بن أبى ربيعة وبيئة الحجاز

عاش عمر فى عصر بنى أمية وفى بيئة الحجاز ، وصور بريشته مجتمع مكة والمدينة، فشعره صـــورة لمجتمعه المتحضر فى ظلال الأمويين الذين أعطوا وأغدقوا فى العطاء لشباب الحجاز وغيرهم ، وأدخلوا إليهم بسبب الفتوح كثيراً من العناصر الأجنبية كالفرس والروم ، وكان مجتمع مكة بالذات حيث يوجد ابن أبى ربيعة عامرا بالجوارى والمغنيات ، وقد انتقل مجتمع الحجاز نقلة كبيرة ، ودخله الترف من كل الأبواب، وشاع فيه الغناء والموسيقى ، وجمع عمر حوله بعض الشباب من مكة فتيات وفتيانا ليستمعوا جميعاً لصوت المغنين والمغنيات من أمثال (ابن مسجَح وابن محرز وابن سريج والغريض وسمية وسلامة القس) وغيرهم كثير .

وكان عمر كثير البذل والعطاء لاثنين من هؤلاء وهما : (الغريض وابن سريج) وعاشا فى ظلاله ، وتغنيا بشعره ، وكان البعض من أهل مكة يلتفون حول المغنين ، ليستمعوا إلى شعر ابن أبى ربيعة فى البيوت تارة ، وفى بعض الضواحى تارة أخرى . واحتفظ عمر فى داره بجاريتين تغنيان له وهما (بغوم وأسماء) .

إذن فلقد تغيرت طبيعة العصر ، وخرجت المرأة لتسمع الغناء وانصرف الشباب إلى اللهو ، وأمامهم وفى مقدمتهم أمير الغزل الذى ظفر بحرية واسعة انطلق وتنفس بها فى هذا المجتمع الجديد .

ولقد قصر عمر شعره على وصف النساء ، ولم ينطلق بفنه بعيداً عن الغزل فهو لا يمدح ولا يهجو مثلما يفعل بقية الشعراء بل يحب ويتغزل ويعلن حبه فى كل مكان ، ولهذا لم يعلق فؤاده بواحدة مثلما فعل الكثيرون من نظرائه إذ أنه كان يحب ويرضى غريزته فى التنقل بفنه من واحدة إلى أخرى .

وتمثل كل قصيدة فى ديوانه قصة حب كاملة ، فشعره كله قصص حب مختلفة وطبيعة المجتمع الذى ولد وعاش فيه جعلته حراً فى حبه وشعره ، شجاعاً فى هيامه وعشقه ، فلم يكن يشكو وجدا أو حرماناً . ولنقرأ له على لسان إحدى صواحبه :

تقول إذ أيقنت أنى مفارقها
يا ليتنى مت قبل اليوم يا عمرا[1]

كان عمر يتنقل بين مكة والمدينة ، ويتصدى للقرشيات وغيرهن فى موسم الحج ، ويرسم لهن بشعره صورا محسوسة دون أن يتطرق إلى الأوصاف المعنوية ، فعمر كان شاعراً متخصصاً فى الغزل الصريح ، والمرأة فى شعره مترفة ومنعمة ، وقد تأثرت هى الأخرى مثل الرجال بمباهج الحضارة الجديدة التى هبت على بيئة الحجاز .

---

(١) انظر كتاب تاريخ الأدب العربى — العصر الإسلامى د/ شوقى ضيف ص ٣٥١ طبعة دار المعارف بمصر

ولم يكن ابن أبي ربيعة يتغزل في أية واحدة بل إن شعره يكاد يكون محصوراً في نساء الطبقة العليا من المجتمع .

وسوف نعرض لمعظم من تغزل فيهن ، ومنهن :

سكينة بنت الحسين بن على . ومع هذه بخاصة أذكر ما قاله ابن قتيبة في شأنها قال : « وكان يشبب بسكينة بنت الحسين ، وفيها يقول كذبا عليها :

قالت سُكينة والدموع ذوارفٌ
منها على الخدين والجلباب
ليت المغيرى الذى لم نجزه
فيما أطال تصيدى وطلابى
كانت تَرُدُّ لنا المنى أيامه
إذ لا نُلام على هوى وتصابى »[1]

وممن شبب بهن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان (الخليفة) ، وكان يخاف من أبيها فلا يذكر اسمها ، ويروى أنه قال فيها وهى تؤدى فريضة الحج :

« افعلى بالأسير إحدى ثلاث
وافهمين ثم ردى جوابى
« اقتليه » قتلا سريحا مريحا
لا تكونى عليه سوط عذاب[2]
أو أقيدى فإنما النفس بالنفـــس قضاء مفصلا في الكتاب
أو صليه وصلا يقر عليه
إن شر الوصال وصل الكذّاب[3]

(١) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٥٨

(٢) السريح : السهل المعجل

(٣) الكذاب مثل الكذّاب

ويقال : إنها أعطت من أتاها بهذا الشعر لكل بيت عشرة دنانير .
وقال عمر فيها بعد أن عادت من الحج :

كدت يوم الرحيل أقضى حياتى
ليتنى مت قبل يوم الرحيل

لا أطيق الكلام من شدة الوجـ
ـد ودمعى يسيل كل مسيل

ذرفت عينها وفاضت دموعى
وكلانا يَلقىَ بلب أصيل[١]

ولذلك كرهه عبد الملك ، وعنفه كثيراً ، وناداه : « يا فاسق » وقال له : « أما إن قريشا لتعلم أنك أطولها صبوة ، وأبطؤها توبة ، ألست القائل :

ولولا أن تعنفنى قريش   مقال الناصح الأدنى الشفيق
لقلت إذا التقينا قبلينى   ولو كنا على ظهر الطريق[٢]

والبيتان من مقطوعة يشبب فيها بمحبوبته عبلة .

ومنهن زينب الجمحية ، وهى من أهل المدينة ، ولها مع عمر مواقف كثيرة ، ويبدو أنها الجمحية التي تزوجها ، ولم ينجب منها ، وممن شبب بهن هند ونعم وذات الخال : ويقال إن الأسماء الثلاثة الأخيرة رموزكنى بها عن الجمحية أى أنه من الجائز أن يكون بعض الأسماء حقيقياً وبعضها

---

(١) الديوان ص ١٥٥

(٢) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٦١ والأبيات فى الديوان طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٣٨ برقم ٢٥٥ وفيه (وقول) بدلا من (مقال) المذكورة هنا .

الآخر رمزياً، لأن بعض النساء كن يطلبن من عمر ألا يذكرهن فى شعره، مع أن بعضهن قد طلبن منه أن يذكرهن صراحة فى شعره، ومنهن عائشة بنت طلحة، فكانت ذات جمال خارق، وكانت تعجب وتزهو بشعر عمر فيها، كقوله:

لعائشة ابنةِ التيمى عندى
حمى فى القلب، ما يُرعى حماها

يذكّرنى ابنةُ التيمى ظبى
يَرود بروضة سهلٍ رُباها[1]

وشبب أيضاً بلبانة بنت عبد الله بن عباس فى أبيات بدأها بقوله:

ودع لُبانة قبل أن تترحلا
واسأل فإن قليله أن تسألا[2]

وممن شبب بهن الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث، ورملة بنت عبد الله بن خلف، وكلثم بنت سعد المخزومية والرباب التى قال فيها:

ليت شعرى وهل يَردَّنْ ليت
هل لهذا عند الرباب جزاء[3]

وبالنظرة المطلقة إلى هذه الأبيات يمكن أن تجعلنا نثق فى صدقه وفى إخلاصه لمن أحب ولكن بيتاً واحداً نطلع عليه فيجعلنا نغير رأينا فى عمر كقوله:

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه ـــ لاحظ لى منه إلا لذة منظر

---

(١) البيتان فى مطلع قصيدة بالديوان ص ٢٣٢ برقم (٤٣٨)
(٢) البيت مطلع قصيدة بالديوان ص ١٦٣ برقم ٣٠٤
(٣) البيت من قصيدة بالديوان ص ٧ برقم (٤)

فهو يبحث عن الجمال، ويتعقبه، ولا يصيب منه إلا بمقدار النظرة ولذتها.

ويبالغ ابن أبي ربيعة فى تصوير حبه وهيام العاشقات به، وله أبيات يذكر فيها إعجاب ثلاث أخوات به، قال:

قالت الكبرى أتعرفن الفتى ؟
قالت الوسطى: نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها
قد عرفناه وهل يخفى القمر[1] ؟

وهكذا شغل عمر نفسه بالمرأة، فوصف جمالها المادى، وميولها وأهواءها، ومن يتابع كل ذلك فى ديوانه أو يرجع إليه فى مظانه المعروفة مثل كتاب الأغانى يحوم بأن هذا الشاعر كان مسرفا فى لهوه، مندفعا نحو الإباحية والمجون، وما عرضنا له من شواهد كاف للوصول إلى ذلك.

وبعض مؤرخى الأدب وقفوا أمام الروايات التى تحدثت عنه موقف الشك فلم يصدقوا كل ما نقلته لهم، ولم يتصوروا أن يفعل ابن أبى ربيعة كل ذلك، إذ كيف تصل به الجرأة إلى الحد الذى يشبب فيها بنساء يتصل نسبهن بالرسول ﷺ.

ولقد وضعه الدكتور طه حسين فى منزلة وسطى بين شعراء المجون.

---

(١) وجاء له فى الديوان ص ٩٠ قوله:
قلن تعرفن الفتى قلن نعم
قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

والشعراء المعتدلين وهذا الرأى هو الأجدر بالقبول قال : « لم يكن (أى عمر) عذريا ، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان عمليا محققا يلتمس الحب فى الأرض لا فى السماء . ورأينا كذلك أنه لم يكن يذهب فى حبه مذهب أصحاب المجون من شعراء العصر العباسى ، فلم يكن يسرف فى العبث ، وإنما كان يقتصد اقتصادا ، ويتوسط فى حبه توسطا ، فيعف كثيرا ويعبث قليلا »[١] .

وهذا لا يقلل من شأنه ومكانته كرائد لمدرسة غزلية متحضرة ، وهو أول شاعر عربى عرف التخصص فى الشعر ، وأفرد ديوانه كله للحديث عن الحب والمحبين .

قال (*) :

— ١ —

١ — أمن آل نُعم أنت غاد فمبكرُ ؟
غداة غدٍ أم رائح فمهجرُ ؟

(*) الديوان ص ٦٤
حديث الأربعاء ج١ ص ٣٠٨ طبعة دار المعارف

---

(١) نعم : إحدى محبوبات عمر ، ويجوز أن يكون هذا الاسم غير حقيقى وإنما تكنى به عن بعض من تغزل فيهن حتى لا يفتضح أمرها معه فالاسم قد يكون صريحاً ، وقد يكون رمزا . وغاد : سائر فى وقت الغدوة أى فى الصباح الباكر بين الفجر وطلوع الشمس .

ومبكر : أى سائر فى أول هذا الوقت ، غداة غد : بكرة اليوم التالى ليومك ، الرائح : السائر فى الرواح وهو وقت العشى أو من الزوال إلى الليل . المهجر : السائر فى وقت الهاجرة ، وهو أول وقت الرواح عند اشتداد الحر .

٢ — بحاجة نفس لم تقل في جوابها
فتبلغ عذرا والمقالة تعذر

٣ — تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع
ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر

٤ — ولا قرب نعم إن دنت لك نافع
ولا نأيها يسلي ولا أنت تصبر

٥ — وأخرى أتت من دون نعم ومثلها
نهى ذا النهى لو ترعوى أو تفكر

---

(٢) بحاجة نفس، وروى (لحاجة نفس) والمقصود: رغبة في نفسك، ولم تقل في جوابها: أي لم تقل شيئا في إجابة السؤال عنها أي أنه كتمها عن كل من يسأل عنها.

فتبلغ عذرا: أي أنه لو أبدى هذه الرغبة لالتمست له الأعذار بسببها، لأن المقالة تعذر أي تقيم له العذر. من أعذر: بمعنى أبدى عذرا.

(٣) تهيم: روى أهيم وتهيم، والمعنى تحبها حبا شديداً والهيام: أشد العطش والهيام: الإبل العطاش، الشمل جامع: المودة موصولة، مقصر أي يمتنع عن الحب، وهو اسم فاعل من أقصر.

(٤) دنت: قربت، نأيها: بعدها، يسلي: ينسي.

(٥) وأخرى صفة لموصوف محذوف تقديره وامرأة أخرى من دون نعم أي وبين نعم لتصرفني عن حبها، مثلها: مثل تلك المرأة الأخرى، نها: كف، ذا النهى: صاحب العقل، ترعوى: ترجع عن الضلال.

٦ — إذا زرتُ نعماً لم يزل ذو قرابة
لها كلما لاقيتُها يتنمَّرُ

٧ — عزيز عليه أن ألم ببيتها
يُسر لى الشحناء والبغضُ مُظهرُ

٨ — ألِكْنِي إليها بالسلام فإنه
يشهرُ إلمامى بها وينكرُ

٩ — بآية ما قالت غداة لقيتها
بمدفع أكنانٍ أهذا المشهرُ ؟

— ٢ —

١٠ — قفي فانظرى أسماءُ هل تعرفينه؟
أهذا المغيرى الذى كان يُذكرُ ؟

---

(٦) يتنمر : يغضب أى يتشبه بالنمر فى غضبه وطباعه .

(٧) عزيز عليه : صعب عليه : ألم ببيتها : أزورها فى بيتها ، يسر : يكتم ، الشحناء : العداوة والبغضاء : ، البغض مظهر : الكراهية معلنة روى (البغضَ يُظهِر) .

(٨) ألكنى : كن رسولى واحمل رسائلى ، وأصله (ألْئكنى) بسكون اللام وكسر الهمزة فنقلت حركة الهزة إلى الساكن الصحيح قبلها ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع الكاف ، يشهر : يذاع ويفتضح. إلمامى بها : زيارتى لها ، ينكر : يعارض ويكره .

(٩) آية : علامة، لتعرف نعم أن هذا الرسول من قبل عمر ، المشهر : المعروف .

(١٠) المغيرى : أى عمر نسبة إلى المغيرة جد أبيه . يذكر : يتحدث عنه فيما جرى ووقع .

١١ — أهذا الذى أطريتِ نعتاً فلم أكن
وعيشك أنساهُ إلى يوم أقبرُ

١٢ — فقالت نعمْ لاشك غير لونَه
سرى الليل يحي نصهُ والتهجر

١٣ — لئن كان إياه لقد حال بعدنا
عن العهد والإنسانُ قد يتغير

١٤ — رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
فيَضحى وأما بالعشى فيَخصرُ

١٥ — أخا سفر جواب أرض تقاذفت
به فلوات فهو أشعث أغبر

---

(١١) أطريت مدحا : أحسنت وصفاً — وعيشك : قسم بحياتها ، أقبر : أدفن فى القبر (أموت) .

(١٢) سرى الليل : السير فيه ، يحي نصه : يحي إسراعه فى السير ليلا ، التهجر : السير فى الهاجرة وهى الحر الشديد .

(١٣) حال بعدنا : تغير بعد رؤيتنا إياه . عن العهد : عما عهدناه عليه .

(١٤) عارضت : قابلت وواجهت — يضحى : يتعرض للشمس ، يخصر : يشتد به البرد .

(١٥) جواب : صيغة مبالغة من جاب بمعنى قطع . الفلوات : جمع فلاة وهى الصحراء ، الأشعث : الذى تفرق شعره وانتشر ، أغبر : ظهر عليه الغبار من السفر الطويل .

١٦ — قليلٌ على ظهر المطية ظلُّهُ
سوى ما نفى عنه الرداءُ المحبرُ
١٧ — وأعجبها من عيشها ظلُّ غرفةٍ
وريانُ ملتف الحدائق أخضر
١٨ — ووالٍ كفاها كل شيء يهمها
فليست لشيء آخرَ الليل تسهرُ

— ٣ —

١٩ — وليلة ذى دوران جشمتنى السرى
وقد يجشم الهولَ المحبُّ المغرَّرُ
٢٠ — فبت رقيباً للرفاق على شفا
أحاذر منهم من يطوف وأنظرُ
٢١ — إليهمُ متى يستمكن النوم منهمُ
ولى مجلس لولا اللبانةُ أوعرُ

---

(١٦) قليل : ضئيل ، الرداء المحبر : المزين المطرز .

(١٧) أعجبها : سرها ، ريان : شجر مرتو بالماء ، ملتف : متشابك .

(١٨) الوالى : القيم الذى يلى ويرعى شؤونها ، كفاها كل شىء : وفر لها كل احتياجاتها ، يهمها : يعنيها .

(١٩) ذى دوران : اسم موضع ، جشمتنى السرى : حملتنى مشقة السير ليلا ، وجشم بالكسر يجشم بالفتح وتجشمه : تكلف الأمر على مشقة ، الهول : الفزع ، المغرر : الذى يعرض نفسه للهلاك .

(٢٠) شفا : حافة وحرف ، ومعنى على شفا : أى على حذر وتربص أحاذر : أحتاط .

(٢١) يستمكن: يتمكن، لولا اللبانة : لولا الحاجة، أوعر: شاق وصعب.

٢٢ — وباتت قلوصى بالعراء ورحلُها
لطارق ليل أو لمن جاء مُعورُ

٢٣ — وبتُّ أناجى النفس أينَ خباؤها
وكيف لِما آتى من الأمر مصدر

٢٤ — فدل عليها القلب ريّا عرفتُها
لها وهوى النفس الذى كاد يَظهَرُ

٢٥ — فلما فقدتُ الصوت منهم وأطفئت
مصابيحُ شبت بالعِشاء وأنؤر

٢٦ — وغاب قُمير كنت أهوى غيوبَه
وروّحَ رعيانٌ ونُوّمَ سُمّرُ

---

(٢٢) قلوصى : ناقتى ، الرحل : مركب الناقة كالسرج للفرس، طارق الليل : آت فى الليل ، معور: ظاهر واضح من أعور بمعنى ظهر .

(٢٣) أناجى النفس : أحدثها سراً ، خباؤها : بيتها الذى تسكن فيه وأصل الخباء : الخيمة ، مصدر : من الصدر بسكون الدال ، وصدر كل شىء أوله أومن الصدَر بفتح الدال بمعنى الرجوع يقال : صدر بالفتح عن الماء وأصدره أى رجعه فرجع .

(٢٤) الريا : الرائحة الذكية ، هوى النفس : حب النفس .

(٢٥) فقدت الصوت: انقطع وصوله إلى ، شبت : أوقدت ، العشاء، بعد المغرب . الأنؤر : النيران ، ومفردها نار وأصل الجمع أنور وهمزت الواو فصارت الكلمة على ما هى عليه — وكما قال المبرد فى تفسير ذلك « إن شئت همزت وإن شئت لم تهمز » .

(٢٦) قمير : قمر صغير ، روح رعيان : عادوا إلى بيوتهم ، والرعيان جمع راع ، نوم مبالغة فى نام ، والسمر : الساهرون والمتحدثون ليلا ، والمراد أنهم استغرقوا فى نومهم .

٢٧ — وخفضَ عنِ الصوت أقبلت مِشيةَ الـ
حُبابِ ، وشخصى خشيةَ الحيّ أزورُ

٢٨ — فحيّيتُ إذ فاجأتُها فتولهتْ
وكادت بمخفوضِ التحيــة تجهر

٢٩ — وقالت وعضت بالبنان فضحتنى
وأنت امرؤ ميسورُ أمرك أعسر

٣٠ — أرَيتكَ إذ هُنا عليك ألم تخف ؟
وُقيت وحولى من عـدوك حضــر

٣١ — فو الله ما أدرى أتعجيلُ حاجة
سرتْ بك أم قد نام من كنتَ تحذر

٣٢ — فقلت لها بل قادنى الشوق والهوى
إليكِ وما نفسٌ من الناس تشعرُ

---

(٢٧) مشية الحباب أى كما تمشى الحية ، وشخصى أزور أى وجسمى مائل خشية أن يرانى أحد .

(٢٨) تولهت : أظهرت الوله ، وهو الحيرة والحزن من شدة الوجد ، مخفوض التحية : الذى يسر منها ولا يعلن ، تجهر : ترفع صوتها حتى يسمع .

(٢٩) البنان : أطراف الأصابع ، ميسور أمرك : السهل منه ، أعسر : صعب وشاق .

(٣٠) أريتك : قل لى وأخبرنى ، وأصلها : أرأيتك ، هنا عليك : سهلنا عليك ، وقيت : دعاء له بالوقاية من الأذى ، العدو : يقال للواحد والجمع ، حضر : حاضرون .

(٣١) تحذر : تخاف .

(٣٢) روى (وما عين من الناس تنظر) .

٣٣ — فقالت وقد لانت وأفرخ روعُها
كلاك بحفظ ربُك المتكبر

٣٤ — فأنت أبا الخطاب غيرُ مُدافعٍ
عليّ أمير ما مكثت مؤمرُ

٣٥ — فيالك من ليل تقاصر طولهُ
وما كان ليلى قبل ذلك يقصرُ

٣٦ — ويا لك من ملهى هناك ومجلسٍ
لنا لم يكدرهُ علينا مكدّر

٣٧ — يمجّ ذكى المسك منها مقبّلٌ
نقى الثنايا ذو غُروب مؤشّرُ

---

(٣٣) لانت : استجابت له . أفرخ روعها : ذهب خوفها وهدأت نفسها .

كلاك : حفظك وحرسك وأصلها كلأك فقلبت الهمزة ألفا لانفتاح ماقبلها، وذلك للتخفيف .

(٣٤) أبو الخطاب : كنية عمر ، وهو منادى محذوف الأداة ، غير مدافع غير منازع ، مكثت : أقمت ، مؤمر : أى لك الأمر والسيادة على.

(٣٥) تذكر الروايات الأخرى بيتا قبل هذا البيت هو :

فبت قرير العين أعطيت حاجتى ۞ أقبل فاها فى الخلاء فأكثر

وقوله : يالك: أى ياعجبا لك .

(٣٦) ملهى : مكان اللهو ، يكدره : يعكر صفوه .

(٣٧) يمج ذكى المسك : يقذف بالرائحة الطيبة ، المقبل : الفم وهو موضع التقبيل ، الثنايا : الأسنان الأربع التى فى مقدم الفم ثنتان من

٣٨ — تراه إذا ما افترّ عنه كأنه
حصى بَرَدٍ أو أقحوانٌ منوّرُ .

٣٩ — وترنو بعينيها إليّ كما رنا
إلى ظبيــة وسطَ الخميلة جؤذَرُ

— ٤ —

٤٠ — فلما تقضّى الليلُ إلا أقلّه
وكادت توالى نجمــه تتغوّرُ

٤١ — أشارت بأن الحيّ قد حان منهمُ
هبوبٌ ولكنْ موعدٌ منك عزورُ

= أعلى وثنتان من أسفل، ذو غروب : ممتلىء بالرحيق والرضاب ، ومؤشر : أى أسنانه محززة ومحرفة خلقة أو صنعة للتجميل .

(٣٨) إذا ما افتر عنه : أى إذا ما كشف عنه بالابتسام ، حصى برد : حبات المطر التى تنزل نقية بيضاء ، أقحوان منور : نبت طيب الرائحة به أزهار .

(٣٩) ترنو : تنظر ، الخميلة : الشجر الكثيف الملتف ، الجؤذر : ولد الظبية أو البقرة الوحشية وكانت العرب تشبه النساء به لجمال عينيه .

(٤٠) توالى نجمه : نجومه المتبقية من إضافة الصفة إلى الموصوف ، تتغور : تنحدر وتغيب .

(٤١) الحى : البطن من بطون القوم ، حان : قرب ، هبوب تيقظ من النوم ، عزور : اسم موضع بين مكة والمدينة .

٤٢ — فما راعني إلا مناد ترحلوا
وقد لاح معروف من الصبح أشقر

٤٣ — فلما رأت من قد تنبه منهمُ
وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر؟

٤٤ — فقلتُ أباديهم فإما أفوتُهمْ
وإما ينال السيف ثأراً فيثأرُ

٤٥ — فقالت أتحقيقا لما قال كاشح
علينا وتصديقا لما كان يؤثر

٤٦ — فإن كان ما لابد منه فغيره
من الأمر أدنى للخفاءِ وأسترُ

---

(٤٢) راعني : أفزعني ، ترحلوا : قاموا بالرحلة ، لاح معروف : ظهر المعروف من ضوء الصباح ، وروى (لاح مفتوق) أي منشق ، والمقصود نور الصباح ، أشقر : أبيض مشرب بحمرة .

(٤٣) تنبه : تيقظ ، أيقاظ : جمع يقظ وهو من ذهب عنه النوم ، أشر : تطلب مشورته .

(٤٤) أباديهم: أبدو وأظهر وأتصدى لهم بالمبارزة، أفوتهم :أسبقهم وأنجو منهم ، الثأر : الدم والطلب به ، فيثأر : فيدرك طلبه بالدم .

(٤٥) الكاشح : العدو الذي يبطنُ العداوة ، يؤثر : يروى ويعرف ويقال .

(٤٦) لابد : لامحالة ، أدنى : أقرب ، الخفاء : عدم الظهور .

٤٧ — أقصُّ على أختيَّ بدء حديثنا
وماليَ من أن تعلما متأخَّرُ

٤٨ — لعلهما أن تطلبا لك مخرجا
وأن تَرْحبا سِرْبا بما كنت أحصر

٤٩ — فقامت كئيباً ليس في وجهها دَمٌ
من الحزن تذري عَبرةً تتحدرُ

٥٠ — فقامت إليها حرّتان عليهما
كساءان من خزٍ دمقس وأخضرُ

٥١ — فقالت لأختيها أعينا على فتى
أتى زائرا والأمر للأمر يُقدَّر

٥٢ — فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا
أقلي عليكِ اللوم فالخطبُ أيسرُ

(٤٧) أقص : أروى قصة ، بدء حديثنا : أول قصتنا ، متأخر : وقت التأخير .

(٤٨) ترحبا : تتسعا ، سربا : نفسا وصدرا ، أحصر : أضيق به .

(٤٩) كئيبا : منكسرة من الغم ، تذرى عبرة : تذرف دمعة ، تتحدر : تسيل على الوجه .

(٥٠) الخز : الحرير أو الصوف ، الدمقس : نوع من الحرير أبيض اللون ، أخضر : المقصود نوع آخر من الحرير أخضر اللون .

(٥١) أعينا : ساعدا ، يقدر : يقضى ويدبر .

(٥٢) ارتاعتا : خافتا ، أقلى : خفنى ، الخطب : الشدة والمصيبة ، أيسر : أسهل وفى روايات أخرى يُذكر بيت بعد البيت (٥٢) يقول فيه : =

٥٣ — يقوم فيمشي بيننا متنكّرا
فلا سرنا يفشو ولا ُهوَ يظهر

٥٤ — فكان ِمجنىَ دون َمن ُكنت ُأتقى
ثلاثُ شخوص َكاعبانِ وُمعصِرُ

٥٥ — فلما أجزنا ساحة الحى قال لى
ألم تتقى الأعداء والليل مقمرُ ؟

٥٦ — وقال أهذا دأبُك الدهرَ سادرا
أما تستحى أو ترعوىِ أو تفكرُ

= فقالت الصغرى سأعطيه مطرفى
ودرعى وهذا البرد إن كان يحذر

المطرف : رداء من خز ، الدرع : القميص الذى تلبسه المرأة فى بيتها ، البرد : ثوب مخطط ، يحذر : يتوقى فى يقظة ، والمعنى واضح .

(٥٣) متنكرا : متخفيا ، السر : ما يكتم ، يفشو : ينتشر ، يظهر : يتبين .

(٥٤) مجنى : ترسى الذى أتقى به الأعداء فى الحروب ، الكاعبان : مثنى الكاعب وهى الفتاة فى أول البلوغ ، المعصر : المرأة المدركة الناضجة

(٥٥) أجزنا : قطعنا وخلفنا ، الساحة : فضاء بين المنازل ، ألم تتق : ألم تحذر وتخاف .

(٥٦) دأبك : عادتك ، سادرا : لاتهتم ولا تبالى ، ترعوى بكسر الواو : تكف عن الجهل والارعواء : الندم على الشىء والانصراف عنه (لسان العرب) ماده (رعى) ، الدهر منصوب على الظرفية .

٥٧ — إذا جئتَ فامنح طرف عينيك غيرَنا
لكى يَحسبُوا أن الهوى حيثُ تنظرُ

٥٨ — فآخرُ عهـد لى بها حين أعرضت
ولاح لها خـد نقى ومَحجرُ

٥٩ — سوى أنى قد قلت يانعمُ قولةً
لها والعتاق الأرحبياتُ تزجـر

٦٠ — هنيئاً لأهل العامرية نشرُها الـ
لذيذ ورياها الذى أتذكر

— • —

٦١ — نقمتُ إلى عَنسٍ تخوّنَ نيها
سرى الليـل حتى لحمُها متحسِّرُ

٦٢ — وحَبسى على الحاجات حتى كأنها
بقيـةُ لوح أو شجارٌ مؤسّر

---

(٥٧) امنح : اعط ، الهوى : الحب .

(٥٨) عهـد : التقاء ، أعرضت : ذهبت ، نقى : لا كدرة فيه المحجر : ما يظهر من نقابها .

(٥٩) العتاق : النياق أو الخيول ، الأرحبيات : المنسوبة إلى قبيلة أرحب من همدان ، تزجر : تساق .

(٦٠) العامرية : نسبة إلى عامر أو إلى الحى ، النشر : رائحة فم المراة ، الريا : الرائحة الطيبة .

(٦١) العنس : الناقة الصلبة . تخون: نقص ، نيها : شحمها ، متحسر : مؤذى بذهاب رهل لحمه .

(٦٢) حبسى: قصرى وهو معطوف على «سرى الليل» فى البيت (٦١) =

٦٣ — وماءٍ بموماةٍ قليلٍ أنيسهُ
بسابسَ لم يحدُثْ به الصيف مُحضرُ

٦٤ — به مُبتنى للعنكبوت كأنه
على طرف الأرجاء خام منشرُ

٦٥ — وردتُ وما أدرى أما بعدَ موردى
من الليل أم ماقد مضى منه أكثرُ

٦٦ — فقمتُ إلى مِغلاة أرض كأنها
إذا التفتت مجنونةٌ حين تنظر

٦٧ — تُنازِعنى حرصا على الماء رأسَها
ومن دون ماتهوى قِليب مُعوِّر

٦٨ — محاولةً للماء لولا زمامُها
وجَذبى لها كادت مراراً تكسَّرُ

= اللوح : الصفيحة العريضة من الخشب أو من العظم ، والشجار : خشب الهودج أو الهودج الصغير الذى يكفى واحدا وقيل : هو مركب أصغر من الهودج ، وهو عود يجعل فى فم الجدى لئلا يرضع أمه ، وهو الخشبة التى توضع خلف الباب ، مؤسر : مشدود .

(٦٣) الموماة : الصحراء . بسابس : جمع بسبس وهو شجر تتخذ منه الرحال ، أو هو القفر الخالى ، المحضر : المرجع إلى المياه .

(٦٤) الأرجاء : النواحى ، خام : جلد لم يدبغ ، منشر : منشور .

(٦٥) وردت : وصلت إلى الماء ، ما أدرى : لا أعلم .

(٦٦) مغلاة : ناقة مسرعة .

(٦٧) رأسها أى رأس الناقة ، قليب : بئر ، معور : فسد ماؤه .

(٦٨) الزمام : ما يشد به البعير ، تكسر . أصله تتكسر .

٦٩ — فلما رأيت الضُّرَّ منها وأننى
بِبَلدةِ أرض ليس فيها مُعصرُ

٧٠ — قصرت لها من جانب الحوض مُنشأ
جديداً كقاب الشبرِ أو هو أصغر

٧١ — إذا شرَّعتْ فيه فليس لملتقَى
مشافِرِها منه قِدَى الكف مُسأرُ

٧٢ — ولا دلوَ إلا القعبُ كان رشاءه
إلى الماء نسعٌ والأديمُ المضفرُ

٧٣ — فسافت وما عافت وما رد شُربَها
عن الرى مطروقٌ من الماء أكدر

---

(٦٩) الضر : الأذى ، ببلدة أرض : بقطعة أرض ، معصر : ملجأ .

(٧٠) قصرت الشيء جعلته قصيرا ، الحوض : المكان الذى يجمع فيه الماء ، منشأ : أول ما يعمل من الحوض . قاب : قدر .

(٧١) شرعت : بدأت تدخل فمها فيه ، مشافرها : المشفر للبعير كالشفة للإنسان ، قدى الكف : قدر الكف ، مسأر : بقية .

(٧٢) القعب . الإناء ، رشاءه : حبله الذى يجذب من البئر : نسع : سير مضفور يجعل زماما للبعير وغيره ، الأديم المضفر : الجلد المجدول .

(٧٣) فسافت : فشمت الماء ، عافت : كرهت ، الرى : الارتواء : مطروق : ماء خاضت فيه الإبل ، أكدر : متغير وغير صاف .

شرح الأفكار :

١ — الأبيات (١ — ٩) استهلال وتقديم .

يخاطب الشاعر نفسه مع مطالع القصيدة على طريقة التجريد جاعلا من نفسه شخصا آخر يتوجه إليه بالحديث ، فيتساءل عن أنسب الأوقات لرحيله عن ديار المحبوبة . أيرحل فى الغد مبكرا أم فى وقت اشتداد الحر ؟ ونلحظ بهذا الفهم أن عمر قد بدأ الحديث فى هذه المقدمة الغنائية من عند نهاية الأحداث لمغامرته الليلية التى سوف يأتى ذكرها مع الشرح ، أو يكون قد استهل القصيدة بالسؤال عن أنسب الأوقات التى يرحل فيها إلى ديار محبوبتــــه أيسير إليها فى الصباح المبكر أم فى وقت الهاجرة ليحظى بلقائها بعيداً عن أعين أهلها وفى غفوة منهم .

ويذكر أنه لم يحدث أحدا بما فى نفسه من شوق وحنين ، وذلك لحاجة فى نفسه وهى إرادة الكتمان ، ولو أبدى ما بداخله لوجد من يلتمس له العذر ، ويدفع عنه اللوم .

ويستمر فى الحديث إلى نفسه فيذكر هيامها بنعم وحنينها إليها مع أن الحوائل تقف بينه وبينها ، وأسباب المودة بينهما غير متصلة ، وقلبه مشغول بها ، وغير قادر على السلوان .

ويكشف البيت الرابع عن حيرته وشقائه إذ أن قربها منه لا ينفعه لأنه لاينال منها حاجة ، ولا بعدها عنه يريحه وينسيه ولا هو يطيق صبرا على ماهو فيه ، ويذكر أن امرأة أخرى تدخلت فى حياته ، ويمكن بما أوتيت من جمال أن تصرف العاقل إلى حبها ، لكن شاعرنا

لا يستطيع ذلك ، ولا يقدر عليه لأن نعما سلبته عقله فلم يعد يفكر إلا فى حبها .

وينتقل الشاعر فى البيت السادس إلى الحديث عن نفسه مباشرة فيذكر علة شقائه ، وسبب تعاسته فهو عند زيارته لنعم يلقى من ذوى قرباها كل كراهية وغيظ ظاهرا وباطنا ، وهذا القريب يمثل بالنسبة له وجه الشقاء الذى يتعذب به، لأن القريب يعز عليه أن يزورها الشاعر فى بيتها وهو لذلك يكرهه ويعاديه ظاهرا وباطنا ، ثم يطلب شاعرنا من رسول له أن يحمل إليها رسائله ، لأن زيارته لها لم تعد ميسرة ، بل تعرضه للتشهير والكراهية ، ويطلب منه أن يصل إليها حاملا معه علامة[1] وهى قولها له عندما التقى بها فى مدفع أكنان : أهذا المشهر ؟ الذى ذاع اسمه وانتشر ذكره ، وهو يزود رسوله بهذه العلامة حتى تطمئن إلى أن الرسول من قبل حبيبها فتثق فيه وتطمئن إليه .

وينبغى أن يكون معروفا أن الشاعر فى هذه القصيدة يحكى قصة وقعت له حقيقة أو خيالا ، وقام فيها بدور البطولة متنقلا بين البحث عن المخرج فى البيت الأول ، ثم إلى تحميل الرسول لكلمة السر فى آخر بيت فى هذا المطلع ...

ويستمر فى سرد حكايته إلى آخر القصيدة .

٢ — الأبيات (١٠ — ١٨) عن صفات الشاعر .

ينتقل الشاعر فى هذه الأبيات إلى الحديث عن صفاته من خلال حوار بين نعم وأسماء فتسألها نعم وتقول لها : انظرى يا أسماء هل تعرفينه ؟ هل هذا هو المغيرى الذائع الصيت الذى كان يدار الحديث

---

(١) كلمة السر .

عنه فى مجالسنا . وتسأل نعم مرة ثانية وتقول : أهذا الذى مدحت صفته حتى علق قلبى به ؟ وحياتك إنى لن أنساه إلى يوم الممات !

وتجيب أسماء قائلة : نعم هو ذاك ، ولكنه تغير كثيرا لطول السفر المضنى ليلا ، فلا يستريح فى نوم ، ولكثرة السفر أيضا فى وقت اشتداد الحر ، ولئن كان هذا الشخص هو عمر ، فيكون قد تغير كثيرا عما عهدناه ، والتغير على كل حال من طبيعة الإنسان ، وخاصة إذا كان التغير بسبب الحب وأهواله ... ويواصل الشاعر فى البيت الرابع عشر الحديث عن صفاته فيذكر أن نعما قد شاهدت رجلا كثير السفر ، جواب آفاق لا يمنعه عن الرحلة حر الشمس ، ولا ترده برودة الليل ، فأصبح ملازما للسفر كأنه أخ له ، فهو دائما فى غربة ، تتقاذفه الفلوات فيبدو متفرق الشعر مكسوا بغبار الطريق ووعثائه . وقد بدا نحيلا ضعيفا ، وصار هزيلا ، ولولا الرداء الذى يلبسه ما كان له ظل وهو على ظهر المطية .

وأراد الشاعر أن يوازن بين حاله وحال محبوبته ، فوصف مقامها بين الخضرة والظلال فى بيت تحيط به الأشجار ، وهى مقيمة فى داخله لا ترحل عنه ، كما أنها منعمة مترفة ، تعيش حياة الأثرياء ولها وال يلى كل أمورها ، ويوفر لها أسباب السعادة من غير أن تجهد نفسها بعمل تسهر معه لآخر الليـــل .

٣ — الأبيات (١٩ — ٣٩) عن قصة المغامرة الليلية .

يصل الشاعر إلى الحديث عن (ليلة ذى دوران) فيصف باقتدار الصعوبات التى تحملها فى الوصول إلى محبوبته للالتقاء بها ، معرضا نفسه للمخاطر ، وقد أخذ يراقب رفاق الحى الذى تعيش فيه ، ومن يحيطون بديارها ، وهو على حذر ممن يطوفون بهذه الديار . وداثم النظر حوله حتى لا يراه أحد ، وحتى يتابع من يتمكن النوم منه ، ولولا الحاجة إلى

نعم ما جلس هذا المجلس الوعر الذى يعرضه للمهالك ، ويعرض ناقته القوية التى باتت فى العراء للنهب والسرقة ، ولا يأمن على رحلها ممن يتحركون فى الليل . ثم أخذ يناجى نفسه هامساً :

كيف الوصول إلى دارها ؟ وكيف الخروج مما هو فيه ؟ لقد وقف الشاعر حائرا ، ولكنه اهتدى إلى محبوبته . . اهتدى إليها بقلبه الذى تعرف على رائحتها ، وبحبه المتأجج فى صدره ، وانتظر حتى سكنت الأصوات وأطفئت المصابيح ، وأخمدت النيران ، وغاب القمر ، وعاد الرعاة إلى بيوتهم ، ونام السمار ، فأخمد صوته ، ومشى فى حذر كالحية ، وفاجأها بالزيارة وحياها ، فأظهرت الحيرة وكادت ترفع صوتها بالتحية ، وقالت له وهى تعض بنانها : لقد فضحتنى وأنت امرؤ لا تعبأ بالمخاطر ، وإذ كنا لم نهن عليك (افتراضا) أفلم تخف على نفسك وأنت على علم بأعدائك الكثيرين حولى . ثم أقسمت له ، وقالت : لا أدرى سبب مجيئك فى هذا الوقت ، هل هو بسبب حاجة ملحة لا تتحمل التأجيل ؟ أم أن الرقباء قد ناموا فجئت بلا خوف ؟ فقال لها : إنه جاء إليها مدفوعا بحبه وشوقه دون أن يشعر به أحد من الناس ، وليس لقضاء حاجة كما تظنين .

ويستمر الشاعر فى حواره القصصى حاكيا ومصورا ما جرى فى مغامرته الليلية فيقول على لسان نعم بعد أن أحست بالأمن وذهب روعها : حفظك الله ورعاك ، وأنت يا أبا الخطاب تسكن فى قلبى منفردا فلا يزاحمك أحد ، وأنت أمير على تأمرنى فأطيعك دون أن ينازعك فى حبى أحد .

ويناجى الشاعر ليله فيقول : يا عجبا لك أيها الليل ، لقد مررت مسرعا ، ولم يكن ليلى قبل ذلك بهذا القصر ، ويتعجب أيضا من مكان لهوه ومجلسه مع نعم دون أن ينغص عليه أحد نشوة هذا اللقاء .

ثم يحدثنا فى الأبيات (٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩) عن محبوبته وصفا تقليديا قديما

ففمها يتضوع بالمسك وتزينه ثناياها المفلجة ، وإذا كشفت عنه بالابتسام شاهدت أسنانها النقية البيضاء كحبات المطر، أو كأنها نبت لأزهار جميلة ، وعندما تلتفت إلى الشاعر تنظر إليه نظرات الجوذر إلى أمــــه بعينين جميلتين بين الغصون والخمائل .

٤ — الأبيات (٤٠ — ٦٠) عن تدبير النجاة من المغامرة .

يعود الشاعر فى هذه الأبيات إلى متابعة الموضوع الذى انشغل عنه بوصف محبوبته التى أشارت إليه عند انقضاء معظم الليل بأن القوم قد حان أوان يقظتهم ، ونبهته إلى حتمية الانصراف على أن يكون لقاؤهما فى « عزور » ويصل الشاعر فى البيت (٤٢) إلى العقدة التى استحكمت فى هذه القصة الغزلية ، فيذكر فزعه بسبب صوت المنادى فى القوم يؤذن للرحيل ، وقد بدت تظهر فى الأفق أنوار الصباح وأوشكا أن يفتضحا فاتجهت نعم إلى حبيبها بعد أن رأت من أستيقظ من قومها، وطلبت منه المشورة والأمر . وأشار عليها بأن يخرج إليهم ويواجههم بسيفه، فإما أن ينجو منهم ، وإما أن يثأروا منه لكرامتهم . ورفضت هذه الفكرة لأنه بذلك سوف يبرهن على صدق ما قاله الأعداء عنهما، ورأت أن تلجأ إلى حيلة ربما تكون أدنى للخفاء ، حتى يبقى سرهما مكنونا ، ووضعت بحدسها الأنثوى خطة للخروج من هذا المأزق فرأت أن تحدث اختيها بما كان من قصة حبهما بدون تأخير حتى تقدما العذر وتعاونا فى إيجاد المخرج ، وحتى تتسعا صدرا بما ضاقت به نفسها .

وقامت إلى إختيها وهى فى أسوأ حال ، شاحبة اللون من شدة الحزن وتساقط الدموع من عينيها لهول الموقف ، وطلبت من أختيها المساعدة فى إنقاذ هذا الفتى الذى جاء إليها زائرا ، ولكل أمر ما يناسبه من التقدير والأحكام ، فأقبلتا مرتاعتين فى أول الأمر، ثم مالبثتا أن فكرتا فى الأمر وطلبتا منها تخفيف الحزن ، لأن الأمر جد يسير ، وكانت النجاة

فى خروجه بينهن متنكرا بدون أن يفشو هذا السر أو تقع فضيحة تقضى على هذا الحب ، وكان درعه الذى يتقى به الأعداء ثلاث شخوص فتاتان فى سن البلوغ وهما أختا نعم وامرأة فى سن الشباب، وهى نعم . وبعد أن جاوزوا جميعا ساحة الحى ، ووصلوا إلى أول شاطىء الأمان قلن لعمر : أما تخاف من الأعداء فى هذه الليلة المقمرة ؟ وقلن أيضا : هل هذا هو شأنك طوال حياتك لا تهتم ولا تبالى ؟ أما تستحى أو تخاف أو تفكر فى عاقبة أمرك ؟ قلن له ذلك وهو صامت لا ينطق ، وفى آخر المغامرة قلن له : إذا جئت إلينا فانظر إلى غيرنا حتى يظنوا أن هواك إلى حيث تنظر ؛ ليبقى حبنا سرا مكتونا .

وكان آخر عهده بها عندما كرت راجعة وظهر منها خد نقى وعين واسعة . وقال لها قولة واحدة ، وهو يستحث النياق للرحيل: هنيئا لاهل العامرية رائحتها الطيبة التى تنتشر منها فتعطر سماء الحى ، هنيئا لهم رياها التى يتذكرها ولن ينساها .

٥ — الابيات (٦١ — ٧٣) عن وصف الناقة .

يصف الشاعر فى هـــذه الأبيات ناقته بعد أن تركها فى الفضاء ، ويذكر أنها تحملت معه كثيرا من مشقات السفر فى الفلوات سواء فى سرى الليل أو فى وقت الهاجرة.

يقول : وقمت إلى الناقة التى ذهب شحمها ونقص لحمها بسبب السير ليلا ، ولكثرة أسفارها غـــدت كأنها لوح خشبى أو قطعة من الخشب المشدود ، أو كأنها هودج صغير ضيق لا يتسع إلا لفرد واحد . وينتقل إلى وصف مورد للماء أقبلت إليه الناقة بجنون لشدة ظمئها ، فيذكر أنه وصل إلى هذا الماء بمكان قفر ربما لم ينزل إليه أحد منذ أمد بعيد ، إذ أن العنكبوت قد ابتنى له بيتا على طرف البئر فاكتست أطرافه بلون مائل إلى السواد ، ثم يذكر أنه لا يستطيع تحديد الوقت الذى وصل فيه إلى البئر،

فالأمور قد اختلطت عليه ، ولقد قام إلى ناقته التى أسرعت فى لهفة إلى البئر ، وكان فى نزاع معها، هى تريد الوصول إلى الماء ، وهو يريد منعها عنه لفساد مائه ولم يقدر عليها إلا بعد أن أحكم الإمساك بزمامها ، ولولا ذلك لكانت قد تكسرت فى البئر لشدة اندفاعها ، وتألم لناقته، ولم يقدر على منعها من الماء فى هذه الأرض المقفرة ، فجعل لها من جانب البئر مكاناً صغيراً فى قدر الشبر يجمع فيه الماء وعلى قدر مشافرها. ولا يبق منه فراغ إذا وضعت فمها فيه . وعندما أراد أن يخرج الماء من البئر جعل القعب الذى يشرب فيه دلوا ، وأخذ الحبل الذى يشد به الرحل على الناقة ، وأطاله بجلد مضفر حتى يصل القعب إلى الماء ويرفعه إلى المنشأ الصغير ؛ ليجمع فيه الماء ، وحتى يدفع الضرر عن الناقة التى شمت الماء ولم تمتنع عن شربه مع تغير لونه ورائحته .

الألفاظ والأساليب والموسيقى وملاءمتها للجو الشعورى .

١ — فى الأبيات (١ — ٩)

لقد طال نفس ابن أبى ربيعة فى هذه القصيدة ، لأنها عبارة عن قصة شعرية غزلية حكى فيها واحدة من تجاربه الكثيرة .

ويستهل المطلع بمقدمة غنائية حاكياً بدء قصته مع حبيبته التى يرتحل إليها فى الصباح المبكر، أو عند الهاجرة حيث يستريح الناس من حرارة الشمس .

وفى المقدمة يتحدث عن نفسه ، وعن حبيبته ، وهما بطلا القصة التى ذكرت أحداثها فى قرابة السبعين بيتا ولنعد إلى قراءة أول القصيدة الذى يقول فيه :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

ونؤكد أنه لم يكن سباقاً إلى فكرة هذا المطلع بل سبقه النابغة فقال :

أمن آل مية رائح أو مغتدى
عجلان ذا زاد وغير مزود[1]

ويعتمد عمر فى أسلوبه على الحوار والوصف ، وألفاظه رقيقة عذبة وعباراته منسابة فى شفافية .

فالألفاظ موحية ومعبرة ولا تنحدر إلى غلظة البادية وجفوة الأعراب ، فهى تعبر عن الحضارة والرق ، وتنساب فى همس وليونه ، وذكر عمر نعما فى المطلع خمس مرات ، لأنه يتلذذ بذكرها ، كما توسل إليها بكثير من الضمائر التى تعود إليها ، وهذا يخالف طبعه ، لأنه يتحدث فى معظم شعره عن غرام النساء به وعن دورانهن حوله .

ولقد اختار سفره فى الغدوة والروحة لأنها وقت الراحة ، ليتمكن من الوصول إلى محبوبته .

وقوله فى البيت الأول (غاد فمبكر ورائح فمهجر) يوحى بكثرة أسفاره وشدة انشغاله بأمرنعم .

ولجأ فى مطلع القصيدة إلى التجريد أى أنه جعل من نفسه شخصاً آخر يتحدث إليه ، وهى طريقة معروفه ومتبعة لدى كثير من الشعراء ، ولأنها تلائم الحوار الذى بنيت عليه الأبيات .

وقوله « تهيم » فى البيت الثالث يكشف عن شدة حبه لنعم ، وعبر بإن الشرطية فى البيت الرابع للشك فى دنوها منه وقوله : « إذا » فى البيت

---

(١) ديوان النابغة ص ٨٩ طبع دار المعارف عام ١٩٧٧ م تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

الذى يليه يفيد تحقيق الزيارة أو قرب وقوعها على الأقل ، وختم البيت بقوله « يتنمر » وهى كلمة توحى بالكراهية والغضب .

وقوله: «وأخرى» أى وامرأة أخرى مكتفيا بالصفة دون الموصوف؛ لأن المقام لا يسمح بالحديث عن غير نعم .

وقوله : يشهر وينكر » بتضعيف الهاء فى الأول والنون فى الثانى للمبالغة فى التشهير والنكران .

والشاعر ينوع فى أساليبه بين الإنشاء والخبر ، ففى البيت الأول يكرر الاستفهام مرتين مما يكشف عن ضيقه وحيرته ، كما يوحى بالبلبلة واضطراب النفس . والاستفهام للتعجب فى البيت التاسع (أهذا الشهر؟)؛ وذلك لتغير حالته .

وقوله « ألكنى » أسلوب إنشائى، وهو أمر غرضه الالتماس .

ومن الأساليب الخبرية التى جاءت فى المطلع قوله « تهيم إلى نعم .... » والغرض البلاغى لهذا الخبر هو الشكوى والتحسر لعدم جمع الشمل .

وفى البيت الأول نراه يقدم « من آل نعم » وذلك للاختصاص فالشاعر لا يرحل إلا إليها . ويأتى الطباق عفوا فى البيت الرابع بين « دنت ونأيها » وهو يوحى بالحيرة والقلق ، ومثله فى البيت السابع بين « يسر ومظهر » .

وتأتى الموسيقى لتواكب الألفاظ والتراكيب فى التعبير عما بداخل الشاعر فى هذا المطلع الغنائى . ومع أن القصيدة من بحر الطويل الا أنه استطاع أن يطوعه ويجعله صالحا للغناء سواء من ناحية الموسيقى الخارجية المتمثلة فى الوزن والعروض والقافية أو من ناحية الموسيقى الداخلية النابعة من الألفاظ الرقيقة المنتقاة المعبرة عن الجو النفسى ، ويأتى حسن التقسيم فى بعض الأبيات عونا لهذه الموسيقى الداخلية المتناسقة ، ولنرجع

إلى البيتين (الثالث والرابع) ونرى مافيهما من حسن تقسيم بين الفقرات المختلفة ، وكلها يبدأ بقوله « لا » التي تعبر عن رفضه لواقعة وعدم استسلامه لليأس .

وهكذا يمضي الشاعر في قصيدته مستعينا باللفظه المفردة وبالجملة المتنوعة وبالتفعيلة العروضية في التعبير عما يجيش بفؤاده ، ويتحرك في وجدانه .

٢ — الأبيات (١٠ — ١٨)

لاتختلف الألفاظ والتراكيب في هذه الأبيات عن مثيلاتها في مطلع القصيدة وهو هنا منصرف للحديث عن نفسه ، معنى بما قالته « نعم » وصديقتها « أسماء » عنه .

والأبيات من العاشر إلى الثامن عشر صورة لصفات بطل القصة ومرتبطة بالمقدمة الغنائية التي استهل الشاعر بها القصيدة ليكتمل بكل هذه الأبيات التقديم للحديث عن المغامرة الليلية بدءا من البيت التاسع عشر .

وابن أبي ربيعة كشاعر متخصص في الغزل ينتقي الألفاظ الموحية المعبرة ومنها كلمة (المغيرى) في البيت العاشر ، وهي توحي بالشهرة والذيوع ، وجاءت بعدها كلمة (يذكر) كالتأكيد لها .

وقوله « أطريت نعتا » نجـــد فيه كلمة « نعتا » نكرة وهي للعموم والشمول ، كأنها لم تترك صفة له إلا وذكرتها على حد قول الشاعر .

وجاءت كلمة « رجلا » نكرة لإفادة التعظيم ، ولبيان أنه رجل ليس ككل الرجال . وكلمة « جواب » صيغة مبالغة ، وهي تكشف عن كثرة تنقلاته وترحاله ، وذكر في البيت نفسة كلمتين وهما « أشعث ، أغبر » وهما يعبران عن حالته أصدق تعبير ، ويكشفان عما فعله السفر به .

وكلمة « ريان » توحي بالشبع والنضرة ، وأنها في نعيم دائم .

وقوله « ملتف الحدائق » يوحى بكثرة الزروع والثمار وشيوع الظل فى دار إقامتها . وفى قوله « كل شئ » فى البيت الأخير إفادة للعموم وبيان أنه لا ينقصها شيء تسعى إليه ، فقد أكتملت لها كل أسباب العيش الرغد والحياة السعيدة .

والشاعر ينوع فى الأبيات بين الخبر والإنشاء ومن الأساليب الخبرية قوله « والإنسان قد يتغير » وهو أسلوب تقريرى لبيان حقيقة واقعة .

والأسلوب الخبرى فى البيت الرابع عشر لإظهار الفخر والاعتداد بالنفس ، وجاء الأسلوب خبريا فى البيت الذى يليه للفخر أيضاً .

والأسلوب الأدبى يقتضى التنويع بين الخبر والإنشاء ، ولأن الأسلوب الإنشائى يشد انتباه السامع ويهيئ ذهنه ووجدانه لما يعرض عليه . ويأتى الإنشاء بأنواعه المختلفة لأغراض كثيرة يقتضيها المقام ، ولقد أكثر الشاعر من أساليب الاستفهام ، لأنه يأتى ملائما التعبير عن الحيرة والحسرة كقوله على لسان نعم « أهذا المغيرى » إذ أنها تتوجع وتتحسر على ماحدث له ، وتنكر أن تكون حالته على ماهى عليه .

والاستفهام فى الشطر الأول من البيت (هل تعرفينه ؟) استفهام حقيقى وهو للتحسر أيضا فى البيت الحادى عشر . وقوله فى البيت نفسه « وعيشك » قسم للتأكيد على عدم نسيانه ، وقوله « قفى فانظرى » فيه حركة وتجسيد ، والأمر فى الفعلين للالتماس .

والشاعر يعمد إلى الذكر والحذف حسبما يقتضى الحال ، وجاء بكلمة « أسماء » دون حرف النداء مما يكشف عن حيرة نعم وقلقها لحالته المتغيرة ، وقدم المفعول على الفاعل فى قوله « غير لونه سرى الليل » للتنبيه على المشقة والمعاناه . وليس للشاعر كلف بالبديع كما هو ظاهر إلا ماجاء عفوا . كالطباق فى البيتين الثانى عشر (بين سرى الليل والتهجر) والرابع عشر بين (الشمس والعشى) .

وفى بعض الأبيات تفصيل وحسن تقسيم بين الفقرات كما فى البيت (الرابع عشر) .

٣ – الأبيات (١٩–٣٩) :

ذكرت أن ألفاظ الغزل تأتى رقيقة وبخاصة إذا كانت من شاعر غزل كعمر بن أبى ربيعة باستثناء بعض الكلمات التى جاءت خشنة جافة كـكلمة «جشمتنى»، وهى توحى بالضيق والمعاناة. وكلمة «الهول» فى البيت نفسه وتوحى بالفزع والخوف وقوله: «على شفا» توحى بالخطورة، وتعطى الإيحاء نفسه كلمة «أوعر».

وتعرفه على رائحتها بقلبه يؤكد سابق معرفتهما، وأنها معرفة نابعة من قلبه وأعماقه.

وقوله فى البيت «٢٦»، «وغاب قمير» بتصغير القمر، لأنه ناقص عن التمام، وهذا يكون فى أول الشهر أو فى آخره، قال عمر فى بيت آخر:

وقمـــير بدا ابنَ خمس وعشريـ
ـن له قالت الفتاتان قوما[1]

ولعله أراد بالتصغير احتقاره، لأنه كان يهدده بفضح أمره.

و «تولهت» كلمة توحى بالتصنع من نعم. وربما كان القول حقيقة، وذلك من المفاجأة لعدم توقعها. وجعلت أهلها أعداء له، لأنهم ينوون به الأذى، وأوضحت كلمة «حضر» باقتراب الخطر منه، وكلمة الناس كلمة عامة توحى بالأمان؛ لعدم شعور أحد من أقاربها أو من غيرهم، ويكشف عمر عن ارتياح نعم له فى البيت (٣٤) بالمناداة عليه بالكنية (أبا الخطاب) وتؤدى إلى نفس الإيحاء كلمة «أمير» فى البيت نفسه، وكلمة «ترنو»

---

(١) الديوان ص ١٩٢

توحى بتعلقها به وحبها له ، وفى هذه الأبيات يعمد الشاعر إلى استخدام الجموع (مصابيح ، أنور ، رعيان ، سمر ، الناس ...) وفى زيادة العدد زيادة الخوف والرهبة .

والشاعر ينوع فى تراكيبه بين الإنشاء والخبر ، فلا يترك أسلوبه يمضى على وتيرة واحدة فيأتى بالأساليب الخبرية المعبرة عما بداخله، ويأتى بالأساليب الإنشائية من استفهام ونداء وقسم ؛ لتكون ترجمة وتعبيراً عن حالته الشعورية هذا بالإضافة إلى إعتماده على الحوار الذى يبعث الروح والتجسيد فى الأسلوب ؛ فهو يقول « وأنت أمرؤ ميسور أمرك أعسر » ، والغرض من هذا الأسلوب الخبرى هو اللوم والعتاب؛ لاستهانته بالمخاطر ونأتى إلى البيت (٣٤) انرى المدح والإطراء من خلال الأسلوب الخبرى . وقد تأتى الجملة خبرية فى اللفظ إنشائية فى المعنى ، ويكون الغرض منها الدعاء كقوله « وقيت » فى البيت (٣٠) ويوحى التركيب بشدة خوفها عليه ، وكقوله « كلاك » والغرض الدعاء أيضاً .

ومن أساليب الاستفهام التى أكثر منها الشاعر فى القصيدة كلها قوله : « أين خباؤها » ، وقوله « وكيف لما آتى من الأمر مصدر ؟ » ، والغرض منهما التحسر والاضطراب .

وأريتك بمعنى أخبرنى والغرض منــــه الطلب ، وقوله « ألم تخف » استفهام تقريرى إذ أن التقرير هو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه .

والاستفهام حقيقى فى قول عمر : « أتعجيل حاجة ... » البيت وهو يوحى بالتشكك فى سبب الزيارة .

ومن النداء التعجبى فى الأبيات قوله « فيالك من ليل » ويتعجب من سرعة انقضاء الليل وهو مع محبوبته ، ويقول أيضاً : « ويالك من ملهى »

وهو نداء تعجبي يكشف عن فرحه وسروره من مجلسه في دار نعم .
والقسم في البيت (٣١) يوحي بالحيرة ، ويعبر عن الشك مثلما قلنا عن الاستفهام في هذا البيت . وفي قوله : « آتي ومصدر » طباق ، وكذلك قوله « ميسور وأعسر » و « تقاصر وما كان يقصر » .

٤ — والأبيات (٤٠ — ٦٠) :

يستعين الشاعر بالألفاظ والتراكيب التي تتواكب وتتلاءم مع تجربته القصصية في القصيدة فيقول في هـــذه الأبيات « تغور » ، أي تختفي بتضعيف الواو وهو يفيد المبالغة في الحدث وكلمة « هبوب » في البيت الذي يليه توحي بالخطر ، وهبوب أي انتباه وهو من هب يهب بالضم قال عمرو بن كلثوم :

ألا هُبيّ بصحنـــك فاصبحينا
ولا تُبقي خمـــور الأندرينا[1]

وقوله « فما راعني إلا مناد » أسلوب قصر وطريقه النفي والاستثناء .
والقصر من أساليب التأكيد ، وكلمة « راعني » توحي بالفزع والاضطراب وكلمة « أشقر » تفيد الوضوح .

وقوله . « فلما رأت من قد تنبه منهم » يوحي بخوفها وذلك واضح من خلال متابعتها لقومها سكونا وحركة ، و (قـــد) تفيد التأكيد والتحقيق

---

(١) أنظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٦٣ طبع مكتبة المعارف — بيروت — الطبعة الرابعة ١٩٨٠ م

وفى البيت (٤٥) حسن تقسيم وإيجاز بالحذف فى قوله « فقالت أتحقيقاً » أى أتفعل هذا تحقيقاً ؟

وفى قوله « ترحبا وأحصر » طباق ، وقوله « كثيبا » صيغة مبالغة على وزن فعيل وهى توحى بشدة الحزن والكآبه ، وفى البيت (٥٠) بعض الكلمات التى توحى بمدى النعيم والرفاهية الذى تعيش فيه نعم وأسرتها كقوله « من خز دمقس وأخضر » .

وجملة (أتى زائراً) صفة لفتى وهى توضيح لما قد يكون فى ذهن أختى نعم من تساؤل واستغراب ، ويسوق الشاعر على لسان محبوبته حكمة تكشف عن حنكتها وهى « الأمر للأمر يقدر » .

وكلمة « الدهر » تفيد الدوام والاستمرار على ما هو فيه من اللهو والعبث . وقوله : « والعتاق الأرحبيات تزجر » توحى باستمرار الخوف وفى البيت (٦٠) مبالغة مقبولة فى قوله « هنيئاً لأهل » العامرية نشرها ... » أى إن رائحتها الذكية تنتشر فى كل الحى وهو تعبير يتناسب مع الحديث عن المحبوبة .

والشاعر يستخدم الأساليب الخبرية بكثرة ، ولأغراض مختلفة كإثارة الفزع فى قوله « تذرى عبرة » ولبيان أسباب الخطر فى قوله : « والليل مقمر » .

ويستخدم الأساليب الإنشائية التى تتلاءم مع الحوار الذى بنيت عليه القصيدة فالأمر للالتماس فى قوله على لسان نعم : « أشر » والاستفهام يكشف عن الحسرة والقلق فى قوله على لسانها أيضاً : كيف تأمر ؟ وهو للإنكار فى قوله : أتحقيقا ؟ والأمر فى قوله : « أعينا على فتى » للالتماس ، لأن الموقف الصعب لا يقتضى سوى ذلك . وفى البيت (٥٢) حركة

وانتقال مثل قوله « أقبلتا ، ارتاعتا ، قالتا » ، وتأتى السرعة مع الحركة تعبيراً عن هذا الموقف الصعب ، ونلاحظ كثرة استخدام الشاعر للفاء العاطفة إذ أنها للترتيب والتعقيب مثل فقامت بالبيت (٤٩) فقامت بالبيت (٥٠) فقالت بالبيت (٥١) فأقبلتا ، فارتاعتا بالبيت (٥٢) ومع التعقيب حركة وسرعة من غير شك وبعد ذلك تأتى (ثم) التى تفيد التراخى ، لان ما قالته الاختان بعد ذلك يستدعى مهلة وروية فى التفكير قبل القول واتخاذ القرار .

والأمر فى « أقلى عليك اللوم » للنصح والإرشاد وقوله « ثلاث شخوص » ، والوجه ثلاثة شخوص ، لكنه لما قصد النساء أنث على المعنى ، ولذلك جاء التفصيل « كاعبان ومعصر » ، وهن أناث وفى البيت (٥٦) استفهامان للانكار / :

أهذا دأبك الدهــــر سادراً ؟
أما تستحى أو ترعوى أو تفكر ؟

والأمر فى قوله : « امنح » للنصح والإرشاد .

٥ — الابيات (٦١ — ٧٣) :

يصف الشاعر فى هذه الأبيات ناقته التى تغير حالها وذهب لحمها ، ويعز عليه أن تصل إلى ما وصلت إليه من ضعف وظمأ شديدين . وهو متتبع لاستاذه ورائده امرىء القيس ، ويكشف الحديث عن الناقة عما كان فيه من قلق وفزع فى رحلة عودته من ديار نعم ، ولننظر إلى بعض ما فى الأبيات من إيحاء يشف عن الحالة الشعورية التى كان يعيشها ...

فى قوله : «كأنها بقية لوح» ، نجد أن كلمة «بقية» توحى بالحالة السيئة التى
انتهت إليها الناقة وفى البيت (٦٣) نكر الشاعر كلمة (ماء) لبيان تحقيره
— وقوله فى البيت (٦٨) تكسر بتضعيف السين للمبالغة أى أنه لو لم
يكن الشاعر ممسكا بزمامها وجاذباً لها لتكسرت تكسيراً عظيما . وفى
البيت (٧٢) أسلوب قصر وطريقه النفى والاستثناء «ولا دلو إلا القعب»
وكلمة أكدر فى البيت الأخير تؤكد ما قبلها ، وتبين كثرة تغير ماء البئر
وهكذا تنتهى أبيات القصيدة بعد أن ختمها الشاعر بهذه الأبيات عن
ناقته .

الصور الخيالية ومطابقتها للحالة النفسية

١ — الأبيات (١—٩)

الخيال وليد العاطفة الصادقة ، والشاعر فى هـــذه الرائية لا يمعن فى
الخيال ، وإنما يخاطب الحقيقة غالبا ، وهو يجنح أحيانا إلى الخيال عندما
يريد (مثلا) أن يرسم لمحبوبته بإلهام الشعر وصدق الفن صورة متميزة ،
وليس الخيال مكثفا فى الأبيات الأولى من القصيدة والتى يخاطب بها
الحقيقة ويعبر عن الواقع ، وهو يعلو مع الخيال ويعيش مع تجربته من
خلال أساليب التجسيد المتنوعة ، فالشاعر هنا يميل إلى السرد والحوار ،
ويعمد إلى الوصف ، ويقدم الكناية على التشبيه والاستعارة .

ففى البيت الثانى كنايتان الأولى فى قوله «لحاجة نفس» ، وهى كناية
عن رغبته فى الالتقاء بمحبوبته ، والثانية فى قوله «ولم تقل فى جوابها»
وهى كناية عن كتمان هذه الحاجة وعدم البوح بها .

وكنى فى البيت الثالث عن عدم القرب والمودة بعدم وصل الحبل
وجمع الشمل .

واستعار فى البيت السادس النمر لذى القرابة حيث يتنمر القريب ويأخذ طباع هذا الوحش .

وقوله « أم بيتها » بالبيت السابع مجاز مرسل علاقته المحلية ، إذ أنه ذكر المحل ، وأراد الحال فيه وربما تتضح هذه العلاقة فى قول من قال :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفن قلبى ولكنّ حبُّ من سكن الديارا

وقوله فى البيت الثامن « المشهر » كناية عن الشاعر نفسه .

٢ — الأبيات (١٠—١٨)

لم يكن الشاعر يناجى محبوبته فى هذه الأبيات بل كان يتحدث إليها ، ويخاطب الحقيقة ، ويعبر عن الواقع ، وكل ما جاء بها من صور جاء عفوا وبلا تكلف .

وقوله فى البيت الحادى عشر « إلى يوم أقبر » كناية من الممات والبيت الخامس عشر أفضل هذه الأبيات فقوله « أخا سفر » كناية عن ملازمته للسفر ، وأنه مستمر فى قطع الأرض لا يهدأ ولا يستقر ، وقد شخص السفر بالمكنية حيث جعله إنسانا وله أخ . وقوله « تقاذفت به فلوات » استعارة مكنية وتشخيص بها وهى تكشف عن تعبه وإرهاقه .

وقوله « قليل على ظهر المطية ظله » كناية عن الضعف والهزال وقوله : « فليست لشىء آخر الليل تسهر » كناية عن السعادة وفراغ البال ، وهكذا تتواكب الصور الخيالية مع الألفاظ والتراكيب فى التعبير عن الحالة النفسية فى هذه التجربة العاطفية .

٣ – الأبيات (١٩ – ٣١)

فى البيت (٢١) استعارة مكنية فى قوله « يستمسكن النوم منهم » وفيها تشخيص للنوم .

وفى البيت (٢٢) كناية فى قوله : « طارق ليل » عن شخص مجهول .

وفى البيت (٢٣) استعارة مكنية فى قوله « أناجى النفس » وهى تشخيص للنفس .

وفى البيت (٢٤) شخص الرائحة الطيبة ، وجعلها إنسانا تدل القلب عليها « فدل عليها القلب ريا عرفتها » .

وفى البيت (٢٥) كنايتان عن استغراقهم فى النوم « فقدت الصوت » و « أطفئت مصابيح » .

وفى البيت (٢٧) كناية عن النوم فى قوله « وخفض عنى الصوت » وفى البيت نفسه تشبيه بليغ حيث شبه مشيته الحذرة بمشية الحية فى الهدوء .

وفى البيت (٢٩) كناية عن الاضطراب والخوف والحيرة ، وذلك فى قوله « عضت بالبنان » .

ومن الأبيات الزاخرة بالصور المعبرة البيت (٣٢) ففيه استعارة مكنية فى قوله : « قادنى » الشوق والهوى ، حيث شخص الشوق والهوى . ولقد أعطى الشاعر فى جوابه على محبوبته الأمل فى الحب العظيم وذلك ظاهر فى الشطر الأول من البيت ، وأعطاها الأمن والسلام . وذلك فى الشطر الثانى .

وفى البيت (٣٣) استعارة مكنية فى قوله (لانت) حيث شبه محبوبته

بشيء يلين ويشتد . وقوله « أفرخ روعها » كناية عن الاطمئنان والسكينة .

وفى البيت (٣٦) استعارة مكنية فى قوله (يكدره علينا مكدر) إذ صور لهوه وأنسه بمحبوبته بالنبع الصافى ، وهى توحى بالأمن والاطمئنان .

وفى البيت (٣٧) استعارة تصريحية إذ شبه فيها رضابها بذكى المسك

وفى البيت (٣٨) تشبيه لأسنانها بحصى البرد أو الأقحوان المنور ليجمع الفم بين اللون الجميل والرائحة الذكية ،

وفى البيت (٣٩) شبه نظرتها إليه بنظرة ابن الظبية إلى الظبية والغرض من التشبيه وصف عيونها وإبراز محاسنها .

٤ — الأبيات (٤٠ — ٦٠)

قوله فى البيت (٤٢) « معروف من الصبح » كناية عن علامات الصباح وفى البيت (٤٤) استعارة مكنية فى قوله « ينال السيف ثأرا » حيث شخص السيف وجعله إنسانا يطلب ثأره ، ويجوز أن يكون التركيب مجازا مرسلا فى كلمة « السيف » وتكون العلاقة هى السببية إذ أن السيف سبب فى الثأر والانتقام .

وقوله « بدء حديثنا » أى أول حديثنا « وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية . وقوله « ليس فى وجهها دم » كناية عن خوفها واضطرابها . وقوله « حرتان » كناية عن أختى نعم . وقوله « من كنت أتقى » كناية عن قومها . وفى البيت (٥٤) شبه « ثلاثة شخوص » بالمجن وهو تشبيه يظهر إحساس الشاعر بالخطر ؛ لأن المجن وهو الدرع لا يستعمل إلا فى القتال ، ولنقرأ ما ذكره المبرد فى كتابه الكامل عن هذا البيت :

قال « ويروى أن يزيد بن معاوية لما أراد توجيه مسلم بن عقبة المرى إلى المدينة اعترض الناس ، فمر به رجل من أهل الشام معه ترس قبيح، فقال له : يا أخا أهل الشام . مجن ابن أبي ربيعة أحسن من مجنك يريد قول ابن أبي ربيعة :

فكان مجنى دون من كنت أتقى
ثلاث شخوص كاعبان ومعصر »[1]

وفى قوله امنع طرف عينيك غيرنا » استعارة مكنية جسم فيها الطرف وجعله شيئاً محسوساً مجسما يمنع ويقدم للآخرين .

ه – الأبيات (٦١ – ٧٣)

يصور الشاعر فى هذه الأبيات ناقته وهو عائد من ديار بنى عامر بعد زيارته لمحبوبته ويريد أن يجسم المعاناة التى أثرت عليه وعلى ناقته ، وهو هنا لا يميل إلى الخيال بقدر لجوئه إلى الحقيقة ومع ذلك نقرأ له فى البيت (٦٢) قوله : « كأنها بقية لوح أوشجار مؤسر » وهو تشبيه يكشف عن حالة الناقة عند العودة من ديار نعم .

وفى البيت (٦٤) شبه ماء البئر بما به من بيوت العنكبوت بجلد مدبوغ لازال منشورا على الأرض أى لازالت الروائح الكريهة تنبعث منه فضلا عن لونه الباهت .

وقوله فى البيت (٦٥) « وما أدرى » كناية عن الضيق وعدم الراحة وبالتشبيه فى البيت (٦٦) يجعل الناقة مجنونة تضطرب ولا تستقر ،

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٥١ طبعة دار نهضة مصر عام ١٩٨٩ م

وقوله فى البيت (٦٧) « تنازعنى » تشخيص للناقة إذ أنه جعلها انساناً يدخل مع الشاعر فى نزاع ، وهكذا نرى كيف تعاونت الصور والأخيلة مع العاطفة الصادقة فى إبراز القصيدة فى هذا الشكل الرواق الجميل .

التعليق العام على القصيدة

— ١ —

الفكرة العامة لهذه القصيدة أنها تجربة حب عاشها الشاعر بوجدانه وعبر عنها بأسلوب رقيق يساير الحضارة الجديدة التى وفدت إلى المجتمع العربى مع نور الإسلام .

والفكرة الرئيسية فى القصة الغزلية هى حديثه عن مغامراته الليلية فى ديار نعم ، أما الأفكار الجزئية التى تكتمل بها الصورة العامة فتتمثل فى مدح صفاته وإبراز شجاعته والتغنى بملامح محبوبته وبما تعيش فيه من نعيم بين الحدائق والرياحين ، ثم ينتهى الشاعر إلى الحديث عن ناقته التى شاركته الأهوال فى الليلة التى قضاها بين أهل العامرية ، وهكذا تبدو الأفكار واضحة لا غموض فيها ولا التواء .

وابن أبى ربيعة متتبع فى بعض الأفكار لمن سبقوه من الشعراء فهو يقول :

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع
ولا نأيها يسلى ، ولا أنت تصبر

ونحن نجد أن كثيراً من الشعراء تحدثوا بهذا المعنى يقول أحدهم :

لقد عاهدتنى ياقلبُ أنى إذا ماتبت عن ليلى تتوبُ
فها أنا تائب عن حب ليلى فمالك كلما ذُكرت تذوب ؟

ومما يستحسن لعمر فى رائيته قوله فى البيت (١٤)

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
فيضحى ، وأما بالعشى فيخصر

وقوله فى البيت (١٦) :

قليل على ظهر المطية ظله سوى مانفى عنه الرداء المحبر

ويعقب ابن قتيبة على هذين البيتين فيقول :

« وأحسن منه قول المجنون فى نحول البدن :

ألا إنما غادرتِ ياأمَّ مالك
صدى أينما تذهب به الريحُ يذهبِ

وممن أفرط فى هذا المعنى رجل من الأعراب قال :

ولو أنَّ ماأبقيتِ منى معلقٌ بعودِ ثُمام ماتأودَ عودها[1]

وعمر متأثر فى قوله :

وخفّضَ عنى الصوتُ أقبلتُ مشية الـ
حباب وشخص خشية الحى أزورُ

بامرىء القيس الذى قال فى هذا المعنى :

سموتُ إليها بعد أن نامَ أهلها
سمو حَباب الماء حالا على حال

وتأثر عمر فى قوله :

فيالك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

---

(١) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٦٠ والثمام : نبت ضعيف ، وتأود : تعوج .

بامرىء القيس فى قوله :

فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وعمر متتبع لأسلافه الجاهليين فى حديثه عن أوصاف محبوبته فى الأبيات (٢٧ ، ٣٨ ، ٣٩) والأبيات هنا متسلسلة لبنائها على السرد والحوار ، فالقصيدة عبارة عن قصة غزلية يوجد فيها إلى جانب السرد والحوار الحبكة والعقدة والحل والأشخاص وهذه الخصائص تبعد القصيدة عن التفكك وتجعلها متماسكة فى بنائها الفنى؛ لأنها تجربة ذاتية عاشها الشاعر بنفسه قلباً وفكراً وعبر عنها بصدق ومعاناة .

— ٢ —

أسلوب عمر فى هذه القصيدة بل فى معظم قصائده أسلوب قصصى اكتملت فيه كل المقومات الفنية ، وهو أسلوب سهل رقيق أنشىء ليغنى ، لانجد فيه لفظاً غريباً أوكلمة حوشية ، وتتلاءم التراكيب مع الجو الشعورى والحالة النفسية ، ولنرجع إلى القصيدة وإلى بعض كلماتها النابضة بالإحساس والمشاعر مثل قوله :

« يتنمر ، المشهر ، قمير ، أبا الخطاب ، وترنو ، فامنح » وكل هذه الكلمات وغيرها ذات دلالات تتواكب مع الحوادث المتعاقبة .

ومن التراكيب التى تكشف عن نفس الشاعر وتبرز موهبته فى القصة الغزلية قوله :

ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر .

وخفض عنى الصوت .

بل قادنى الشوق والهوى .

ليس فى وجهها دم .

تنازعنى حرصاً على الماء .

ولا دلو إلا القعب .

والأسلوب لا يسير على وتيرة واحدة بل نوع فيه بين الخبر والإنشاء ومن الأساليب الإنشائية التى حفلت بها القصيدة وكان لها دلالات وإيحاءات خاصة قوله :

أهذا المغيرى ؟

ألم تخف ؟

أهذا دأبك الدهر سادراً ؟

فيالك من ليل تقاصر طوله .

قفى نظرى أسماء هل تعرفينه ؟

فالأسلوب سهل رقيق ، ومعبر ، ومتنوع بين الخبر والإنشاء ليس به تنافر بين حروفه أو بين كلماته ، أسلوب سهل قصصى طريف ، لا تجد فيه تكلفا أو تلهفاً نحو محسن بديعى إلا ما جاء منه عفو الخاطر واقتضاء الحال .

— ٣ —

لم يكثر عمر من استخدام الصور الخيالية — كما سبق أن ذكرت — لاعتماده على عناصر أخرى للتجسيد والتشخيص ، وقد اشتملت القصيدة على بعض الصور الخيالية التى رسم بها صوراً معبرة لأبطال القصة الشعرية فتتوالى الصور النابضة فى الحديث عن البطل الأول يقول :

أخا سفر جواب أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث أغبر

قليل على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر

ويصف محبوبته فيقول :

بمجٌ ذكى المسك منها مُقَبَّلٌ ... نقى الثنايا ذو غروب مؤشر

تراه إذا ما افتر عنه كأنه   حصى برد أو أقحوان منور
وترنو بعينيها إلى كما رنا   إلى ظبية وسط الخميلة جوذر

ويصف الناقة فيقول :

فقمت إلى عنس تخون نيها   سرى الليل حتى لحمها متحسر
وحبسى على الحاجات حتى كأنها   بقية لوح أو شجار مؤسر

وللشاعر قدرة على توزيع الألوان والظلال كقوله :

وقد لاح معروف من الصبح أشقر

فقامت إليها حرتان عليهما   كساءان من خزد مقس وأخضرُ
.... وما رد شربها   عن الرى مطروقٌ من الماء أكدر

وهو ينوع فى الصور التى يستخدمها من تشبيه استعارة وكناية ومجاز مرسل ، وعماده فى ذلك العاطفة الصادقة ، لأنه مشغول بالحب منصرف إلى المرأة .

وتمثل هذه القصيدة تجربة من التجارب التى عاشها ، وانفعل بها وعبر عنها ، ولا يقدح فى القول بصدق عاطفته أنه كان رجلا عاشقاً أو معشوقاً من الكثيرات إذ أن كل امرأة تمثل بالنسبة له تجربة خاصة تستولى على أحاسيسه ومشاعره ، ويكاد معها ينسى ماضيه ولا يذكر إلا من تعايشه الموقف والتجربة .

— ٤ —

عندما نتصفح ديوان عمر الذى جعله كله للغزل الصريح نراه يستخدم الأوزان التى تتلاءم مع الغناء ، ولهذا احتفل بشعره أبو الفرج وتحدث عنه فى الجزء الأول من كتابه الضخم « الأغانى » .

ومن الأوزان التى كان عمر يستخدمها ويهتم بها تلك الأوزان التى جاءت

على البحور : الوافر والرمل والمتقارب والخفيف والسريع ، لأنها أوزان خفيفة لاتحتاج إلى جهد من المغنى ، كما جاء أكثر شعره فى صورة قصائد مجزوءة أو مقطوعات صغيرة ، وخالفت القصيدة التى معنا كل ذلك فجاءت أولا طويلة بالنسبة لشعره عامة ثم جاءت ثانيا من بحر الطويل وأوزانه : فعولن مفاعيلن أربع مرات ، ومع ذلك استطاع أن يطـــوعها ويجعلها صالحة للغناء لما فيها من إيقاعات موسيقية مواكبة لحركة النفس هدوءا واندفاعاً . واستعان على ذلك فى بعض الأبيات بما لجأ إليه من حسن تقسيم واستخدام للألفاظ المعـــبرة واعتماد على الكلمات ذات الإيقاع الخاص . وهكذا تحول بحر الطويل عنده إلى وزن هادىء يتغنى بأبياته أهل الغناء فى مكة المكرمة والمدينة المنورة .

— ٥ —

إن هذه الرائية تعبر عن عمر وعن بيئته أصدق تعبير ، وتحمل فى الوقت نفسه كل خصائص شعره فهو شاعر معجب بنفسه مفتون بحب النساء له وتهافتهن عليه، وهو يبدو لمن يقرأه أنه معشوق لاعاشق ومطلوب لاطالب .

فهو يقول :

وترنو بعينيها إلى كما رنا إلى ظبية وسط الخميلة جؤذر

ويقول :

فقالت لاختيها أعينا على فتى أتى زائرا والأمر للأمر يُقدر

فلديه قدرة على تصوير عواطف المرأة وأهوائها .

كما تغلب عليه نزعة الفخر الغزلى ونرى ذلك فى تصويره لاقتحام الليل والأهوال ، والوصول إلى صاحبته (نعم) والتى لاندرى إذا كان الاسم

حقيقياً أو أنه كتبه عن اسم لاندرى حقيقته، وهو فى كل مايفعله ويقوله يحاكى أستاذه ورائده امرأ القيس فى معلقته الشهيرة مع خلاف كبير بين الرجلين فى العصر والفكر والحياة ثم فى التعبير والتصوير والمشاعر والأحاسيس.

ولعمر مقدرة كبيرة فى الإلمام بالتفاصيل والجزئيات، والنفاذ إلى خوالج النفس، والتعبير عن عصره وبيئته، والقصيدة عنده خالصة للغزل بل كل ديوانه فى الغزل وهو رائد لهذا الفن فى عصره بلا منازع.

جاء فى كتاب الأغانى عن هذه القصيدة «أن عمر بن أبى ربيعة أتى عبد الله بن عباس وهو فى المسجد الحرام فقال: «متعنى الله بك أن نفسى قد تاقت إلى قول الشعر ونازعتنى إليه، وقد قلت فيه شيئاً أحببت أن تسمعه، وتستره على، فقال: أنشدنى فأنشده:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ...... البيت

فقال له: أنت شاعر يابن أخى فقل ما شئت»[1].

فهذه القصيدة قد حظيت باهتمام كبير عند الأقدمين من متذوقى الأدب ودارسيه ولا زالت تلقى الاهتمام نفسه أو أكثر حتى اليوم.

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ١ ص ٨١

الأخطل شاعر بنى أمية

التعريف بالأخطل :

أبو مالك غياث بن غوث التغلبي[1] ويكنى بأبى مالك، وولد نصرانيا على دين آبائه فى بادية الحيرة بالعراق سنة عشرين من الهجرة[2] ، ونشأ فى عشيرة من عشائر قبيلة تغلب وهى «مالك بن جشم» التى كانت تقيم بأرض الجزيرة قرب نهر الفرات ، وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وعاش الأخطل مدة مع أمه وأسبغت عليه حنانها وعطفها ، وعاش مدة أخرى مع زوج أبيه ، إما لأن أمه قد ماتت وهو صغير وإما لأن أباه قد طلقها مخالفا بذلك العقيدة المسيحية ، وكانت زوج أبيه تسيء معاملته وتؤثر عليه أولادها بالدعة والراحة ، ثم ترسله لرعى الماشية . وكان الأخطل لهذا يكثر الشجار معها، فلقبته «دوبلا» وهو الحمار الصغير أو الخنزير ، وعيره جرير كثيراً بهذا اللقب .

ولقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة . واقترن بهذه الموهبة سفه كبير فلقبوه بالأخطل أو لقبه شاعر تغلب كعب بن جعيل بهذا اللقب... وقد ذكر صاحب الأغانى أن كعب بن جعيل كان معززاً فى قومه فلا ينزل ضيفاً بأحد إلا أكرمه ، فلما نزل ببنى جشم بالغوا فى إكرامه ، وقدموا له قطيعاً من غنم «وعز ذلك على الأخطل ، وهو غلام، فانطلق إلى القطيع يهيجه ويثيره حتى نفرت وتشتت ، فقال كعب : إن غلامكم هذا لأخطل» — والخطل : السفه — فغلب عليه اللقب .

---

(١) تراجع سلسلة نسبه الممتدة إلى معد بن عدنان فى كتاب كالشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٤٩٠.

(٢) وقيل سنة ١٨ هـ

ونشأ الأخطل نشأة عدوانية وظهرت آثارها فى شعره ، فلقد هجا أمه ، وهجا ابنى كعب بن جعيل وأمهما ، وامتد هجاؤه إلى ابن جعيل نفسه وهو شاعر القبيلة ، ودارت مهاجاة بين الاثنين ، وكانت الغلبة للأخطل وصار هو المقدم فى قبيلته (تغلب) .

وقد تزوج ثم طلق زوجته وتزوج بأخرى ، وتذكر الروايات أن ابنا له قد قتل فى موقعة البشر وكانت بين قيس وتغلب . ووقع الأخطل نفسه أسيراً فى هذه الموقعة غير أنه ضلل من أسروه ، وقال لهم إنه عبد فأطلقوه .

اتصاله بالسياسة

ذكر ابن قتيبة سبب اتصال الأخطل بالساسة الأمويين فقال على لسان الفرزدق : « كنا فى ضيافة معاوية ومعنا كعب بن جعيل التغلبى الشاعر فقال له يزيد بن معاوية : إن عبد الرحمن بن حسان قد فضح عبد الرحمن بن الحكم وفضحنا . فاهج الأنصار ، فقال له كعب : أرادى أنت إلى الشرك ؟ أأهجو قوماً نصروا رسول الله — ﷺ — وأووه ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى لا يبالى أن يهجوهم ، كافر ، شاعر كأن لسانه لسان ثور ، قال : ومن هو ؟ قال : الأخطل ، فدعاه وأمره بهجائهم ، فقال على أن تمنعنى منهم ؟ قال : نعم ، فقال شعرا فيه :

ذهبت قريش بالسماحة والندى
والـلؤم تحت عمائم الأنصار
فذروا المعالىَ لستمُ من أهلها
وخذوا مساحيَكم بنى النجار[1]

---

(1) المساحى جمع مسحاة وهى آلة من حديد تقشر بها الأرض .

فغضب النعمان بن بشير، الأنصاري؛ ودخل على معاوية فوضع عمامته بين يديه وقال: هل ترى لؤما؟ قال: بل أرى كرما وحسبا»[1]. ولقد هم معاوية بعقاب الأخطل ولكن يزيد حماه.

والعداء بين الأنصار وبنى أمية قديم يرجع إلى أيام مقتل عثمان بن عفان إذ كان معاوية يرى أن الأنصار خذلوا عثمان، ولم يدافعوا عنه ثم زادت العداوة بمبايعتهم لعلى ووقوفهم معه فى صفين، ولما أصبح معاوية هو الخليفة كان يعدهم قتلة عثمان وأعداءه. وعندما استتب الأمر له بعد أن بايعه الحسن، أخذ بعض الأنصار فى هجائه وهجاء قومه، وكان معاوية يتحلم ويعف عن معاقبة ناظميها إلا أن ابنه يزيد لم يكن يتجلد تجلد أبيه فاستدعى الأخطل وحضه على مهاجمة الأنصار[2]، ومنذ ذلك اليوم أصبح الأخطل شاعر البيت الأموى. ويبدو أن معاوية قد ارتاح لما قاله الأخطل فى الأنصار بعد أن أطلع على ما ذكره عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت فى ابنته رملة بنت معاوية.

وهكذا لم يشأ الأخطل أن يسعى إلى البلاط الأموى، ولكن البلاط سعى إليه فى عهد معاوية، وليكون شاعر بنى أمية ولسانهم الناطق فى العراق والشام.

ولم تكن موهبته فى قرض الشعر كافية لاستمرارة شاعراً للأمويين بل كان هناك عامل سياسى ضمن له البقاء مدة طويلة فى هذه المكانة المرموقة وهو أنه من قبيلة تغلب.

---

(١) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٤٦١

(٢) راجع كتاب (فى النقد والأدب) لإيليا الحاوى طبع دار الكتاب اللبنانى جـ ٢ ص ٢٠٥ الطبعة الرابعة.

وكانت هذه القبيلة من أقوى القبائل العربية حتى قيل «لو تأخر الإسلام قليلا لأكلت تغلب العرب» . ولقد تسربت المسيحية إليها فى الجاهلية ، وظلت مع ظهور الإسلام على دينها إلا طائفة قليلة دخلت فى الإسلام وكان منها الشاعر كعب بن جعيل . وعامل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أهل تغلب معاملة طيبة ، وتصالح معهم على ألا يأخذ منهم الجزية ، وإنما كان يأخذ منهم صدقة تعدل ضعف زكاة المسلمين على ألا ينصروا عدوا من أعداء الإسلام ، ولما تولى على — كرم الله وجهه — الخلافة أقسم ليأخذن من نصارى تغلب ما كان عمر قد صالحهم عليه بدلا من الجزية ، فغضبت تغلب لذلك ، وصارت بعد موقعة صفين تحطب فى حبل الأمويين ، وتميل إلى حيث يميلون .

وكانت قبيلة قيس قد نزحت مع الفتوح الإسلامية إلى منازل تغلب وأخذت تزاحمها فى مواردها الاقتصادية . وكانت قيس تميل إلى عبد الله ابن الزبير بينما مالت تغلب إلى بنى أمية .

وعاش الأخطل فى رحاب بنى أمية كشاعر ناطق بلسانهم وكسفير وشاعر لقبيلته تغلب ، وكان جرير شاعرا لقبيلة قيس بينما مال الفرزدق إلى الأمويين مدة طويلة .

لقد مدح الأخطل ملوك بنى أمية ، مدح معاوية ويزيد ثم مدح مروان بن الحكم ، ومدح عبد الملك بن مروان بأفضل شعره ، وكان عصر عبد الملك هو العصر الذهبى له ، نصال فيه وجال ، فكان يمدح الأمويين ، ويدافع عنهم ، وينال من خصومهم .

وعندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة بعد أبيه بدأ نجم الأخطل فى الأفول ؛ لأن الوليد كان يتعصب ضد النصارى ، وقد حول كنيسة

يوحنا فى دمشق إلى الجامع الأموى المشهور »[1] .

ومع أنه أبقى على صلته بالأخطل إلا أنه قرب منه شاعراً شامياً مسلماً هو عدى بن الرقاع ، ولهذا جاءت مدائح الأخطل فى الوليد ضعيفة فاترة .

ترك الأخطل دمشق فى آخر أيامه ، وعاد إلى العراق ، ومات بها فى خلافة الوليد سنة اثنتين وتسعين للهجرة[2] على أرجح الأقوال .

موهبته الشعرية :

كان الأخطل صاحب موهبة عظيمة فى قرض الشعر ، وهو يشبه بالنابغة الذبيانى من شعراء الجاهلية ، ويذكر الرواة أنه كان ينتخب شعره فينظم تسعين بيتا ، ويختار منها ثلاثين .

وبرع فى وصف الخمر لمعاقرته إياها فى الوقت الذى أحجم فيه المسلمون عن شربها ، ومما قاله عنها :

تدب دبيباً فى العظام كأنه
دبيبُ نمالٍ فى نقا يتهيل[3]

وقال فى وصف سكران :

سريعُ مدام يرفع الشربُ رأسه
ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل

---

(١) التطور والتجديد — لشوقى ضيف ص ١٤١.

(٢) وقيل فى أحدى هذه السنوات ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٦ من الهجرة.

(٣) نهاديه : نسوقه ، الحشاشة : بقية النفس.

تهاديه أحياناً وحيناً تجرُّه
وما كاد إلا بالحُشاشة يعقلُ

إذا رفعوا صدراً تحامل صدره
وآخرُ مما ينال منها مُحمَّلُ

وكان حبه للخمر وعدم مقدرته على الاستغناء عنها يمنعه من الدخول في الإسلام حسبما ذكر ذلك لعبد الملك بن مروان .

وكان يمثل بين يديه وعليه جبة خز ، وحرز خز ، وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمرا ، كما برع في المدح ، وتعد مدائحه في عبد الملك دوره الشعرية ، وسوف يتضح ذلك فيما بعد .

ومن فنون الشعر التي تفوق فيها الهجاء ، وبينه وبين جرير مناقضات كثيرة .

وبين أيدينا قصيدة « خف القطين » في مدح عبد الملك بن مروان والإشادة ببني أمية والفخر بتغلب وهجاء قيس .

ولما كانت هذه القصيدة طويلة جدا . وتصل إلى أربعة وثمانين بيتا رأينا أن نختار منها نصف هذا العدد على أن يكون هذا القدر مستوفيا لكل الأغراض ، ومعبرا عن كل ما فيها من أفكار .

قصيدة «خف القطين» للأخطل *

— ١ —

١ — خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نُوى فى صَرفِها غِيرُ

٢ — كأننى شاربٌ يوم استبد بهم
من قَرقَفٍ ضمنتها حمصُ أو جَدَرُ

٣ — لذٌ أصابت حمياها مقاتله   فلم تكد تنجلى عن قلبه الخَمَرُ

٤ — كأنى ذاك أو ذو لوعة خَبَلت
أوصالهُ أو أصابت قلبَه النُشَرُ

(*) الديوان ص ١٦٣ شرح إيليا الحادى، نشر دار الثقافة - بيروت

(١) خف : ارتحل وأسرع ، القطين : أهل الدار المقيمون ، راحوا : ذهبوا فى وقت الرواح وهو العشاء أو من الزوال إلى الليل ، بكروا : ارتحلوا مبكرين فى الصباح ، أزعجتهم : أقلقتهم ، النوى : النية ، وتأتى بمعنى البعد ، صرفها : تقلباتها غير الدهر : أحداثه ومصائبه .

(٢) استبد بهم : غلبوا على أمرهم ، قرقف : خمر ، حمص وجدر : بلدان بالشام (بسورية الآن) وقيل الثانية بالأردن وهما معروفتان بإجادة صنعة الخمر .

(٣) اللذ : الرجل الحلو الحديث ، حمياها : حدتها ، المقاتل : المواضع التى إذا أصيب الإنسان فيها قتل ، الخمر : جمع خمرة والمقصود آثارها من الألم والأذى .

(٤) اللوعة : الحزن ، خبلت : أفسدت ، الأوصال : أعضاء الجسم النشر : جمع نشرة وهى الرقية ، والمقصود بالنشر : الأمراض التى تداوى بها .

٥ — حثوا المطىّ فولتنا مناكبها
وفى الخدور إذا باغمْتها الصّور

٦ — ما يَرْعوين إلى داع لحاجته
ولا لهن إلى ذى شيبة وطرُ

— ٢ —

٧ — إلى امرىء لا تُعدّينا نوافلُه
أظفره الله فليهنأ له الظفَر

٨ — الخائضِ الغمرَ والميمونِ طائرُه
خليفةِ الله يُستسقى به المطر

٩ — والمستمرّ به أمر الجميع فما
يغترهُ بعد توكيد له غَرور

---

(٥) حثوا : حضوا . المطى: روى المطايا بدلا منها ، الخدور: الهوادج باغمتها : كلمتها ، الصور : الجوارى المصورة فى أحسن صورة .

(٦) يرعوين : يرجعن ، وطر : حاجة .

(٧) لا تعدينا : لا تنقطع عنا ، النوافل : العطايا ، أظفره: نصره ، فليهنأ له: هنيئا له .

(٨) الغمر : الماء الكثير ، والمقصود هنا المعارك ، الميمون طائره : المبارك الموفق ، يستسقى به المطر : يذكر اسمه عند طلب المطر فيجيب الله الدعاء إكراما له .

(٩) المستمر به أمر الجميع : الذى تقوى به وحدتهم ، يغتره : يخدعه غرر : خادع .

١٠ — وما الفراتُ إذا جاشت حوالبه
في جانبيه ، وفي أوساطه العُشَر

١١ — وذعذعته رياحُ الصيف واضطربت
فوق الجآجئ من آذيه غُدُر

١٢ — مُسحنفرٌ من جبال الروم يسترُه
منها أكافيفُ فيها دونه زَوَرُ

١٣ — يوماً — بأجود منه حين تسألهُ
ولا بأجهر منه حين يُجتهر

١٤ — مقدِّم مائتى ألف لمقدمه
ما إن رأى مثلهم جن ولا بشر

١٥ — يغشى القناطر ، يبنيها ويهدمها
مُسومٌ فوقه الراياتُ والقَترُ

---

(١٠) جاشت : أضربت . الحوالب : الأمواج ، العشر : شجر .

(١١) ذعذعته: حركت مياهه تحريكا شديدا ، الجآجئ: جمع جؤجؤ وهو صدر السفينة أو الطائر . الآذى : موجه المرتفع الغُدر: جمع غدير وهو مجرى الماء الصغير .

(١٢) المسحنفر : السريع الجرى ، الأكافيف : الجوانب المرتفعة فى أعراض الجبل ، الزور : الميل والإعوجاج .

(١٣) بأجهر منه : بأروع منه حسنا ، يجتهر : يستعظم .

(١٤) مقدم مائتى ألف : سائق مائتى ألف جندى .

(١٥) مسوم الذى فيه علامة تميزه ، القتر : الغبار .

١٦ — حتى يكون له بالطف ملحمةٌ
وبالثويّة لم يُنبَض بها وتر

١٧ — وتستبين لأقوام ضلالتهم ويستقيم الذى فى خده صَعَرُ

١٨ — ثم استقل بأثقال العراق وقد
كانت له نقمةٌ فيهم ومدخر

— ٣ —

١٩ — فى نبعةٍ من قريش يعصبون بها
ما إن يُوازَى بأعلى نبتها الشجر

٢٠ — تعلو الهضابَ وحلوا فى أرومتها
أهل الرباء وأهل الفخر إن فخروا

---

(١٦) الطف والثوى موضعان بالقرب من الكوفة، لم ينبض بها وتر: لم يرم بها نبل، فهى حرب صعبة لم تبدأ بالسهام وإنما فيها التحام بالسيوف والرماح.

(١٧) تستبين : تظهر فى وضوح ، الصعر : ميل الخد عن النظر إلى الناس ، تهاونا وتكبرا .

(١٨) النقمة : البطش ، المدخر : ماخبىء للأعداء من بطش فى المستقبل .

(١٩) النبعة : شجرة صلبة ، والمقصود : الأصل ، يعصبون بها : يحيطون بها ويعتزون بعصبيتها ، يوازى : يحازى .

(٢٠) الهضاب : الجبال العالية ، والمقصود أن هذه النبعة بنيت فوق الجبال فلا يوازيها فى علوها شىء . أرومتها : أصلها ، أهل الرباء : أهل الفضل والمنة .

٢١ — حشدٌ على الحق عيافو الخنا أُنفٌ

إذا ألمت بهم مكروهة صبروا

٢٢ — وإن تدجت على الآفاق مظلمةٌ

كان لهم مخرج منها ومُعتصر

٢٣ — أعطاهم الله جَداً يُنصرون به

لا جَد إلا صغيرٌ بعد مُحتقر

٢٤ — لم يأشِروا فيه إذ كانوا مواليه

ولا يكون لقوم غيرِهم أشِروا

٢٥ — شُمُسُ العداوة حتى يُستقاد لهم

وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدرُوا

---

(٢١) حشد : مجتمعون متأهبون، عيافو الخنا : كارهو الفحش كراهة شديدة، أنف : جمع أُنوف وهو الأبى الذى يرفض الذل، ألمت بهم مكروهة : نزلت بهم كارثة .

(٢٢) تدجت : أظلمت والدياجى : الظلمات ، مظلمة : شدة ، معتصر : منفذ وملجأ .

(٢٣) الجد : الحظ

(٢٤) لم يأشروا : لم يبطروا . مواليه : أصحابه .

(٢٥) شمس : جمع شَموس وهو الصعب القياد ، يستقاد لهم : يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم مأخوذ من قوله : استقدت الأمر من القاتل فأقاد لى منه أى قتله ، الأحلام : العقول . قدروا : تمكنوا من العدو .

٢٦ — لا يستقلُّ ذوو الأضغان حربَهمُ
ولا يُبِينُ في عيدانهم خَوَرُ

٢٧ — هم الذين يبارون الرياح إذا
قل الطعام على العافين أو قتروا

٢٨ — بني أمية نعماكم مُجلّلةٌ
تَمتْ فلا مِنّه فيها ولا كدر

— ٤ —

٢٩ — بني أمية قد ناضلت دونكمُ
أبناء قوم ، هم أووا وهم نصروا

٣٠ — أفحمت عنكم بني النجار قد علمت
عليا معد وكانوا طالما هدروا

---

(٢٦) يستقل الشيء: يعده قليلا ويستهين به ومعنى لا يستقل: لا يحتمل. الأضغان : الأحقاد ، في عيدانهم خور : في أجسامهم ضعف .

(٢٧) يبارون : يسابقون ، العافون : الذين يطلبون القوت ومفرده العافي ، قتروا : افتقروا وضيقوا على أنفسهم .

(٢٨) النعمى : العطايا ، مجللة سابغة تعم الجميع ، المنة : من الامتنان وهو تعداد المعروف ، الكدر : الأذى بتعداد النعم.

(٢٩) ناضلت دونكم : دافعت عنكم ، أبناء قوم : يريد الأنصار الذين هجاهم لما دعاه يزيد إلى ذلك .

(٣٠) أفحمت : أسكت وأخرست بالحجة — بنو النجار : يريد الأنصار من بني النجار وهم قوم حسان بن ثابت وأخوال الرسول ﷺ عليا معد : قريش ومعد جد مضر ومن مضر قريش وبنو أمية ، الهدير الصوت القوي كهدير السيل أو الإبل ومعنى هدروا رددوا الكلام كثيرا .

٣١ — حتى استكانوا وهم منى على مضضٍ
والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

٣٢ — بنى أمية إنى ناصح لكمُ
فلا يبيتن فيكم آمنا زُفَرَ

٣٣ — واتخذوه عدوا إن شاهده
وما تغيب من أخلاقِهِ دَعر

٣٤ — وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنين بنا
لما أتاك ببطنِ الغوطة الخَبَرُ

٣٥ — يعرّفونك رأسَ ابن الحباب وقد
أضحى ، وللسيف فى خيشومه أثر

٣٦ — لا يسمعُ الصوت مُستكاً مسامِعهُ
وليس ينطق حتى ينطق الحجر

---

(٣١) استكانوا : خضعوا ، المضض : ألم المصيبة .

(٣٢) زفر : زفر بن الحارث الكلابى زعيم قبيلة قيس المعادية لتغلب

(٣٣) شاهده : ظاهره ، الدعر : الفساد .

(٣٤) بطن الغوطة : دمشق .

(٣٥) ابن الحباب : عمير بن الحباب السلمى من زعماء قيس وكان قد قتله التغلبيون فى موقعة بين قيس وتغلب نصرة للأمويين ، الخيشوم : أقصى الأنف .

(٣٦) مستكا مسامعه : أصم .

— ٥ —

٣٧ — وقيسُ عَيلانَ حتى أقبلوا رَقَصًا

فبايعوك جِهارا بعدما كفروا

٣٨ — فلا هدى الله قيسا من ضلالتهم

ولا لَعاً لبنى ذكوانَ إذ عثروا

٣٩ — وقد أصابت كِلابا من عداوتنا

إحدى الدواهى التى تُخشى وتنتظر

٤٠ — أما كليب بنُ يربوعٍ فليس لهم

عند التفارُط إيرادٌ ولا صدر

---

(٣٧) قيس عيلان : أشهر قبائل مضر، وقد نافست قريشا فى سيادة العرب، وكانت مع ابن الزبير على بنى أمية وبينها وبين تغلب مواقع كثيرة وحروب طاحنة، رقصا : مسرعين : بايعوك : أعطوا البيعة وهى الطاعة، كفروا : عصوا وخالفوا.

(٣٨) من ضلالتهم : فى رواية : من ضلالتها، لعا : فعله : لعا يلعو بمعنى انتعش، ومعنى لا لعا أى لا ارتفعوا ولا أعانهم الله. بنو ذكوان إحدى قبائل بنى سليم التى خرجت على بنى أمية، عثروا : وقعوا فى كبوة

(٣٩) كلاب : بطن من بطون قيس. الدواهى : جمع داهية وهى الأمر العظيم.

(٤٠) كليب بن يربوع : قوم جرير، التفارط : التسابق فى طلب الماء، أورده الماء إيرادا : جعله يقصد إليه، الصدر : الرجوع عن الماء.

٤١ — مخلفون ويقضى الناس أمرهمُ
وهم فى غيب وفى عمياءَ ما شعَروا

٤٢ — وأقسم المجدُ حقا لا يحالفهم
حتى يحالف بطنُ الراحة الشعرُ

باعث القصيدة :

كان عصر بنى أمية عصر الأحزاب السياسية كالشيعة والخوارج ، والأمويين والزبيريين ، واستعان كل حزب من هذه الأحزاب بشاعر أو أكثر يدافع عنه ويدعو له ، وقد عاش الأخطل شاعرا لبنى أمية ومعبرًا عن آرائهم كما كان يقوم بدور السفارة لقبيلته تغلب عند الخليفة الأموى ، وكان عبد الملك ناقما على قبائل قيس التى بايعت آل الزبير ، ورأى الأخطل أن يتقدم للخليفة عبد الملك بن مروان بهذه القصيدة ليمدحه فيها ويفتخر بتغلب ويهجو قبيلة قيس التى كان لها مع قبيلته معارك كثيرة .

واستمر الأخطل فى إعداد هذه القصيدة سنة كاملة ، وقيل ثلاث سنوات ، لأنها لم تكن قاصرة على المدح بل اشتملت عليه وعلى الفخر والهجاء .

وعند ما أنشد الأخطل هذه القصيدة قال له عبد الملك : « ويحك يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ، قال : اكتفى

(٤١) المخلفون : المؤخرون وراء الناس ، وهم فى غيب : غائبون ، فى عمياء : فى ظلام من ذهاب البصر .
(٤٢) المجد : الشرف ، يحالفهم : يلازمهم ويكون معهم ، الراحة : الكف .

بقول أمير المؤمنين وأمر له بجفنة كانت بين يديه ، فملئت دراهم ، وألقى عليه خلعا وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين هذا أشعر العرب»(١).

شرح الأفكار :

١ — الأبيات (١ — ٦) مطلع تقليدى :

تبدأ القصيدة بداية تقليدية كقصائد القدامى الجاهليين الذين كانوا يبدءون قصائدهم بالغزل والخمر ووصف رحلة الصحراء .

ويتكون هذا المطلع فى أصل القصيدة من سبعة عشر بيتا ، اخترت منها هذه الأبيات الستة ؛ لتعبر عن مكونات المطلع ، وعادة ما يلجأ الشعراء إلى هذه المطالع بما فيها من أطلال وغزل وغيرهما ليصلوا من خلالها إلى الموضوع الأساسى للقصيدة .

ويقول الشاعر فى تلك الأبيات : لقد ارتحل أهل الديار المقيمون معنا مبكرين أو فى وقت المساء بسبب نية ربما تعقبها مصائب يخافون منها ويذكر أن الرحيل لأهل محبوبته قد أثر فيه وجعله مخبولا كشارب خمر شديدة التأثير مصنوعة فى هذين البلدين حمص أو جدر ، ويقول فى البيتين (٣ ، ٤) : إنه مثل ذلك الرجل الخاو الحديث الذى أسكرته الخمر وأصابته فى مقتل ، ولا زالت آثارها باقية على قلبه ، أو أنه كرجل حزين أفسد الحزن أعضاء جسمه ، أو كرهين يداوى من الصرع والجنون بالرقى ، ثم يقول :

---

(١) الأغانى لأبى الفرج جـ ٨ ص ٢٨٨

لقد اندفعت بهم الدواب مسرعة وفوقها الهوادج وبها الفتيات فى أجمل صورة، وإذا كلمتهن من الخلف أبدين حسنهن فى أروع الصور، وإن هؤلاء الفتيات اللائى فى الهوادج لا يستمعن لأحد ولا يرجعن له، تلبية لحاجته، ولكنهن يرجعن إلى من تعلقت قلوبهن به، ولا يرتبطن بحب من شاخ وشاب شعره على حد قول الشاعر .

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له فى ودهن نصيب

وقال آخر :

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى
فأعرضن عنى بالخدود النواضر

٢ ــ الأبيات (٧ ــ ١٨) فى مدح الخليفة :

مدح الأخطل فى هذه الأبيات الخليفة عبد الملك بعدة صفات منها الكرم، فذكر أن مسافراً ذا حاجة قد ارتحل إلى الخليفة فوجد عنده بغيته من العطايا التى نعم بها الخليفة بأمر الله، فهنيئاً له، ويصفه بالشجاعة واليمن فيقول : إن الممدوح يخوض المعارك الشديدة فينتصر فيها ؛ لأنه ميمون الطالع، ولشدة تقواه فإن الناس يستسقون به المطر، ويستجيب الله للناس بسبب هذه التقوى، وبفضله سوف يبقى اجتماع الناس، وتتوحد كلمتهم، لأنه يسوس الأمة بحذر ويقظة دون أن يخدعه خادع، ويعود إلى الحديث عن كرمه فيقول : لم يكن نهر الفرات إذا اضطربت أمواجه، واقتلعت مياهه الأشجار، ورمت بها فى جانبيه وفى وسطه، وقد زاد اضطراب الأمواج مع رياح الصيف واندفعت المياه على صدور السفن مكونة قنوات صغيرة من الماء، وقد اشتد جريان ماء النهر بين جبال الروم، ولم يستر المياه عن الجبل إلا الجوانب المرتفعة من هذه

الجبال — لم يكن نهر الفرات بكل هذه الصورة فى يوم من الأيام أكرم وأجود من الخليفة حين تسأله ، ولا أحسن منه صورة ومهابة عندما تتجلى روعته ، ويعود إلى وصفه بالشجاعة فيذكر أنه جيشا من مائتى ألف يتقدم أمامه ، وهم يمهدون الطريق له ، وإنهم من القوة والكثرة بحيث لم يرجن أو إنس مثلهم ، ثم يرسم صورة لبطولة عبد الملك فيذكر أن جيوشه تتقدم دون أن يعوقها عائق فهو يبنى القناطر لتعبر جيوشه ، ثم يهدمها ليمنع الأعداء من عبورها ، وهو معلم بين الجيش بما فوقه من رايات وغبار ، ويتحرك بالجيوش ليلتحم بالأعداء لتحاماً بطوليا ، وليس مناوشة بالسهام والنبال فى موقعى الطف والثوية. ويشير بذلك إلى ما دار بين عبد الملك ومصعب بن الزبير من معارك بأرض العراق ، وكانت الغلبة فيها للأمويين ثم يقول : إن الجيش يفعل ذلك حتى يعرف المناوئون ما هم عليه من ضلال ، وحتى يستقيم ويعتدل كل منحرف عن مبايعة الخليفة ذلك الملك الذى تحمل كل أعباء العراق ونكل بمن فيه ، وادخر لهم نكالا للمستقبل إذا بدرت منهم بادرة ، وهو يشير إلى احتلال عبد الملك العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير .

٣ — الأبيات (١٩ — ٢٨) فى مدح بنى أمية :

يشيد الأخطل فى هذه الأبيات العشرة ببنى أمية وأمجادهم ، فذكر أن الممدوح ينتمى فى نسبه إلى صفوة من قريش وهم بنو أمية الذين لا يحاذيهم أحد من أهل البيوتات الأخرى ، فهم كشجرة صلبة قوية نبتت فوق قمة عالية لا يصل إليها أى شجر آخر ، وهم أهل الفضل والمنة، وأهل الفخر إن أرادوه ، وهم مجتمعون على الحق يكرهون الفحش ، ولا يقبلون الضيم ، ويقاتلون أحداث الزمان بالصبر ، وإذا أصابتهم مصيبة خرجوا منها ، وتغلبوا عليها ، فهم يحسنون الخلاص من أحداث الدهر وخطوبه ، وقد رزقهم الله حظا ينتصرون به فى مجال الفخر .

ويتضائل بجانبه كل حظ ، ولم تتغير أحوالهم ، ولم يتكبروا لأنهم نالوا ما نالوه عن جدارة واستحقاق ، ولو كان الحظ لغيرهم لأخذتهم العزة وأصروا ، واستكبروا استكبارا .

إن بنى أمية أشداء على خصومهم حتى ينقادوا لهم ، وأعظم الناس بعدا عن الغضب ، وعفوا إذا قدروا أى أنهم لا يجنحون للسلم إلا عن مقدرة ، ولا يطيق الأعداء قتالهم لأن رجالهم أقوياء شجعان ، وهم أهل كرم وأسبق من الرياح المرسلة فى الجود والعطاء خاصة إذا شح الناس وقل الطعام ، ويذكر أن بنى أمية أصحاب نعم كثيرة لا تشوبها شائبة من من أو أذى .

٤ — الأبيات (٢٩—٣٦) فى النصح لبنى أمية والفخر بتغلب :

يذكر الأخطل أسباب فضله على الأمويين فيقول : إنه دافع عنهم بهجاء الأنصار الذين طالموا صاحوا فى جلبة بهجاء الأمويين ، وقد علمت قريش بذلك ، ويؤكد فضله على بنى أميه فيقول : إن الخصوم من بنى النجار قد خضعوا وذلوا وهم فى ضيق وكدر مما أقول، لأن ما أذكره يؤثر فيهم ، وينفذ إلى أعماقهم أكثر مما تنفذ الإبر ، ويوصى بنى أمية بعدم الاطمئنان لزفر بن الحارث الكلابى زعيم قبيلة قيس ، ويوصيهم بعدم الاغترار بظاهرة ، لأن مظهرة ومخبره فساد أخلاق وسوء طبع ، وكان زفر قد وفد إلى عبد الملك بن مروان وهو زعيم لقيس التى كان بينها وبين تغلب حروب كثيرة فلما رأى الأخطل زفر جالسا إلى جوار عبد الملك وعلى سريرة غضب وقال للخليفة : أتجلس هذا معك على السرير وهو القائل بالأمس :

وقد يَنْبُتُ المرعى على دِمَن الثرى
وتَبْقَى حزازات النفوس كما هِيَا

فقبض عبد الملك رجله ودفع بها فى صدر زفر فانقلب على السرير ، ووقف يناشد عبد الملك العهد الذى أعطاه ، وأراد الأخطل أن ينبه الخليفة إلى أن عداوة قيس وزعيمها لا زالت كائنة فى نفوسهم جميعاً ، وهو موقف ، فيه من الحقد أكثر مما فيه من النصح، ثم يفتخر بتغلب فى وقوفها بجانب عبد الملك فى قتال جيشه لقبيلة قيس بالعراق، وقد وصل خبر النصر إلى عبد الملك وهو فى داخل الغوطة الدمشقية ، ثم ذكر أن قومه قد قتلوا عمير بن الحباب السلمى — وهو من بنى سليم ومن زعماء قيس ، ورهطه بنو ذكوان ، وقد بعثوا برأسه وفى أنفه أثر السيف ، ويؤكد فى البيت الأخير من هذه الأبيات قتلهم لابن الحباب فهو لا يسمع ولا ينطق مثل الحجر ، وهيهات للحجر أن ينطق !

● — الأبيات (٣٧ — ٤٢) فى هجاء الأعداء :

تتصل هذه الأبيات بما قبلها اتصالا وثيقا فالشاعر عندما يفتخر بتغلب يهجو أعداءها وأعداؤها هم أعداء بنى أمية ويذكر فى حديثه إلى عبد الملك أن قبيلة قيس عيلان قد جاءت إليك ، وبايعتك علانية بعد ما كفرت بنعمتك وأنكرت فضلك ، ويدعو عليها باستمرار الضلالة ، كما يدعو على بنى ذكوان بألا يقيهم الله من عثرتهم ، وألا يرفع لهم شأنا .

ويذكر الهزائم التى نزلت ببنى كلاب وهم بطن من بطون قيس ، وقد أصيبوا بداهية من الدواهى العظام . وينتقل إلى كليب بن يربوع قوم جرير فيصفهم بالضعف والذل ، وأنهم لا يتحركون إلى الأمام أو إلى الوراء فى أماكن ورود الماء وليس لهم رأى يعبرون عنه إذ أن أمورهم الهامة يقضى فيها وهم غائبون ، وأن رأيهم غير مطلوب وغير مسموع . وتنتهى القصيدة بهجاء بنى يربوع الذين غابوا ، وغاب سعيهم ، ولن يحالفهم المجد إلا إذا نبت الشعر فى باطن الكف وأنى يحدث ذلك ؟!

الألفاظ والتراكيب وملاءمتها للحالة النفسية :

يمتاز شعر الأخطل برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها حيث إنه اتخذ النابغة الذبيانى (أستاذا) له فكان يقتفى أثره فى اللفظة الموحية المعبرة، وكان الأخطل من عبيد الشعر الذين لا يعرضون نتاجهم إلا بعد مدة زمنية قد تطول، فالكلمة عندة لفظة مختارة بعناية لأبعاد متعددة، ولما تؤديه من إيحاء وإيقاع يواكبان المعنى ويتلاءمان معه .

وتكثر فى هذه الرائية الأساليب الخبرية ، والغرض منها المدح .

وتبدأ القصيدة بداية تقليدية يتحدث الشاعر فيها عن رحيـــل أهل محبوبته ، ثم يذكر الخمر وتأثيرها فيه .

وقوله فى البيت الأول : (فراحوا ... أو بكروا) طباق، ونجد فى الأبيات الستة الأولى الألفاظ قوية وجزلة، ويميل فيها إلى استخدام الجموع مثل «غير، مقاتل، الخمر، أوصال، النشر الخدور، الصور . . .» والتراكيب خبرية إلى أن يقول فى البيت السابع «فليهنأ له الظفر» وهو أمر والغرض منه الدعاء، وجاء بكلمة «نوافل» جمعا لتلائم المدح، وهى توحى بكثرة العطاء . وقوله : «أظفره الله» جملة إنشائية فى المعنى ويدعو بها للخليفة ، والأخطل مع أنه نصرانى لكنه يعرف المعانى التى توافق الإسلام ، وترضى هوى الأمويين الذين كانوا يحبون أن يعلم الناس أن الخلافة فى بنى أمية موافقة لمشيئة الله ، وأنها منساقة إليهم بقضاء الله وقدره .

وقوله فى البيت الثامن : «الميمون طائرة» يعود إلى عادة جاهلية قديمة فالشاعر متأثر بأسلافه الجاهليين مثل أكثر الشعراء الأمويين ، وقد كان العرب القدامى فى هذه العادة يستطلعون مصائر الأمور ، فيطلقون

الطير فإذا اتجهت ناحية اليمين تفاءلوا وتيمنوا ، وإذا اتجهت نحو الشمال تطيروا وتشاءموا . وقوله « يستق به المطر » أسلوب يتلاءم مع المدح وهذا يؤكد تأثر الشاعر بالجاهليين الذين كانوا يعيشون فى الصحراء ، وإلا فالعصر الأموى كان عصر تطور وحضارة ، والشاعر والخليفة يعيشان فى دمشق وفى وسط الغوطة المعروفة .

والألفاظ فى هذا البيت والأبيات التى تليه فيها حركة وحيوية كقوله « الخائض الغمر » وكقوله فى البيت العاشر : « وما الفرات إذا جاشت حوالبه » وفى الجيشان حركة ، ونجد الجموع فى هذا البيت « حوالبه ، أوساطه ، العشر » وقد أوحت بالكثرة من طبيعة صياغتها ، وهى تلائم المعنى وتجسده .

وقوله فى البيت الحادى عشر : « وذعذعته رياح الصيف » أسلوب خبرى والغرض منه المدح من خلال رسم الصورة الحسية لنهر الفرات والفعل الرباعى المضعف يعبر عن المعنى المقصود ، وجاءت فى الأبيات التى تحدثت عن هـــذه الصورة الحسية عدة جموع توحى كلها بالكثرة والشمول والاضطراب ، وهى رياح الصيف التى تحرك النهر وتزيد من جيشانه ، وتوحى الجاجىء والغدر بالصخب والاضطراب والفيضان وكلمة غدر توحى بعظم الموج وسرعته الفائقة .

وقوله فى البيت الثانى عشر : « مسحنفر » يدل على السرعة ، وساعدت الكلمة بتكوين حروفها فى الإيحاء بالتدافع والاقتحام ، ويستمر الشاعر فى تصوير حالة النهر من خلال صيغ الجموع التى أكثر منها ، وفى هذا البيت « جبال ، أكافيف » فضلا عن الأسلوب الخبرى الذى يتلاءم مع المدح .

وقوله فى البيت الثالث عشر : « حين تسأله » لا يتلاءم مع المدح فمؤداه أن الخليفة لا يعطى إلا إذا سئل .

وقد حذف المبتدأ فى البيت الرابع عشر للإسراع فى ذكر الخبر واعتمادا على القرينة التى تتجه إلى الممدوح . وفى البيت طباق بين قوله جن وبشر .

وفى البيت الخامس عشر طباق فى قوله — يبنيها ويهدمها ، وجاء بصيغ الجموع التى تتلاءم مع المدح « القناطر ، الرايات » .

وذكر فى البيت السادس عشر أسماء بعض المواضع لبيان تجسيده للواقع ، وأنه لا يمدح من فراغ ، وكلمة « ملحمة » توحى بالشجاعة والبطولة .

وجاء فى البيت السابع عشر بكلمة أقوام جمعا لبيان انتصار الخليفة عليهم جميعا .

وعبر بقوله « أثقال » فى البيت الثامن عشر لبيان مقدرته ومنزلته إذ أن العظماء هم الذين ينهضون بالامور العظيمة ، وتوحى كلمة « مدخر » بقوة الممدوح ، وأنه لم يستنفذ كل قواه .

وقوله فى البيت التاسع عشر « يعصبون بها » يوحى بالتماسك والوحدة وتكثر الجموع فى البيتين (٢٠ ، ٢١) كقوله « الهضاب ، أهل الرباء ، أهل الفخر ، حشد ، عيافو الخنا ، أنف ... » واستعمال إن فى قوله « إن نفخروا » يوحى بتواضعهم وزهدهم فى الفخر . وقوله « عيافو » صيغة مبالغة تشعر بأصالة طبعهم وابتعادهم عن كل عيب . واستعمال « إذا » فى قوله « إذا ألمت بهم مكروهة صبروا » يدل على قوتهم وصلابتهم فى الخطوب والشدائد ، وفى قوله « حشد على الحق » و « عيافو الخنا » مبالغة جميلة .

وقوله فى البيت الثانى والعشرين « على الآفاق » يوحى بالخطر ، والاقتصار على معنى البيت الثالث والعشرين دون إلحاق ما بعده به يخل

بالمعنى لأنه قد يفيد أن بنى أمية قد وصلوا إلى ما هم فيه بالحظ ولكنه يقول فى البيت السابع والعشرين « إذ كانوا مواليه » فهذا الحظ قد ساقه الله إليهم وهم أصحابه ، وهو تعليل جميل ومقبول لاستحقاقهم الحظ المذكور. وفى البيت مقابلة بين شطريه ولقد اعتمد الأخطل فى القصيدة على إيحاءات الألفاظ وظهر ذلك فى كل الأبيات وبخاصة البيت الخامس والعشرون ففيه كلمة « شُمُس » وهى توحى بمدى عنادهم فى قمع الأعداء. وذكر الفعل « يُستقاد » مبنيا للمجهول لبيان أن لبنى أمية أنصارهم الذين يأخذون لهم بالثأر وهم وادعون آمنون . ولقد أعجب النقاد بهذا البيت وعدوه أعظم بيت فى هذه القصيدة ومن أفضل أبيات المدح إن لم يكن أفضلها جميعاً .

وقوله فى البيت السادس والعشرين « ذوو الأضغان » يفيد أن الأضغان والأحقاد أصبحت ملازمة للأعداء ومصاحبة لهم . وبناء الفعل « يُبيَّن » للمجهول يفيد العموم، والجمل الخبرية فى البيت السابع والعشرين وما بعده للمدح ، وقوله « يبارون » يوحى بسرعتهم إلى المدح .

وقوله فى البيت الثامن والعشرين « مجللة » يشعر بكثرة النعم وقوله فلا منة فيها ولا كدر » يوحى بأن النعم المجللة مبرأة من نقص وشائبة .

ويجعل الشاعر هجاءه للأنصار فى البيت التاسع والعشرين نضالا ليضاعف من شجاعته وفضله على بنى أمية وقوله « هم أووا وهم نصروا » يفيد بأن نضاله لم يكن سهلا ، وقوله فى البيت الثلاثين « أفحمت » يؤكد ضراوة المعركة وشدتها ، وقوله « هدروا » يوحى بالمبالغة فى المعنى .

والشطر الثانى من البيت الحادى والثلاثين حكمة عامة ، ومعظم شعراء المدح يذكرون الحكمة فى شعرهم ليكتسبوا بها صفة الحكماء ، وحتى يكون كلامهم أدعى للتصديق .

ويؤكد كلامه في البيت الثاني والثلاثين بقوله «إني ناصح لكم».

وقوله في البيت الثالث والثلاثين «واتخذوه عدوا» يكشف عن حقد الأخطل لزفر بن الحارث وفي قوله «إن شاهده وما تغيب» طباق .

والسيف في البيت الخامس والثلاثين هــو سيف الثأر والتشفي والانتقام ، ورأس ابن الحباب هي رأس الهزيمة والانكسار وقدوصف في البيت السادس والثلاثين ابن الحباب بأنه أصم أبكم ، وهذه بديهيات لأنه مات ، ولكن الأخطل أراد أن يطرب الممدوح ويؤكد له أن قبيلة تغلب كفته شر ابن الحباب إلى الأبد .

وقوله في البيت السابع والثلاثين «رقصا» يوحي بمبايعتهم مرغمين لضعفهم وعدم قدرتهم على المواجهة .

واعتبر الشاعر الخروج على الخليفة كفرا بالدين . والشاعر يراعي مقتضى الحال عند ممدوحه فيأتي له بالمعنى الذي يطلبه ويهواه .

وقد للتحقيق والتأكيد بالبيت التاسع والثلاثين ، قال: «وقد أصابت».

وفي البيت الأربعين طباق في قوله «إيراد ولاصدر» ، وقوله بالبيت الحادي والأربعين «وفي عمياء» تأكيد لتخلفهم ، وعدم إحساسهم لما يجري في ساحتهم ، وتنتهي القصيدة بهذا القسم للمجد بعدم مخالفته لهم.
وهكذا نرى كيف اختار الشاعر الألفاظ الجزلة والتراكيب الملائمة للمدح كقوله «تعدينا ، أظفره ، الخائص ، شمس العداوة ، يستفاد ، يبارون ... » واختار الألفاظ القــوية كقوله نبعة . يعصبون ، تعلو الهضاب . حشد ، عيافو الخنا ، أنف ، تدجت على الآفاق » .

الصور والأخيلة :

اعتمد الشاعر فى إبراز معانيه على اللفظ الموحى المعبر وعلى التركيب الجزل القوى ، وهو يسوق معانيه فى صورة محسوسه مجسدة أو يبرزها فى صور كنائية أو فى تشبيه ينتقل به إلى الإدراك والتجسيد ، كما يعتمد على الأحداث الواقعية المنقولة عن السياسة والدين والاجتماع والبيئة التى يعيش فيها . وسوف نرى كيف كان الشاعر يسخر الأحداث فى الدلالة على المعانى التى يسعى لتأكيدها ، وقد كانت الكناية أهم صور التجسيد التى استعان بها ثم يأتى بعدها التشبيه والاستعارة ، ويتأكد ذلك بما لديه من وقائع وأحداث ولنرجع إلى أبيات القصيدة .

يشخص الشاعر فى البيت الأول النوى ويجعلها تزعج القطين الذى ارتحل ، وفى البيت الثانى شبه نفسه يوم رحيل أهل محبوبته بشارب خمر معتقة تأثرت فيه تأثيرا شديدا ، وحديث الشاعر عن الخمر حديث مجرب خبير بما تفعله فى شاربها .

وفى البيت الثالث استعارة مكنية فى قوله « أصابت حمياها مقاتله » إذ جعل الخمر وحشاً يصيب مقاتل الإنسان فيصرعه ويقضى عليه ، وقوله « لذ » مشبه به والمشبه فى البيت الرابع حيث يقول كأنى ذاك أى كأنى ذلك الرجل الذى أصابت الخمر مقاتله . ومن المجاز اللغوى قوله فى البيت الخامس « باغمتها » ، أى حدثتها بصوت رخيم إذ أن أصل البغام لصوت الظباء ، وقوله فى البيت السابع « لاتعدينا نوافله » كناية عن الكرم . وقوله فى البيت الثامن « الخائض الغمر » كناية عن الشجاعة ، وهذه الصورة استعاره تصريحية شبه فيها الحرب والقتال بالغمر وقوله « الميمون طائره » كناية عن البركة وهو من البيئة الجاهلية ، وقوله « خليفة الله » كناية عن التوفيق فى كل مايذهب إليه ، وقوله « يستسقى به المطر »

كناية عن الصلاح والتقوى ، وهو أيضا منتزع من البيئة الصحراوية التى تعتمد على المطر فى كل أمورها المعيشية.

وفى الأبيات (١٠ — ١٣) تشبيه استطرادى للموازنة بين نهر الفرات وكرم الممدوح ، فالنهر مع شدة مياهه وسرعة جريه من جبال الروم ليس أكرم من الممدوح .

وقوله فى البيت الرابع عشر « مقدم مائتى ألف لمنزله » كناية عن الهمة والشجاعة ، وقوله: «ماإن رأى مثلهم جن ولا بشر» تشبيه ضمنى حيث جعل الشاعر جنود عبد الملك يفوقون الجن والبشر وهو غلو وإسراف وفى هذا البيت ومابعده يجسد بطولة الممدوح .

وقوله فى البيت الخامس عشر « يغشى القناطر يبنيها ويهدمها » كناية عن الشجاعة والإقدام وقوله « فوقه الرايات والقتر » كناية عن البطولة والشجاعة ، وقوله فى البيت السادس عشر لم ينبض بها وتر » كناية عن التحام الجيشين، لأن النبال عادة ترمى قبل الاشتباك بالسيوف ، وفيها دلالة على البطولة والفداء .

وقوله بالبيت السابع عشر « ويستقيم الذى فى خده صعر » كناية عن الكبرياء . وفى البيت التاسع عشر استعارتان تصريحيتان الأولى فى قوله: « فى نبعة من قريش » حيث شبه بنى أمية بشجرة النبع الأصلية وحذف المشبه وذكر المشبه به ثم راعى فى التشبيه ، وذكر فى الشطر الثانى من البيت الاستعارة الثانية وهى فى قوله « ماإن يوازى بأعلى نبتها الشجر » حيث شبه بنى مروان أو سائر الناس بالشجرة التى لاتسطيع أن تصل إلى الشجرة الأصلية ، وفى البيت مبالغة لكنها بالنسبة لموضوع القصيدة وهو المدح تعد مقبولة . وفى البيت العشرين استكمال للتشبيه الذى مال به إلى الاستطراد حيث يقول « تعلو الهضاب وحلوا فى أرومتها » .

وقوله فى البيت الثانى والعشرين «فإن تدجت على الآفاق مظلمة» كناية عن شدة الأحداث ، وفى الشطر الثانى كناية أخرى عن سداد الرأى ونفاذ البصيرة .

وقوله فى البيت الخامس والعشرين «شمس العداوة» استعارة مكنية حيث شبه عداوة بنى أمية فى عنفها وشدتها بالفرس الجموح الذى لا ينثنى عن غايته ، وسر جمال هـــذه الاستعارة أنها أبرزت المعنى فى صورة محسوسة .

وفى البيت السادس والعشرين كناية عن موصوف وهم أعداء بنى أمية وفى قوله «ولا يبين فى عيدانهم خور» استعارة تصريحية حيث شبه أحلاف بنى أمية بالعيدان ، أو أن الأسلوب تشبيه من إضافة المشبه إلى المشبه به والمشبه هو الضمير فى عيدانهم والمشبه به هو العيدان ، والجامع بين المشبه والمشبه به هو الصلابة والقوة ، وهذا التشبيه متصل بالبيئة العربية اتصالا وثيقا إذ كان العرب يختبرون العيدان قبل أن يستعملوها فى صنع السهام .

وشبه فى البيت السابع والعشرين الرياح بمنافس يحرصون على سبقه والتقدم عليه ، وحذف المشبه به وذكر لازما من لوازمه وهو يبارون على الاستعارة المكنية . وفى هذه الاستعارة يشخص الشاعر الرياح ويجعلها إنسانا يندفع فى سرعة فائقة مسابقا بنى أمية وهم يحملون الطعام إلى المحتاجين وهذا من غير شك تصوير رائع جميل .

وقوله فى البيت التاسع والعشرين «هم أووا وهم نصروا» كناية عن الأنصار ، وقوله فى البيت الخامس والثلاثين «والسيف فى خيشومه أثر» تصوير حسى جعل فيه السيف يتحرك ، ويحدث أثرا فى خيشوم ابن الحباب ، ويأتى الشاعر ليستكمل الصورة فى البيت السادس والثلاثين

حيث شبه ابن الحباب بالحجر فى عدم النطق ، وهذا التصوير ينطوى على دلالة نفسية كانت تموج فى رأس الأخطل ، ويبرز مــدى كراهيته لابن الحباب .

وقوله فى البيت الأربعين « فليس لهم إيراد ... ولا صدر » كناية عن الفشل والتخلف وعدم الأهمية ، وقوله فى البيت الحادى والأربعين « ويقضى الناس أمرهم » كناية عن المعنى ذاته .

ونراه يشخص المجد فى البيت الأخير ويشبهه بإنسان ثم حذف المشبه به وجاء بلازم من لوازمه وهو « أقسم » وهذه أيضا صورة رائعة ، وقد أفادت استحالة مخالفة المجد لقبيلة كليب بن يربوع .

وقد رأينا كيف أكثر الشاعر من الكنايات وألم ببعض التشبيهات عرضا ، وسر اعتماده على الكناية أنه يحول بها المعانى الذهنية إلى صور محسوسة يقتنع بها القارىء ويطرب لها الممدوح .

التعليق العــام

— ١ —

عاش العراق فى العصر الأموى فى صراعات مختلفة بين أحزاب متباينة ، وكان لكل حزب شاعره الذى يدافع عنه ، وفى ظل هذه الظروف شارك الأدب مواكبا للسياسة ومعبرا عنها ، وموضوع هذه الرائية هو المدح ، وتأتى مع المدح أغراض أخرى كالغزل والوصف والفخر والهجاء .

وبدأت القصيدة بالغزل على عادة القدامى والأخطل كسائر الشعراء فى عصره لايزالون مرتبطين غالبا بالتراث الجاهلى القديم .

وعرض فى المقدمة الغزلية للخمر فوصفها ، ووصف تأثيرها عليه ، وهو لم يكن يجيد النظم إلا إذا شرب ، وقد بذ معاصريه من أمثال جرير

والفرزدق إذ كانوا لايستطيعون أن يعرضوا لها فى شعرهم وبخاصة فى مدح الخلفاء ولكنه كان يقول « ماهجوت أحداً قط بما تستحى العذراء أن تنشده أباها » (١) .

ومما يحمد للأخطل أنه يملك قدرة لاتبارى فى التنويع والتوليد بمعانى المديح نفسه ، وهو قارىء جيد للشعر القديم ، ومتأثر بالنابغة الذبيانى .

ومن خلال مطالعتنا للشعر الجاهلى أو لما كتب عنه نجد أن معظم أفكار هذه الرائية ليست من ابتكار الشاعر ، وإنما هو تابع ومقلد لسابقيه من الجاهليين . ومقدرة الشاعر تتجلى فى اختياره للمعانى والمضامين المنتزعة من البيئة الجاهلية وإلباسها ثوب الحضارة الجديدة لتتلاءم مع المناسبة التى يتصدى لها . وقد صيغت أفكار هذه القصيدة صياغة جديدة متطورة تتصف بالتسلسل والترتيب ، وهى واضحة جلية . ونأتى إلى بعض الأفكار التى قلد الشاعر فيها السابقين .

فالأبيات من العاشر إلى الثالث عشر يصور فيها ممدوحه بالفرات حين يعلو فيضانه ويشتد ، ويأخذ فى طريقه كل نبات وشجر . وسبق النابغة إلى هذا المعنى فقال :

فما الفراتُ إذا هب الرياح له
تَرمى غوارُبه العِبرَين بالزَّبد (٢)

يمده كل واد مُترعٍ لجب
فيه ركامٌ من الينبوت والخَضَد (٣)

---

(١) الأغانى لأبى الفرج جـ٨ ص ٣٠٠

(٢) ترمى : تحلب ، الغوارب : الأمواج ، العبران : الشاطئان .

(٣) الينبوت : والخضد : ضربان من النبات .

يظل من خوفه الملاحُ معتصماً
بالخيزرانة بعد الأين والنجَد [١]

يوماً بأجود منه سيب نافلة
ولا يحول عطاء اليوم دون غد [٢]

فالنابغة يصور النعمان بالفرات فى الكرم، لكن الأخطل يطور هذه الصورة ويجدد فيها ويبقى عليها تفصيلا فى اندفاع النهر من جبال الروم ويبرز فى روعة وفخامة الصورة الحسية لنهر الفرات .

وقال الأخطل :

مقدم مائتى ألف لمنزله
ما إنْ رأى مثلهم جن ولابشر

وسبقه النابغة أيضا إلى هذا المعنى فى وصفه للنعمان إذ قال :

وخيّس الجن إنى قد أذنتُ لهم
يبنون تدمر بالصّفاح والعَمَد [٣]

واستعان الشاعران بالجن واكتفى النابغة بهم لكن الأخطل يتجاوزهم ولايرضى إلا بأن يكون جند الخليفة فى منزلة تسمو على الجنسين معا .

---

(١) الخيزرانة . سكان السفينة ، الأين : الإعياء . النجد : العرق والكرب .

(٢) ديوان النابغة ص ٢٦، ٢٧ طبعة دار المعارف ١٩٧٧ م

(٣) خيس الجن: ذللهم ، تدمر: مدينة بالشأم فيها بناء لسليمان بن داود عليهما السلام، الصفاح: جمع ومفرده صُفاحة وهى كل عريض من حجارة أولوح ونحوهما، والعمد : أساطين الرخام وهى السوارى وانظر ديوان النابغة ص ٢١

وفى البيت التاسع عشر يتبع الأخطل أفكار السابقين ، فيأخذ منها وينقل عنها لكنه يطور ، ويجدد فيها ، ويخرجها تخريجا ذاتيا يتفق مع طبيعة المدح السياسى .

ومما تابع فيه السابقين قوله فى البيت (٢٧)

هم الذين يبارون الرياح إذا
قل الطعام على العافين أو قتروا

والمعنى تقليدى ومتداول على ألسنة الشعراء .

وفى نهاية القصيدة يعايش الشاعر الأحداث التاريخية ، والمواقع التى انتصرت فيها تغلب على قيس ، ويشيد فى الوقت نفسه بانتصارات بنى أمية على خصومهم بالعراق .

وهجاء الأخطل لجرير له مدلول خاص ، فهو لا يغفل فى قصائده هجاء جرير ، وقومه «كليب بن يربوع» ، ولقد جرت بين الشاعرين مناقضات كثيرة وهى مجموعة ومدونة فى ديوان خاص .

— ٢ —

ومن حيث الألفاظ والتراكيب نرى الأخطل قد اهتم بها فجاءت جزلة قوية واقتفى أثر الجاهليين فى عنايته باللغة واحتفاله بالأسلوب لكنه طور عبارته فجاءت نابضة متحركة ، وأكثر من ذكر الوقائع ليخرج بفنه إلى التجسيد الحى للأحداث والملابسات ، وهو يكثر من الجموع التى تتلاءم مع المدح ، ويهتم بالجمل الخبرية ، ويميل إلى الاستطراد فى المعانى .

ولم يبال بالمحسنات البديعية ، وما ذكره منها جاء عفوا وبدون تكلف

والقصيدة من بحر البسيط وأجزاؤه مستفعلن فاعلن أربع مرات ، ويتولد من القافية إيقاع خاص . ويأتى هذا الايقاع من حرف كالهاء فى قوله « الميمون طائره ، جاشت حوالبه ، إن شاهده، مستكا مسامعه» وقد يتولد الإيقاع من تقطيع الجملة فى الأشطر أو الأبيات المختلفة .

— ٣ —

اهتم الأخطل بالتصوير الخيالى اهتماما كبيرا ، وبخاصة الكناية التى أكثر منها ، كما استعان بالتشبيه والاستعارة وجاءت كلها دقيقة ومعبرة وقد يميل إلى المبالغة أحيانا مثل سائر الشعراء وربما يبتعد عن الحقيقة بهذه المبالغة ، ولكن لاضير ماداموا قد قالوا « أعذب الشعر أكذبه » والأخطل من غير شك شاعر صادق مع نفسه ومع ممدوحه ، ولقد أسهمت عاطفته القوية فى اختيار المعانى الجيدة ، وصوغها صياغة جديدة متطورة ، لتتلاءم مع حضارة الأمويين .

واستعان بالدين والسياسة والتجارب الخاصة فى عرض قصيدته ، وإبراز معانيه الملائمة لجو المدح ، ولحالة عبد الملك بن مروان وهو فى ثوب الخلافة .

— ٤ —

تعبر القصيدة عن عصرها أصدق تعبير ، فهى تكشف عن صراع الأحزاب السياسية المختلفة ، وعن صراع آخر بين بعض القبائل العربية فى العراق كقيس وتغلب ، وتبرز الأخطل شاعرا ، مقاتلا ، متصلا بالخلفاء ، سفيرا لقومه عند الحاكم الأموى ، متفننا فى وصف الخمر ، متأثرا بالثقافة الإسلامية ، ومقلدا لأسلافه الجاهليين ، معجبا ببنى أمية هاجيا للأنصار . منافحا عن قبيلته .

ولقد احتل مكانا مرموقا فى الشعر الأموى ، وكان مبرزا فى المدح بخاصة ولكنه لم يصل إلى مرتبة جرير فى الهجاء إذ أن معظم شعره فى المديح .

وقال الفرزدق لعبد الملك بن مروان : « كفاك بان النصرانية إذا مَدَح »[1] .

وقال عبد الملك « إن لكل قوم شاعراً وشاعر بنى أمية الأخطل » .

---

(١) الأغانى — جـ ٨ ص ٣٠٦

فى المدح السياسى لابن قيس الرقيات

قال(*) :

— ١ —

١ — حبذا العيشُ حين قومى جميعٌ
لم تفرّقْ أمورها الأهواءُ

٢ — قبل أن تطمع القبائل فى ملْـ
ـك قريش وتشمّت الأعداء

٣ — أيها المشتهى فناء قريش
بيدِ الله عمرُها والفناء

٤ — إن تودعْ من البلاد قريش
لا يكن بعدهم لحى بقاءْ

٥ — لو تُقفى وتتركُ الناس كانوا
غنمَ الذئب غابَ عنها الرعاءْ

٦ — هل ترى من مخلدٍ غير أن الـ
ـله يبقى وتذهبُ الأشياء ؟

(*) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٨٨ — طبعة دار صادر بيروت ١٩٨٠ م .

(١) جميع : مؤتلفون متحدون . الأهواء : الميول .

(٢) الشماته : الفرح بمصائب الآخرين .

(٣) عمرها : وجودها وبقاؤها .

(٤) تودع : ترحل وتهلك .

(٥) تقفى : تذهب وتزول ، الرعاء : جمع راع .

٧ — يأمُل الناس فى غد رَغَب الدهـ
ـر ألا فى غد يكونُ القضاء

٨ — لم نزلْ آمنين يحسُدنا النا
سُ ويجــرى لنا بذاك الثراءُ

٩ — َفرضينا ، فمت بدائك غما
لا تميتن غـــيرَك الأدواء

١٠ — لو بكت هـذهِ السماء على قو
مٍ كرام بكت علينا السماءُ

— ٢ —

١١ — إنما مصعبٌ شهاب من اللـ
ـه تجلت عن وجهه الظلماء

١٢ — مُلكه ملك قوة ليس فية
جـــبروت ، ولا به كبرياء

١٣ — يتقى الله فى الأمورِ وقد أفـ
ـلح من كان همــه الاتقاء

---

(٧) رغب الدهر : رغائبه .

(٨) الثراء : الخير والغنى .

(١١) الشهاب : الكواكب ، تجلت : انكشفت .

(١٢) فى رواية « ملك رحمة » بدلا من « ملك قوة » ، وفى أخرى « ملك عزة » ، جبروت : قهر وقسوة وظلم ،

(١٣) أفلح : فاز ، همه : هدفه .

— ٣ —

١٤ — عينِ فابكى على قريش وهل يُر
جِع مافات — إن بكيتِ — البكاءُ

١٥ — معشرٌ حتفهم سيوف بنى العلّـ
ـلات يخشون أن يضيع اللواء

١٦ — ترك الرأس كالثّغامةِ منى
نكباتٌ تَسرى بها الأنباء

١٧ — مثلُ وقع القدُوم حل بنا فالنّـ
ـاس ممـــا أصابنا أخلاء

١٨ — ليس لله حرمةٌ مثلُ بيت
نحن حُجابه عليه المُلاء

١٩ — خصه الله بالكرامة فالبا
دون ، والعاكفون فيه سواء

---

(١٤) (عين) منادى بأداة نداء محذوفة . يُرجع : يرد .

(١٥) معشر : جماعة ، الحتف : الموت والهلاك ، بنو العلات : الأقارب ، وعلى الأخص : الأخوة لأب .

(١٦) الثغامة : شجرة بيضاء الزهر ، تسرى : تسير ليلا .

(١٧) القدوم : ماينحت به ، أخلاء : جمع خلو أى خال والمعنى : ليس عليهم وزر مما أصابهم من الشقاق .

(١٨) حرمة : مالايحل انتهاكه ، الملاء : جمع ملاءة يريد كسوة الكعبة

(١٩) البادون : أهل البادية الطارئون على مكة ، العاكفون : المقيمون فى المسجد .

— ٤ —

٢٠ — كيف نومى على الفراش ولما
يشمل الشامَ غارة شعواء
٢١ — تُذهل الشيخَ عن بنيه وتُبدى
عن بُراهـا العقيلةُ العذراء
٢٢ — أنا عنكم بنى أمية مزور
رٌ ، وأنتمْ فى نفسىَ الأعـداء
٢٣ — إن قتلى بالطف قد أوجعتنى
كان منكم — لئن قتلتم — شفاء

التعريف بالشاعر :

أحببت أن أقدم شعر ابن قيس على حديثى عنه وترجمتى له، فإذا ماقرأ القارىء شعره استطاع أن يتفهم أبعاد شخصيته ، وأن يتعرف على مذهبه السياسى ، وعلى كل فهو شاعر متفرد ، جمع بين الغزل والسياسة ، ومزج بين المدح والهجاء ، فهو جدير بالدراسة والبحث .

وهو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك بن ربيعة، القرشى أباً وأماً فاسمه (عبيد الله) وله أخ يسمى (عبد الله) وقد خلط بينهما كثيرون ، وذكر البعض أن الشاعر عبد الله[1] ومعظم مؤرخى الأدب يجعلون

---

(٢٠) غارة شعواء : حملة متفرقة : يريد محاربة الأمويين فى الشام
(٢١) تذهل : تنسى ، البرى : الخلاخيل جمع بُره العقيلة : الكريمة ، العذراء : البكر التى لا تسفر إلا وقت الفزع والهول .
(٢٢) مزور : مائل ومنصرف وكاره .
(٢٣) الطف : موضع قرب الكوفة دارت فيه إحدى المعارك بين بنى أمية والزبيريين .
(١) أنظر البيان والتبين ج ٢ ص ٢٧٨ طبعة الخانجى .

(عبيد الله) هو الشاعر[١] وقد نعتوه بالرقيات فقالوا : « عبيد الله بن قيس الرقيات »[٢] واختلفوا فى هذه أيضا ، وأصوب الآراء أنه سمى بذلك، لأنه كان يتغزل بأكثر من واحدة تسمى (رقية) منهن رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد أحد أبناء عمومته ، وكانت أثيرة لديه ، وقيل سمى بذلك لأنه نكح نساء اسم كل واحدة منهن رقية وقيل:لأن جدات له توالين يسمين رقية ، ولم أقف على تاريخ محدد لولادته ، وهذا شأن كثير من النابهين والأعلام فلم يكن يتوقع لهم ذلك النبوغ أو لم ترتبط ولادتهم بحادث معين ، أو أن بعضهم قد نشأ فى أمر متواضعة تعد ذلك التأريخ ترفاً وفضولا ،وقيل : إن ولادته كانت بمكة فى العقد الثالث من الهجرة، « وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين ، وتصفحه لبعض النساء فى الحج »[٣] .

وإذا كانت هذه الملازمة صحيحة فلا يبعد أن يكون انتقاله إلى المدينة لهذا الغرض ففيها يكثر الغناء والطرب ، وتنشد الأشعار فى الطرقات وفى بعض الدور ؛ لأن مدينة الرسول الله ﷺ كانت فى بداية عهد الأمويين مدينة مفتوحة يكثر فيها اللهو والترف والغناء ، وكان ابن قيس شاعراً لاهيا مغرماً عاشقاً يتناقل أهل الغناء شعره لخفة ألفاظه ، وسهولة أوزانه .

وقد أحب قريشاً وتعلق بالقرشيين ، ونقم على بنى أمية ، ثم ترك

---

(١) راجع الشعر والشعراء ج ص٥٤٦ طبعة دار التراث العربى بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر رحمه الله .

(٢) الرقيات تعرب صفة (مرفوعة) لابن قيس وهو منون ، وتجر على الإضافة فلا ينون .

(٣) تاريخ الأدب العربى فى العصر الإسلامى د.شوقى ضيف ص٢٩٤ طبعة دار المعارف سنة ١٩٨١م.

الحجاز بأكمله وانتقل إلى الجزيرة (فى العراق) وأقرب الظن أن رحيله لم يكن لسبب سياسى ، وربما كان فى انتقال رقية بنت عبد الواحد مع بعض أفراد عشيرته — وكانت قريبة له — إلى الجزيرة ما سوغ له ذلك الرحيل مع أخيه عبد الله .

حياته السياسية

عاش ابن قيس فى الجزيرة ، وشهد بها معارك اللسان والسنان بين قبيلة قيس وكان هواها مع آل الزبير وقبيلة تغلب ومنها الأخطل الشاعر الأموى المشهور وكان هواها مع بنى أمية . وتعلق عبيد الله بقرشيته ، وأحبها وتعصب لها، وتفاعل مع قيس ضد القبائل اليمنية التى كانت تناصر الأمويين ، وقد تفجرت الثورة على بنى أمية فى مكة والمدينة والعراق وغيرها بعد موت معاوية ، واستخلافه ليزيد من بعده وكانت نكبة الحسين بالكوفة ، فانتهز عبد الله بن الزبير تلك المأساة ، واتخذ منها أداة للتشنيع على يزيد وقومه وعاذ بمكة حيث يوجد بيت الله الحرام ، « وبدا للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيوف كلب وغيرها من قبائل الشام اليمنية ، وكأنه لم يعد لقريش ولا للحجاز عامة شىء فى الحكم ، وحقاً أن الأمويين قرشيون ، ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها فى الحجاز إلى دمشق، ولم يعودوا يستندون فى حكم على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ، ويحكمونها فى رقاب الناس بل استباحوا بها مدينة الرسول — ﷺ »[1] .

وثارت المدينة على يزيد وغلت فيها مراجل الثورة ، فأوقع بها وقعة شديدة وعاقبها عقاباً مراً فى موقعة (الحرة) وقتل كثيراً من أهلها، وممن قتلوا فيها طائفة من أهل بيت عبيد الله بن قيس ، فبكاهم بكاء مراً

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٠

ورثاهم بشعر يقطر بالثورة على يزيد وبنى أمية »[١] ، وانتقل جيش يزيد إلى حيث يوجد ابن الزبير فى مكة ، وضرب حصاراً حول البيت الحرام، ولكن المنية لم تمهله فمات وانفك الحصار ، واشتعلت الحروب ، وتأججت الكراهية بين القبائل فى العراق والشام ، وعلا نجم ابن الزبير وبايعه أهل الحجاز ومصر والعراق ، وجعل أخاه مصعبا والياً على العراق ، وكان ابن قيس قد ترك الجزيرة إلى فلسطين ، ثم عاد إلى مصعب بالعراق فى خلافة عبدالملك بن مروان « وكان طبيعياً أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه (أى ابن قيس) حنقا على بنى أمية منذ موقعة الحرّة يريد أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثأر لابنى أخيه ، ويسبى نساءهم ، وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين »[٢] .

وكان مصعب جوادا سخيا كريما بعكس أخيه الذى كان ممسكا بخيلا، وبخاصة على الشعراء فقد رغب عنهم وعن قصائدهم بماله ، وأفاض مصعب عليهم بكرمه ، وانهلت غيوثه فغمرتهم ، فالتفوا حوله ، ومدحـــوه ، وأشادوا به ، وطعنوا فى بنى أمية ، وتحمسوا لدعوة آل الزبير وكان ابن قيس فى مقدمة الشعراء الذين تعصبوا للفكر السياسى الذى يؤمن به ويسعى له آل الزبير .

وفى سنة ٧١ هجرية تحرك عبد الملك بن مروان بجيش كبير إلى العراق حيث يوجد مصعب فالتقى به فى مكان يقال له « دير الجاثليق » بعد أن انفض عنه معظم أنصاره ، وبقيت معه بقية قليلة كان منها عبيد الله بن قيس ، ولما اشتعلت المعركة واستمر القتل أشار مصعب على شاعره

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩٥ .

بالهرب ، وعرض عليه مالا كثيراً ، ولكن عبيد الله بن قيس رفض أن يفارق أميره فى هذه المحنة ، ولما قتل مصعب فر عبيد الله إلى الكوفة ، ودخل دار امرأة أنصارية ، وطلب منها الأمان فأمنته ، وبقى عندها سنة كاملة ، وكان عبد الملك قد وجه الحجاج إلى مكة لقتال عبد الله ابن الزبير ، وتمكن من هزيمته وقتله وصلبه فى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة ، وانتهت بذلك دعوة آل الزبير وأسدل الستار على منطقة الحجاز التى كانت مبعث النهضة فى عهد الرسول - ﷺ - .

أما ابن قيس فقد بقى فى دار هذه الأنصارية لا يسألها عن اسمها ، ولا تسأله عن اسمه ، وكان عبد الملك قد جدّ فى طلبه بل كان يرسل إلى الكوفة من ينادى ببراءة الذمة ممن يؤوى ابن قيس ، فلما سمع ذلك نزل إلى المرأة وأخبرها باعتزامه الرحلة ، وأخبرته بأنها تسمع هذا الصياح منذ سنة كأنها تطمئنه على بقائه عندها ، واستجابت لطلبه ، وأعدت له راحلتين ، وزودته بما يحتاج إليه ووهبته عبداً ، وانطلق إلى المدينة ، وعلم أن اسم هذه المرأة كثيرة ، وأنها خزرجية من الأنصار . ولا أتخيل أن يبقى الرجل كل تلك المدة عند امرأة ولا يعرف عنها إلا القليل ، ويقوى الظن عندى أن ابن قيس قد عرف عنها أكثر مما ذكر ، ولكنه كان مستأمناً عندها ، وأراد أن يطوى أخبارها عن الأسماع حفاظاً عليها وإكراما وإعزازاً لها ، بل ربما كان اسمها المذكور رمزاً لا حقيقة .

ويقول شوقى ضيف : « ونظن أنها زوجة على بن عبد الله بن العباس »[1] ولا يذكر دليلا واحدا على هذا الظن واكتفى بالإحالة على كتاب « وفيات الأعيان » لأحمد بن خلكان .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٨ .

وعاش شاعرنا بالمدينة فى ظل عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأخبر عبد العزيز بن مروان ليشفع له عند أخيه وراسل « أم البنين » زوجة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان ، لتشفع له أيضا ، وكان عبد الملك لا يرد لها طلباً ومثل ابن قيس بين يدى عبد الملك بدمشق ، ومدحه بيائية مشهورة أذكر طرفاً منها وتقديماً لها بقلا عن ابن قتيبة فقد قال : « ولما قتل مصعب ، وصار الأمر إلى عبد الملك بن مروان أتى عبيد الله بن قيس عبد الله بن جعفر يستشفع به إليه فقال له عبد الله بن جعفر : إذا دخلت معى على عبد الملك فكل أكلا يستبشعه عبد الملك بن مروان ! ففعل فقال (له) : من هذا يا ابن جعفر ؟ فقال : هذا أكذب الناس إن قتل !

قال : ومن هو ؟ قال : الذى يقول :

ما نقموا من بنى أمية إلا \
أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم معدن الملوك فلا \
تصلح إلا عليهم العرب

فقال عبد الملك : قد عفونا عنه ولا يأخذ مع المسلمين عطاء ، فكان عبد الله بن جعفر إذا خرج عطاؤه أعطاه »[1] .

ثم ترك عبيدالله بن قيس دمشق ، ويمم وجهه شطر العراق فمدح فيه بشرا أخا عبد الملك ثم رجع إلى المدينة ، وبقى إلى جوار عبد الله ابن جعفر ، وأشاد به ، ومدحه بعدة قصائد ، منها :

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٥٤٦ .

قوله :

أتيناك نُثنى بالذى أنت أهله
عليك كما أثنى على الروض جارُها

تعدّتْ بى الشهباء نحو ابنِ جعفر   سواءٌ عليها ليلها ونهارها(١)

ورحل إلى عبد العزيز بمصر ، ومدحه ، وبشره بالخلافة إذ كان عبد الملك قد اعتزم صرفها عن أخيه إلى ابنه وهكذا تعلق ابن قيس بالمروانيين من بنى أمية (بعد آل الزبير) ، ولزمهم وحرص على ودهم حتى توفى فى سنة خمس وسبعين من الهجرة .

شعره :

لابن قيس شعر كثير ، وله ديوان مطبوع ، وقد اتجه فى أول حياته إلى الغزل ، وتغزل فى الكثيرات وبخاصة (رقيـة) التى قال فيها .

رقى بعَمركم لا تهجرينا   ومنّينا المنى ثم امطلينا
عدينا فى غـدٍ ما شئت إنا
نحب — ولو مطلت — الواعدينا
فإماتنجزى عِـدتى ، وإما   نعيش بما نؤمل منكِ حينا(٢)

وقد سخّر غزله للهوه وعبثه ، ولأغراضه السياسية ، وتغزل بعاتكة زوجة عبد الملك فقال :

---

(١) الديوان ص ٨٢ .
(٢) الديوان ص ١٢٧ .

بدت لى فى أترابها فقتلننى ... كذلك يقتلن الرجال كذلكا
وقالت لو أنا نستطيع لزاركم ... طبيبان منا مليان بدائكا[1]

« وفى الوقت نفسه كان يشبب بزوجتى مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيبا كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء . يريد أن يرضى به مصعبا »[2]

ويبدو أنه استعان بالغزل كطريق إلى السياسة ، وابتدع لونا يمكن أن يسمى بالغزل الهجائى ، فكان يتغزل بنساء بنى أمية ليغيظ عبد الملك وغيره ، وقد شبب بأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ولكنه احتاط لها ولنفسه فادعى أن لقاءه بها كان فى النوم لا فى اليقظة .

قال :

أتتنى فى المنام فقلت ، هذا حين أُعقبُها[3]
فلما أن فرحت بها ومال علىّ أعذبُها[4]
شربت بريقها حتى نهلت ، وبت أُشربها[5]

وتغزل بكثيرة التى آوته بالكوفة ، فقال عنها عند مديحه لعبد الملك :

عاد لى من كثيرةَ الطربُ ... فعينُه بالدموع تنسكب

---

(١) طبيبان : المقصود رسولان ، الداء : الحب الذى سرى فى قلب عاتكة . (الديوان ص ١٢٨ ، ١٢٩) .
(٢) تاريخ الأدب فى العصر الإسلامى لشوقى ضيف ص ٢٩٧ .
(٣) أعقبها : أى صارت عقباها لى .
(٤) أعذبها : فمها .
(٥) الديوان ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

كوفيةٌ نازحٌ محلَّتها   لا أممٌ دارها ولا سَقبُ[١]

وعن تأثير كثيرة وأم البنين فى حياة ابن قيس قال د . طه حسين : وأراد حظه أن يكون مدينا بحياته لامرأتين آوته إحداهما بالكوفة حين أهدر الأمويون دمه ، فلبث عندها سنة كاملة ، وتركها وهو لا يعرف إلا اسمها . وشفعت له الأخرى عند عبد الملك فظفرت له بالأمان . وكذلك أراد حظ (ابن) قيس ألا يستطيع لهاتين المــرأتين مكافأة إلا بالغزل والنسيب »[٢]

واستخدم الغزل (الهجائى) سلاحا ضد الرجال ولم يكن يغضب النساء بل على العكس كان يرضين بهذا النسيب فالمرأة فى هذا العصر كانت تتشوق إلى هذا اللون ، وتطمح إليه ، وتشفع لشعراء عند الملوك والأمراء .

ومن الألوان الشعرية التى أجاد فيها فن المديح فقد اتخذه وسيلة للتعبير عن اتجاهه السياسى . فمدح ابنى الزبير ، ولازم مصعبا ، ومدح عبد الملك وعبد العزيز وبشرا أولاد مروان بن الحكم ، ومدح غيرهم ، وذكرنا بعض ماقاله فى عبد الملك وبنى أمية ، ومما قاله فى مدح عبد العزيز بن مروان :

أثنِ على الطيب ابنِ ليلى إذا   اثنيتَ فى دينه ، وفى حَسبه[٣]
من يصدُق الوعد والقتال ويخ   شى الله فى حِلمه وفى غضبه[٤]

---

(١) الديوان ص ٢٠١ .
(٢) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٥٣ طبعة دار المعارف .
(٣) ابن ليلى : الممدوح ، الحسب : الشرف .
(٤) يصدق القتال : يظهر بسالة فيه .

ومَن تُفيض الندى يداه ومن يَنتهِب الحمد عند مُنتهبِه[1]

وقد اتخذ من مديح عبد الله ومصعب ابنى الزبير سبيلا لتقرير مذهبه السياسى ، وسوف يظهر ذلك فى صفحات تالية .

مناسبة القصيدة :

موضوع الهمزية التى معنا هو المدح السياسى ، وهى فى مدح مصعب ابن الزبير ، وقد حولها إلى فخر بقريش ودعوة لوحدتها ، وأراد ابن قيس بهذه القصيدة أن يحدد وجهته السياسية ، وأن يدعو لوحدة قريش والمعروف أن اختيار الخليفة فى صدر الإسلام كان قائما على الشورى ، وقد آلت الخلافة إلى معاوية بعد (مأساة التحكيم) لكنه جعلها وراثية فأوصى بها لابنه يزيد ، وغضب لذلك الكثيرون من قريش وامتنعوا عن البيعة ، وثاروا فى الحجاز والعراق وغيرهما وأعلن عبد الله بن الزبير ابن العوام عن نفسه خليفة ، واحتدم الصراع فى هذه الحقبة بين الأحزاب المتناحرة فى الأمصار الإسلامية . وكان مصعب واليا على العراق من قبل أخيه وعاش ابن قيس فى رحابه ، واجتمعا على حب قريش ، وكره بنى أمية الذين أحلوا قبائل اليمن محل القرشيين . والقصيدة تحدد مذهب الشاعر فى السياسة إذ أنه لم يكن زبيريا بقدر ما كان قرشيا مخلصا ، حريصا على وحدة قبيلته : فالخليفة من وجهة نظره لابد أن يكون من قريش ، ولابد أن تكون قريش قوية متحدة ، ويستوى عنده أن يكون الخليفة أمويا أم زبيريا أم هاشميا . فالقصيدة تمثل رأيه وعواطفه الوطنية الجياشة تمثيلا قويا .

---

(١) ينتهب الحمد : يسبق إليه . (راجع الديوان ص ١٤) .

وقد اخترنا القدر المتقدم من أبياتها الستين، للتعرف على مذهبه السياسي.

إذن : « شيئان اثنان يختصران الرأى السياسى لابن قيس الرقيات : (الأول) أن السلطان يجب أن يكون لقريش، وأن تمتز قريش فيه بمضر. و(الثانى) أن من الإثم والخيانة أن تنقسم قريش على نفسها، وأن تتفرق كلتها هذا التفرق المنكر الذى كان بعد موت معاوية »[1] وإن كان هذا الفكر تعبيراً عن رأى الشاعر فهو تعبير عن فكر آل الزبير وتمثيل لدعوتهم السياسية.

شرح الأفكار ومناقشتها :

١ — الأبيات (١ — ١٠) فى الفخر بقريش والدعوة لوحدتها.

يود الشاعر أن يعيش قومه متآلفين فى ظلال الوحدة القرشية، ويأسى على بنى أمية الذين مهدوا للفرقة، فأتاحوا الفرصة للقبائل الأخرى، لكى تطمع فى الخلافة، وللأعداء أن يشمتوا فى قريش، ويخاطب دعاة الفرقة ويقول لهم :

إن وجود قريش وفناءها بيد الله سبحانه، ولو هلكت قريش لهلكت القبائل جميعاً فإن وجودها رهن بقوة قريش ووجودها، ويجعل حماية قريش للقبائل الأخرى كحماية الرعاة للأغنام من الذئاب، وإذا هلكت قريش فلن يبقى وجود لقبائل العرب فالخلود لله وحده. ويتطلع الناس للمستقبل ويتفاءلون به.

ويدعو إلى التفاؤل، ويحذر الأعداء من المستقبل الذى سيتم فيه الفصل بين الحق والباطل، وكان القرشيون فى أمن وسعة ورخاء

---

(١) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٥٥.

حتى تسلط عليهم الأعداء بالحسد والبغضاء ، وماذا كانت النتيجة ؟ رضى القرشيون بحالهم وسعدوا بما كان مقدرا عليهم ، وكان الأعداء يحترقون غيظا وكمدا ثم دبت الفرقة ، وكثرت الفتن ، وضعفت قريش وأصبحت فى حال تستحق أن تبكى عليها السماء لو جاز لها أن تبكى . والشاعر فى هذه الأبيات يلمح بعبد الملك فهو الذى يشتهى فناء قريش ، وهو الذى يحسد ويحقد ، وهو الذى يدعو عليه الشاعر بقوله « فت بدائك غيظا » .

٢ — الأبيات (١١ — ١٣) فى مدح مصعب :

وانتقل ابن قيس إلى مدح مصعب فهو الشهاب الوضاء الذى يزيل ظلام الليل والجهل ويشع منه الضياء على الرعية ، وهو ملك حازم غير ظالم أو متجبر ، وليس به كبر أو استعلاء وهو يراقب الله فى تصرفاته ، فمن اتقى الله فى أعماله كتب له الفوز والفلاح .

٣ — الأبيات (١٤ — ١٩) العودة إلى الفخر بقريش :

وعاد إلى قريش فبكاها ، وتألم لتفرقها وتساءل فى حسرة هل يرجع البكاء مافات ؟ وهل يمكن أن تعود قريش لسابق مجدها ؟؟ وكيف يتقاتل بنوها من أجل الخلافة وهم أقارب يرجعون إلى أصل واحد ، وقد أثرت هذه الخطوب فى الشاعر فاعتراه الضعف ، وحل به الشيب . وإذا كانت هذه النكبات أثرا من آثار الفرقة ، فالناس — إذن — أبرياء مما أصاب القرشيين من الإنقسام والشقاق ، وكيف يأتى ذلك منهم فى ساحة بيت الله ؟ ألم يجدر بهم أن يتقوه ، ويرعوا حرمة بيته ؟ وقد كانوا يقومون بخدمته ، ففيه يستوى الناس سواء أكانوا مقيمين به أم وافدين إليه ، فهو جدير بالاحترام والرعاية والعناية ، وهم به أهل الخلافة وأحق بها .

٤ — الأبيات (٢٠ — ٢٣) ثورة على بنى أمية :

توجه ابن قيس الرقيات فى هذه الأبيات بالثورة على بنى أمية الذين أنكروا حقوق قريش فى الخلافة ، وقربوا منهم القبائل اليمنية ، وقد أنكر على نفسه أن يبيت قرير العين من غير أن يشعلها حربا ضروسا على أهل الشام فتذل الشيخ الكبير عن أولاده ، وتهتك الأستار فتظهر العذراء سافرة هولا وفزعا ، ويؤكد على كراهيته للأمويين ، لأنهم أعداء له ، وهو لم ينس عدوانهم بالطف عندما قتلوا الكثيرين من قومه وكان يتمنى لو دارت الدائرة على بنى أمية وقُتلوا فى تلك المعركة — فلو حدث ذلك لكان فيه الدواء لما أصابه والشفاء مما أوجعه وآذاه .

وقد رأينا كيف تمسك بقرشيته؟ وكيف تعصب لها؟ وقد طال نفسه فى الفخر بها ، والحديث عن أمل توحدها وشماتة الأعداء لتفرقها ، وجعل ما ألم بها شيئا عارضا ثم أظهر همومه لما أصابها حتى صور السماء وهى تبكى حزنا على حال قومها ، ومدح مصعبا فى أبيات قليلة ، ثم أنصرف لدعوته ولقرشيته ، وبكى لما حل ببيت الله ، وانتهت الأبيات بحزنه على قتلى (الطف) الذين أوجعوه وأحزنوه ، ولو قتل بنو أمية لكان فى ذلك شفاء ودواء له .

فالشاعر مشغول بقومه ، حزين لتفرقهم ، ملتاع لضياع حقوقهم ، وهو يطالب بحق ويسعى إليه ، ويتعقب ناهبيه ، ولهذا جاءت الأفكار غير مرتبة ، وفيها نبرة حماسية وفيها وضوح وتكرار ، وليس بها التواء أو عمق ، لأنه فى جو شعورى لا يتيح له أن يتعمق أو يأتى بالغريب من الألفاظ والتراكيب .

(الألفاظ والعبارات وملاءمتها للجو الشعورى)

يتكون الأسلوب من الألفاظ وهى الكلمات المفردة ومن العبارات وهى الجمل أو التراكيب ، وهذه أهم عناصر الأسلوب ، والجو الشعورى هو

الحالة النفسية للشاعر عندما أبدع قصيدته ، والاتجاه الحديث فى دراسة النصوص وتحليلها يهدف إلى إيجاد علاقة بين الألفاظ والتراكيب من جانب والحالة النفسية من جانب آخر، ويعترض البعض أحياناً فى تساؤل ودهشة : كيف نخضع الآداب القديمة لمناظير العصر الحديث؟ وأجيب — تعبيرا عن وجهة نظرى — بأنه ليس هناك ما يمنع من دراسة الآداب القديمة برؤى جديدة ، وسوف تتوهج هذه الآداب وتبرق عندما ننظر إليها من خلال التجربة الشعرية والوحدة العضوية وعندما نلبس ما فيها من تشبيهات وكنايات أثوابا تشخصها وتجسمها ، كما أنه من القصور الشديد أن نقف فى دراسة الأسلوب أو التعبير عند حدود اللفظة المفردة فى بيان معناها ، ونقطعها قطعا عن سر تواجدها ، فمن مجموع الألفاظ يتكون قاموس الشاعر ، ومن قاموسه تتضح حالته الشعورية . وبعد هذه المقدمة التى رأيت أنها ضرورية أعود إلى همزية ابن قيس الرقيات وهى فى المدح السياسى الذى ظهر فى عصر بنى أمية لتواجد الأحزاب المتصارعة حول الخلافة .

والقصيدة فى مدح مصعب ولكنها لم تخلص لهذا الموضوع ، فقد حولها الشاعر إلى فخر بقريش ودعوة إلى وحدتها ، وثورة على بنى أمية ، والقصيدة تتسم بالروح الإسلامية المستمدة من عقيدة الشاعر ويتضح فى الأبيات الأولى حرصه على وحدة قريش فنراه يستعين بالألفاظ الموحية المعبرة عن هذا المعنى .

فقوله فى البيت الأول «حبذا» أسلوب مدح يوحى بالسعادة والرضا عن حالة قريش فى ظلال وحدتها، وكلمة «قومى» تدل على اعتزاز الشاعر بقوميته ، وأنه واحد منهم .

وأضاف فى البيت الثانى (الملك لقريش) ليقرر أن الخلافة حق ثابت لها والشاعر يفصح بذلك عن مذهبه السياسى ، وكلمة «تطمع» توحى

بالمرارة والألم ، ومثلها « تشمت » وهو فى هذا البيت يجاهر برأيه ، ولا يصطنع « التقية » كما يفعل شعراء الشيعة فقد جعل خصومه أعداء ، وكقوله بعد ذلك فى البيت (٢٢) وأنتم فى نفس الأعداء .

ويخاطب فى البيت الثالث بنى أمية الذين جعلوا الخلافة وراثة فيهم ، وانتزعوها من قريش ، فالخطاب موجه إلى الخليفة «عبد الملك بن مروان» أو إلى أقطاب الخوارج وأشباههم ممن لا يدينون بالولاء لقريش وعلى ذلك فالألف واللام فى « المشتهى » للجنس أو للعهد ، والنداء للتحسر والتوجع .

ويدل قوله « بيداالله عمرها والفناء » على عقيدة الشاعر ، وعلى روحه الإسلامية ، ويدعو بذلك حساد قريش إلى التبصر والتعقل ، وفى قوله « عمرها والفناء » طباق يضفى على الأسلوب جمالا وروعة . واستخدام إن الشرطية فى البيت الرابع يدل على أن هلاك قريش وفناءها أمر مشكوك فيه والأسلوب فى البيت المذكور خبرى ، وغرضه مدح قريش ، وبيان مكانتها بين القبائل ، وبين (تودع وبقاء) طباق ، ثم استخدم فى البيت الخامس « لو » الشرطية للدلالة على أن هلاك قريش أمر ممتنع بعد أن كان مشكوكا فيه بالبيت السابق والأسلوب خبرى ، وغرضه بيان فضل قريش .

وقوله فى البيت السادس « هل ترى من مخلد » ؟ استفهام غرضه النفى أى لا ترى من مخلد ، ولعلنا نلاحظ أن الأسلوب متنوع بين الخبر والإنشاء ، والشاعر فى هذا البيت متأثر بقوله تعالى : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »[1] .

---

(١) سورة الرحمن (٢٦ ، ٢٧) .

وجاء الطباق بين (يبقى ويذهب) طبيعياً من غير تكلف . وسلك الشاعر في البيت السابع مسلك الحكيم المجرب الذي يورد الحكمة في الموضع الملائم .

وقوله : « ألا في غد يكون القضاء » يشبه الوعيد والإنذار لبني أمية وهو تعـــبير عن روح إسلامية . ويدعو آل الزبير للتفاؤل والرضاء والأسلوب في البيت الثامن خبري وغرضه التحسر والتوجع على ماصارت إليه الأمور ، وقوله : « يحسدنا » إشارة إلى مكانة قريش حتى تحسدها القبائل الأخرى ، وفيه اتهام للخصوم بالحقد والكراهية .

وفي البيت التاسع تأكيد على عقيدة الشاعر ، وبيان رضائه بقضاء الله . والأمر في قوله : « فمت » للإهانة والسخرية ووضح تأثره في هذا البيت بقوله تعالى : « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور »[١] .

وتأثر أيضاً في البيت العاشر بقوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين »[٢] ، والأسلوب في الأبيات (١١، ١٢، ١٣) خبري ، والغرض مدح مصعب ، في البيت الحادي عشر أسلوب قصر وطريقه « إنما » ، وهو قصر موصوف على صفة ، وأراد الشاعر بهذا القصر أن يجعل الخبر بمنزلة المعلوم الظاهر ، وبين قوله (شهاب والظلماء) طباق وقوله : « ملكه ملك قوة » تعبير موجز ومحدد وجامع لصفات الحزم والوقار ، وفي قوله « ليس فيه جبروت » احتراس جميل ، وهو يمنع أن تكون هذه القوة ظالمة غاشمة والروح الإسلامية مشعة ومتوهجة في هذه الأبيات ، انظر إلى قوله (شهاب من الله ، ليس فيه جبروت ، يتقي الله في الأمور) والتركيب الأخير يكشف عن جوهر مصعب وحقيقته .

---

(١) آل عمران (١١٩) .
(٢) الدخان (٢٩) .

وكان الخلفاء والأمراء مولعين بالشعر، وكانوا يخشون الشعراء، ويتعقبونهم إن هجوهم وذموهم، ويرصدون لهم الأموال والعطايا إن مدحوهم، وأشادوا بهم وقد أقبل ابن قيس على عبد الملك بن مروان ومدحه بالبائية المشهورة التي حدثتك عنها والتي يقول فيها :

خليفةُ الله فوق مِنبره   جفتْ بذاك الأقلامُ والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقة   على جبين كأنه الذهب[1]

عندما سمع عبد الملك ذلك أنكر على الشاعر قوله، وقال له : يا بن قيس : تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله   تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه   جبروت ، ولا به كبرياء[2]

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ من المسلمين عطاء .

وقد نوع الشاعر في الأسلوب فجاء إنشائيا في البيت الرابع عشر، وهو في قوله « فابكي » أمر غرضه التمني إذ أنه موجه إلى غير عاقل وهو « عين » والاستفهام غرضه النفي في البيت نفسه، وجاء الأسلوب خبريا في البيتين (١٥ ، ١٦) لإظهار الألم والحسرة، وانتقى الشاعر الألفاظ التي تلائم نفسيته، وتعبر عن حالته الشعورية مثل أبكي ، بكيت ، البكاء ، حتفهم ، نكبات . والأسلوب في البيتين (١٨ ، ١٩) خبري وغرضه الفخر، وفي الأبيات ما يؤكد الروح الإسلامية لابن قيس كقوله « ليس لله » و « خصه الله » فقد كرر لفظ الجلالة تعبيراً عن عاطفته الدينية .

وتأثر في قوله « فالبادون والعاكفون فيه سواء » (في البيت التاسع

---

(١) الديوان ص ٥   (٢) الديوان ص ٩١

عشر) بقول الله تبارك وتعالى : « إن الذين كفروا ، ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ... »[1] وفى قوله : « فالبادون والعاكفون » طباق .

والاستفهام فى البيت العشرين للتحسر والتوجع ، وجاهر الشاعر فى الأبيات الأخيرة بنى أمية بالعداوة كقوله :

. . . . ولما يشمل الشامَ غارة شعواء
أنا عنكم بنى أمية مزورٌ ر ، وأنتم فى نفسى الأعداء

ثم ذكرهم بما حدث فى موقعة (الطف) ليؤكد بذلك جرأته ، وأنه لم يخش أحداً فقد كان شجاعا حقاً قولا وعملا ... ألم يوجد مع مصعب فى أشد المواقف حرجا ولم يهرب أو يتخل عنه ، وبقى معه حتى النهاية ؟ !

ومن العرض السابق تتضح ملامح الأسلوب . فهو أسلوب سهل ، لين مستو ، لا تجد فيه تعقيداً أو التواء والألفاظ عذبة ، ومتجانسة ومتآلفة وموحية ومعبرة ، والجمل مترابطة مع قوة الموسيقى . وطواعية القافية ، وقد ظهرت النزعة الدينية فى هـذا الشعر ، ووضح الأخذ اللطيف من القرآن الكريم . واستعان الشاعر بالمحسنات غير المتكلفة وقلت إنه نوع بين الأسلوبين الخبرى والإنشائى بما يخدم المعنى والأسلوب معاً فجاءت الأفكار واضحة والأسلوب رائعاً جميلا .

---

(١) سورة الحج آية (٢٥) .

التصوير الخيالى

للشعر فى عصر بنى أمية طبائع خاصة لعل منها تحوله من خدمة القبيلة فى العصر الجاهلى إلى خدمة الحزب السياسى فى هذا العصر ، ولذلك جاءت الصور والأخيلة فى شعر عبيد الله بن قيس الرقيات منتزعة من البيئة دلالة على اتصال الشاعر ببيئته ومجتمعه ، وكان ذلك حال معظم الشعراء فى هذا العصر. وقد أعتمد على الصور الخيالية — إلى جانب الألفاظ والعبارات — فى نقل مشاعره ، والتعبير عن فكره واتجاهه ، وهذه أهم الصور الخيالية فى الأبيات المختارة .

قوله فى البيت الأول « لم تفرق أمورها الأدواء » استعارة مكنية ، حيث أبرز الأمور وهى شىء معنوى فى صورة محسوسة مجسمة ، وقوله فى البيت الثانى :

قبل أن تطمع القبائل فى ملـ
ـك قريش ، وتشمت الأعــداء

كناية عن الضعف ، فالقبائل لا تطمع إلا فى الضعاف ، والأعداء لا يشمتون إلا فى المنهزمين المنكرين .

وقوله فى البيت الثالث : « بيــد الله » مجاز مرسل علاقته السببية ، فالمقصود باليد القوة وهى سبب فيها والمجاز يؤكد المعنى ويقويه — وجعل فى البيت الرابع قريشا شخصاً حزيناً مفارقا متأهبا للوداع ، والأسلوب استعارة مكنية وهكذا تبدو الصور الخيالية قريبة المأخذ سهلة التناول . وفى البيت الخامس تشبيه تمثيلى ، وهو صورة بدوية منتزعة من البيئة حيث شبه حالة العرب بعد زوال قريش بحالة الغنم التى تتعرض للذئاب وقد غاب عنها راعيها ، وقوله فى البيت الثامن : « ويجرى لنا بذاك الثراء » استعارة

مكنية إذ جعل الثراء ماء متدفقا . وهذه الصورة المجسمة تبرز الدولة فى حالة اتساع ونماء ، وقوله : « لا تميتن غيرك الأدواء » مجاز مرسل علاقته السببية ، حيث جعل الأدواء — وهى سبب فى الموت — وحشاً كاسراً ، ويمكن أن تكون الصورة استعارة مكنية . فالصور أو النكات البلاغية — كما يقولون — لا تتزاحم .

وقوله فى البيت العاشر « بكت السماء » استعارة مكنية جاعلا السماء إنسانا رحيما يبكى حزنا على قريش ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو (يبكى) والخيال تشخيصى رائع .

وشبه فى البيت الحادى عشر مصعبا بالشهاب فى العلو والرفعة ، والتشبيه يوحى بتأييد الله للمشبه (مصعب) .

وقوله : « يتقى الله فى الأمور » استعارة مكنية جسم فيها الأمور وجعلها شيئاً محسوساً ووعاء للتقوى ، وقوله : « عين فابكى » استعارة مكنية أيضاً إذ شخص فيها العين وجعلها إنساناً يناديه ويطلب منه المشاركة فى البكاء على قريش ، وقوله فى البيت الخامس عشر «سيوف» مجاز مرسل علاقته السببيه ، فالسيوف سبب القطعية وعلامة عليها ، وقوله «بنى العلات» كناية عن الأقارب ، و«اللواء» كناية عن الزعامة .

وشبه فى البيت السادس عشر الرأس فى البياض — من شدة الهول — بالثغامة وهى شجرة بيضاء الزهر ، والصورة مستوحاة من البيئة العربية . وقوله « تسرى بها الأنباء» صورة خيالية تشخيصية ، فقد جعل الأنباء إنسانا يسرى ويتحرك ، وهى استعارة مكنية .

وجعل فى البيت الخامس عشر ما حل بهم كوقع القدوم على الأشياء التى ينحتها فى التأثير والتفريق .

وقوله فى البيت الثامن عشر : «حرمة مثل بيت» تشبيه منفى ، وهو يشعر بمكانة البيت الحرام ومهابته ، وقوله : «نحن حجابه» كناية عن استحقاق القرشيين للخلافة وقوله «عليه الملاء» كناية عن الكعبة المشرفة .

وقوله فى البيت الحادى والعشرين : «وتبدى عن براها العقيلة العذراء» كناية عن الهول والفزع ، وقد اصطنع الشاعر فى الأبيات الأخيرة الأسلوب التصويرى الحزين كما فى رثائه لشهداء الطف وحزنه عليهم فى البيت الأخير .

واستطاع الشاعر بعاطفته الصادقة والقوية إبراز المعانى وتصويرها تصويراً حسيا ملموساً ، ولهذا استحق أن يكون شاعر الزبيريين الناطق بلسانهم ، والمعبر عن رأيهم فى مدة تقرب من خمسة عشر عاما فى القرن الأول الهجرى (٦٠ هـ — ٧٥ هـ) .

القصيدة بين الشاعر وعصره :

تكشف القصيدة عن شخصية عبيد الله بن قيس الرقيات فهو من دعاة الوحدة القرشية المنادين بأحقيتها فى الخلافة ، وهو حزين ملتاع لما أصابها من تفرق وانقسام ، وهو شجاع لا يخشى بطش الأعداء وكيد الخصوم ، مخلص لآل الزبير يمدح عن عقيدة واقتناع ، وليس طمعاً فى مال أو رغبة فى شهرة . ويبدو فى النص تأثره بالقرآن الكريم ، وبالمعانى التى جاء الإسلام بها . وهو سهل الشعر ، رقيق المعانى ، ذو مزاج صاف ، وصاحب عقيدة وعاطفة صادقة ، تؤمن بما تقول ، ولا تقول غير ما تعتقد .

ويكشف النص عن عصر الشاعر وبيئته ، فقد أبرز الخلاف الحزبى والصراع السياسى الذى سيطر على البيئة الأدبية فى القرن الأول الهجرى ،

واختار من الألفاظ ما يلائم هذا العصر وعبر — بما انتقاه من صور — عن البيئة العربية التي عاش بين حواضرها وبواديها ، وحدد في الأبيات بعض البلاد والمواقع كالشام والطف ، وأبرز الفتاة العربية وهي بعقودها وخلاخيلها محتجبة في خدورها ، وأشادت القصيدة بمكانة الكعبة المشرفة ، وبمكانة القائمين عليها من أهل قريش الذين تعصب الشاعر لهم ، وأبرز مكانتهم ، ولهذا جاءت القصيدة معبرة عن صاحبها وعصرها في أكمل صورة ، وأصدق بيان .

من شعر الكميت بن زيد الأسدي

فى مدح الهاشميين

نبذة عن الشيعة :

نشأت فكرة الشيعة مبكرة (مثل الخوارج) أى بعد موقعة صفين ، وما أعقبها من التحكيم حيث تاه الحق وأهدر الدم ، وتفرقت الكلمة ، وتنوعت الفرق ، وكثرت الملل والنحل والأهواء .

والشيعة كحزب سياسى يمثل العصبية الهاشمية التى تنادى بخلافة بنى هاشم أو بنسل على بن أبى طالب ابن عم الرسول ﷺ . والامام على كرم الله وجهه عندهم هو أحق بالخلافة من غيره ، ثم بنوه بطريق التسلسل الوراثى — وقد أرادوا حبس الخلافة فى بيت واحد من الهاشمين هو بيت على بن أبى طالب . ولهم عدة تعاليم وآراء سياسية تتصل بنظام الحكم حيث يقولون بالعصمة أى عصمة الأئمة من الخطأ ، ويقولون بالمهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا ونوراً بعد أن ملئت ظلما وجورا ويقولون بالرجعة أى رجعة الأئمة الذين ماتوا ، وهى فكرة تأتى اتساعا فى عقيدة المهدى المنتظر ، ويقولون بالتَّقِيَّة وهى وسيلة يتقون بها خصومهم ، ومعظم هذه الآراء قد نشأت فى مرحلة متأخرة من مراحل ظهور الشيعة كمذهب دينى وسياسى وفكرى ، ولكثرة الاختلافات بين دعاة الشيعة انقسموا إلى فرق كثيرة .

والزيدية إحدى هذه الفرق ، وسميت بذلك نسبة إلى الإمام زيد وهو ابن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وهؤلاء أقل الفرق تشددا ، وهم الذين حصروا الإمامة فى أولاد فاطمة دون غيرهم ، وكانوا يجوّزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، ولهذا صححوا إمامة أبى بكر

وعمر وعثمان ، وتعد هذه المبادىء أكثر اعتدالا بالنظر إلى آراء الفرق الأخرى .

والشيعة مجموعة من الشعراء منهم الكميت بن زيد الأسدى وكثير عزة ، والنعمان بن بشير الأنصارى ، وابن مفرغ الحميرى وأيمن بن خريم الأسدى ، وأبو الأسود الدؤلى . وكان شعرهم السياسى حزينا متنوعا بين القوة والضعف بينما اختلف الأسلوب باختلاف الأغراض والدواعى .

ويعد الكميت بهاشمياته أشهر الشعراء الذين أخلصوا لهذا الاتجاه السياسى والأدبى والعقدى ، فعاش حياته مخلصا للشيعة ، والزيدية بخاصة ، وتصدى للدفاع عن بنى هاشم والمطالبة بحقوقهم فى الخلافة التى أحتبلها بنو أمية .

التعريف بالكميت[1] :

ولد الكميت بن زيد الأسدى بالكوفة سنة ستين من الهجرة وكانت هذه المدينة حاضرة من حواضر العلم والثقافة فى القرن الأول الهجرى ،

---

(١) تراجع ترجمته فى الأغانى ج ١٧ ومهذب الأغانى ج ٤ وخزانة الأدب ج ١ والمؤتلف والمختلف ، ومعجم الشعراء ، وطبقات فحول الشعراء ، والشعر والشعراء ، والبيان والتبين ، والحيوان ، وأمالى المرتضى ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان والمدائح النبوية لزكى مبارك والتطور والتجديد ، وتاريخ الأدب فى العصر الإسلامى لشوقى ضيف ، وديوان الكميت الذى جمعه وحققه وطبعه فى بغداد الدكتور داود سلوم وقد عقد فى الجزء الأول منه مقدمة طويلة تحدث فيها عن حياة الشاعر وتشيعه وهاشمياته وأغراض شعره .

ومعقلا للشيعة ، وميدانا للأدب ، وقد نشأ فيها وتلقى علومه بها ، ونبغ فى معرفة أنساب العرب وأيامها ، وأخذ عن زيد بن على بن الحسين الذى تتلمذ على واصل بن عطاء إمام المعتزلة ، وأخذ الكميت عن واصل أيضاً فكان شيعيا معتزلا وخطيبا لبقا ، والتقى بالفرزدق ، واستمع إليه وهو ينشد شعره إذ كان الفرزدق هو الآخر يتجه فى شعره إلى الشيعة وقصيدته فى (على زين العابدين) معروفة ومشهورة ، وكان الكميت يعجب به ويميل إليـــه ، وليس أدل على ذلك من الدعابة اللطيفة التى وجهها إلى الفرزدق بعد أن انتهى من إنشاد شعره ، وذكرها ابن قتيبه فقال : « ووقف الكميت على الفرزدق وهو ينشد ، والكميت يومئذ صبى ، فقال له الفرزدق : يا غلام ! أيسرك أنى أبوك ! فقال الكميت : أما أبى فلا أريد منه بدلا . ولكن يسرنى أن تكون أمى ! فحصر الفرزدق يومئذ ، وقال : ما مر بى مثلها (قط) »[1] .

وعندما أتم شاعرنا تكوينه الثقافى ، وألم بمعاوف عصره اشتغل معلما للناشئة فى مسجد الكوفة وفى هـذا المسجد انعقدت الصلة بينه وبين شاعر الخوارج الطرماح بن حكيم الذى كان يزاول هو الآخر مهنة التعليم .

وأعقب الكميت أكثر من ولد ، وأشهرهم المستهل الذى كان يُكنى به والذى قال لبنى العباس بعد وفاة أبيه :

إذا نحن خفنـا فى زمان عدوكم
وخفناكمُ إن البـلاءَ لراكدُ[2]

---

(١) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٨٦ طبعة دار التراث العربى تحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٨٨ .

ومن أولاد الكميت أيضاً حبيش وعمارة وله بنت تسمى « ريّا » ذكرها الدكتور زكى مبارك فى كتابه « المدائح النبوية » .

وكان العراق فى عصر بنى أمية مسرحا كبيراً للعصبية الممقوتة التى أماتها الإسلام فأحياها الأمويون ، وتصدى الكميت للدفاع عن العدنانية ومهاجمة اليمنية (القحطانية) وانبرى الشاعر حكيم بن عياش الكلبى لهجاء العدنانيين . وبالغ فى تعصبه للأمويين ضد بنى هاشم ، واتسعت الخصومة بين هذين الشاعرين ، وغضب بنو أمية من هجاء الكميت لأهل اليمن ، لأنهم كانوا يتخذون منهم أنصاراً وأعواناً ، وكان الكميت مدفوعا لإثارة هذه العصبيات بمنظور سياسى إذ كان إمامه زيد يطمع فى الخلافة ويسعى لنيلها .

ولما كان ابن عياش يمنيا ومتعصبا لبنى أميه أراد الكميت أن يغلق الباب فى وجهه ، فلم يفتخر بعلى حتى لا يسعى ابن عياش لهجائه ، واتجه إلى الفخر ببنى أميه وهم من مضر فاذا نقض ابن عياش هذا الفخر أغضب الأمويين وتحقق للكميت ما أراد ، ولما تعجب المستهل من تصرف والده فى افتخاره ببنى أمية وسأله عن ذلك قال له الكميت : « يابنى أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية وهم أعداء علىّ عليه السلام ، فلو ذكرت عليا لترك ذكرى وأقبل على هجائه فأكون قد عرضت عليا له ولا أجد له ناصرا من بنى أمية ففخرت عليه ببنى أمية وقلت : إن نقضها على قتلوه وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما وغلبته »[1] .

وكان الكميت يقصد من هجائه لليمنية قصداً سياسياً يتمثل فى الدفاع عن العلويين ، وصرف ابن عياش الكلبى عن الأمويين والإيقاع بين الأطراف المعادية والمناوئة لإمامة زيد بن على .

---

(١) الأغانى ج ١٧ ص ٣٧ ، ٣٨

وعندما تولى خالد بن عبد الله القسرى العراق فى (١٠٥) ه إلى (١٢٠) ه من قبل هشام بن عبد الملك اشتد الصراع بينه وبين إمام الزيدية، وغلت مراجل الكراهية فى صدر خالد لما وجد الكميت يهجو آل أمية، وينتقد تصرفاتهم، ويدعو بالخلافة للعلويين، وقد اكتمل تشيعه فى ولاية خالد على العراق وانتهى من أعماقه ووجدانه ما كان قد اختزنه من رضى على اليمنية وعلى بنى أمية، ونظم الهاشميات فى المدة المذكورة، لأنه أعلن فيها فكره السياسى واتجاهه الدينى، ومذهبه الكلامى.

وكان شعر الكميت يصل إلى خالد القسرى الذى أراد أن يوقع بالرجل فأرسل واحدة من قصائده وهى اللامية إلى هشام بن عبد الملك وأولها:

ألا هل عم فى رأيه متأمل ... وهل مدبرٌ بعد الإساءة مقبل

لهم كل عام بدعةٌ يحدثونها ... أزلوا بها أتباعهم ثم أوحلوا

كما ابتدع الرهبان ما لم يجىء به ... كتاب ولا وحى من الله مُنْزل

تحل دماء المسلمين لديهمُ ... ويحرُم طلع النخلة المتهدل

وأبياتها تسعة وثمانون.

وغضب الخليفة من هذا الهجاء، وأمر بقطع لسان الكميت ويده ثم قرر سجنه، وعهد إلى القسرى بذلك، وسجن الشاعر، وسكت صوته، وأخذ يفكر بهدوء وروية، فهو يريد أن يخرج من الحبس، ويجب أن يأمن على نفسه، ويرى أن رسالته فى الدعوة لإمامه لا زالت قائمة. وتمكن من الهرب من سجنه فى ثياب امرأته من غير أن يعرفه الحراس، وفر إلى الشام واستغاث بأشراف بنى أمية، واحتمى بمسلمة بن هشام الذى طلب له العفو من أبيه.

وهكذا عادت إلى الشاعر حريته بعد جهد جهيد وتفكير طويل، ومدح هشام بن عبد الملك وابنه مسلمة استرضاء لهما وعملا من وجهة نظره بمبدأ «التَّقِيَّة» الذى يأخذ به أهل الشيعة ومما قاله فى هشام:

أأنتم معادن للخلا فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعيـ ـن خلائفنا وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزا ل لشافع منكم وواتر[1]

ومما قاله فى مسلمة:

إن الخلافة كائن أوتادها
بعد الوليد إلى ابن أم حكيم[2]

وعاد الكميت إلى الكوفة بأموال كثيرة من الخليفة وابنه ومن بعض بنى أمية، ورجع ومعه كتاب من هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسرى فيه أمان الكميت وأهل بيته، وأنه لا سلطان لخالد عليهم.

وربما يظن البعض أن الكميت بما قاله من شعر فى الأمويين قد انصرف عن الشيعة وعن المطالبة بحقوق الهاشميين، ولكن ذلك لم يحدث، فقد كان مؤمنا بمبدأ التقية وسئل عن هذا الشعر فقال: «إنى لا أحفظ منه شيئا إنما هو كلام ارتجلته».

وبعد أن عاد الكميت إلى الكوفة واستقر فيها عزل خالد القسرى (فى سنة ١٢٠ هـ) وتولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى الذى أخذ يرصد تحركات زيد وأصحابه، ثم حدث ما لا يحمد، وتفرق الأصحاب عن إمامهم،

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص ١٠

(٢) أم حكيم هى أم مسلمة بن هشام.

وذهب دم زيد هدرا مثلما حدث لجده الحسين فى كربلاء سنة ٦١ ه وقتل يوسف بن عمر الثقفى إمام الزيدية سنة ١٢١ ه ، وصلب جسده بالكوفة ، وأرسل برأسه إلى هشام فبعث بها إلى المدينة ، وظلت معلقة هناك مدة ثم أنزلت وأحرقت .

وحزن الكميت لمقتل زيد حزنا كبيرا ، وبكى عليه بكاء مرا وأخذ يهجو يوسف بن عمر هجاء لاذعا .

وبما قال فيه :

يعز على أحمد بالذى	أصاب ابنه أمس من يوسف
خبيثٌ من العصبة الأخبثين	وإن قات زانين لم أقذف

ووصل هذا الهجاء إلى يوسف بما فيه من بكاء على إمام الزيدية فأخذ يتربص بالكميت حتى كانت سنة ١٢٦ ه فدخل عليه يمدحه ، وكان قد نسى ما قاله ، ثم نعجب لقضاء الله الذى لا راد له ، فهذا الشاعر يقدم إلى حتفه من غير أن يدرى، ويمكن الثقفى منه من غير مشقة ، ويضع الفرصة فى يديه بكل يسر وسهولة ، وما أن انتصب الشاعر لإلقاء شعره حتى دخل عليه جند يوسف ، فوضعوا سيوفهم فى بطنه ، ونزف دمه حتى مات ولحق بربه فى السنة المذكورة ،

شعره :

جمع شعر الكميت فى العصر العباسى ، وكان بنو العباس يكرهونه لإلحاحه ومطالبته بالخلافة لآل على ، حيث يرون أنهم أحق بها ، ولا يمنع أن تكون الأهواء السياسية قد تدخلت ضد هذا الشاعر فأهمل الكثير من شعره وضاع معظمه وما جاء منه على قلته يكشف عن موهبته

وعبقريته ، وقد قال فى الوصف والتأمل والحكمة وله قصيدة فى جمهرة أشعار العرب وهى فى التأمل والحكمة وأولها :

ألا لا أرى الأيام يُـقضَى عجيبها
بطول ، ولا الأحداث تَـفنَى خطوبها

ولا عِبر الأيام يَـعرِف بعضها
ببعض من الأقوام إلا لبيبُها [١]

والكميت غزل تقليدى بالإضافة إلى الأغراض الأخرى التى يتناولها معظم الشعراء مثل المدح والرثاء والهجاء .

الهاشميات :

الهاشميات هى الأشعار التى أنشأها الكميت فى بنى هاشم تحت هذا الاسم المذكور ، وقد طبعت به ونالت شهرة كبيرة من خلاله ، وهى لا تبدىء ببكاء الأطلال والديار على عادة قصائد القدماء ، وإنما تبتدىء بحب أهل البيت الهاشمى وتدافع عن حقوقه فى ميراث الخلافة مع الاعتماد على الإقناع العقلى ومقارعة الحجة ، فالهاشميات مقالة شعرية أو متطلبات الزيدية فى العصر الأموى ، فالقصيدة الهاشمية عبارة عن حجة منطقية أو خطبة شعرية لخدمة هدف محدد أو نظرية معينة فالكميت : « شاعر يقصر نفسه وشعره على نظام معين »[٢] : وهو : « لا يمدح أهل البيت لذواتهم ، وإنما يعلل مدحه إياهم بقرابتهم من الرسول »[٣] .

---

(١) الجمهرة ص٧٨٣ طبعة دار نهضة مصر سنة ١٩٨١ تحقيق وشرح على محمد البجاوى ، والجزء الأول من الديوان ص٨٢ طبعة بغداد سنة ١٩٦٩

(٢) التطور والتجديد ص ٢٧٥

(٣) المدائح النبوية لزكى مبارك ص٤١٢ طبعة دار الشعب .

والجانب الآخر من الهاشميات يتجه به إلى هجاء بنى أمية إذ أنهم قد انتهبوا الخلافة من غير حق، وساروا فى الناس سيرة الجور والاعتساف و «الهاشميات نزعة عقلية جديدة فى اللغة العربية لم تكن معروفة قبل الكميت إذ لم يعرف عن شاعر قبله أنه خصص لنظرية معينة مجموعة من قصائده لقّبت بلقب يدل على غايته أو مَنْزَعه ...»[1].

و «هاشميات الكميت» طرفة نفيسة من طرف عصر بنى أمية[2].

البائية :

تعد القصيدة البائية أم الهاشميات، وأشهرها جميعا على الإطلاق ومطلعها :

طربتُ وما شوقا إلى البيض أطرب
ولا لعبا منى وذو الشَّيب يلعب

وذكروا أن الهاشميات هى أول ما قاله الكميت من شعر وأن البائية هى أول ما نطق به من الهاشميات، وقد مدح فيها الرسول فقال :

ومالىَ إلا آلَ أحمدَ شيعةٌ
ومالىَ إلا مذهبَ الحق مذهبُ

وأحب الناس هذه القصيدة، لأن الشاعر اعتنى فيها بتبكاء القتلى من أهل بيت الرسول، ولهذا قالوا : من لم يرو «طربت وما شوقا إلى البيض أطرب» فليس بهاشمى وعن هذه القصيدة روى كثير من المتقدمين قصة التقاء الكميت بالفرزدق.

(١) التطور والتجديد ص ٢٨١

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٢

قال المرتضى مما يرويه عن غيره : « جاء الكميت إلى الفرزدق فقال : ياعم إنى قد قلت قصيدة أريد أن أعرضها عليك ، فقال له : قل، فأنشده :

طربتُ وما شوقا إلى البيض أطرَبُ

فقال له الفرزدق : إلى من طربت ، ثكلتك أمك ؟ فقال :

ولا لعبا منى وذو الشيب يلعبُ

ولم تُلهنى دار ولا رسمُ منزل
ولم يتطرّبنى بنان مخضب

فقال له : إلى من طربت؟ فقال :

ولا أنا ممن يزجر الطيرَ همه
أصاح غرابٌ أم تعرض ثعلب

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشية
أمر سليم القرن أم مر أعضب

ولكنْ إلى أهل الفضائل والنهى
وخير بنى حواء والخيرُ يُطلب

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نابنى أتقرب

فقال له الفرزدق : هؤلاء بنو هاشم ، فقال الكميت :

بنى هاشم رهط النبى فإننى
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

فقال له الفرزدق : والله لو جزتهم إلى سواهم لذهب قولك باطلا »[1] .

(١) أمالى المرتضى ج ١ ص ٦٦ وص ٦٧ طبعة عيسى الحلبي .

ويؤكد هذه الرواية ماذكره صاحب الأغانى قريبا من هذا عندما قال : إن الفرزدق قال للكميت : « يا ابن أخى أذع ، ثم أذع ، فأنت والله أشعر من مضى ، وأشعر من بقى »[١] .

وليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة باكورة شعر الكميت فلابد أنه قد قال الكثير قبلها ، وهذا ما أكده الدكتور . زكى مبارك فقال : « وليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره ؛ لأن فيها من القوة ما يقطع بأنها ليست بداية شعرية ، وإنما هى صرخة شاعر فحل طال منه الصيال »[٢] .

وبعد هذا التقديم الذى طال وامتد مع الشيعة ومع شاعرهم الكميت ومع هاشمياته التى انتهى الحديث عنها بما ذكر حول البائية نعمد بالاختيار إلى بعض الأبيات التى تعبر عن أفكار هذه الهاشمية إذ من العسير فى مثل هذا المقام التعرض لها كاملة بالشرح والتحليل ، خاصة وأنها بلغت مائة وثمانية وثلاثين بيتاً .

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص ٢٩

(٢) المدائح النبوية ص ٨٦

الأبيات المختارة :

(قال) :

— ١ —

١ — طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطرب
ولا لعباً منى وذو الشّيب يلعب

٢ — ولم يُلهنى دارٌ ولا رسمُ منزل
ولم يتطرّبنى بنانٌ مخضب

٣ — ولا أنا ممن يزجر الطيرَ همّه
أصاح غراب أم تعرّض ثعلب

٤ — ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيةً
أمر سليم القرن أم مر أعضب

— ٢ —

٥ — ولكنّ إلى أهلِ الفضائل والنهى
وخير بنى حواء ، والخيرُ يُطلب

---

(١) الطرب خفة تصيب الإنسان لشدة فرح أو حزن ، وأكثر ما يستعمل فى السرور والفرح ، البيض جمع بيضاء يريد النساء ، اللعب : العبث .

(٢) رسم : أثر ، يتطربنى : يحملنى على الطرب .

(٣) الزجر : العيافة ، وأصله حمل الحيوان على الطير ليستدل بحركاته وأصواته على الحوادث القادمة : تعرض : تصدى وظهر .

(٤) السانحات : جمع سانح وهو الطير الذى يمر من اليسار إلى اليمين وهو فأل حسن عند العرب وعكسه البارح ، الأعضب : المكسور القرن .

(٥) النهى : جمع نهية وهى العقل لأنها تنهى عن القبيح .

٦ — إلى النفر البيض الذين بحبهم
إلى الله فيما نالنى أتقرّب

٧ — بنى هاشم رهط النبى ، فإنى
بهم ، ولهم أرضى مراراً وأغضب

٨ — خفضت لهم منى جناحى مودة
إلى كنف عطفاه أهلٌ ومرحب

٩ — وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا
مِجَنّا على أنى أُذم وأقصب

١٠ — وأُرمَى وأرمِى بالعداوة أهلها
وإنى لأوذي فيهم وأؤنب

١١ — فما ساءنى قول امرىء ذى عداوة
بعوراءَ فيهم يجتذينى فأجذب

١٢ — فقل للذى فى ظل عمياء جونة
ترى الجَوْر عدلاً أين (لا أين) تذهب

---

(٦) البيض : الأشراف المشهورون .

(٧) الرهط : القوم والقبيلة .

(٨) الكنف : الجانب والظل ، والعطفان : الجانبان .

(٩) المجن : الدرع الواقى ، أقصب : أذم وأطرد أو أرمى بالقصب وهو الرماح .

(١٠) أرمى وأرمى : الأولى بالبناء للمجهول ، والثانية للمعلوم .

(١١) العوراء : الكلمة المعيبة أو الفعلة القبيحة ، يجتذينى : يطلب منى اتباعه .

(١٢) عمياء : ضلالة ، جونة : سوداء .

١٣ — بأىّ كتاب أم بأية سنة
ترى حبهم عارًا علىّ وتحسَبُ

١٤ — يُشيرون بالأيدى إلىّ وقولهُمُ
ألا خاب ، هذا والمشيرُون أخيب

١٥ — فطائفةٌ قد كفرتنى بحبكم
وطائفة قالوا : مسىءٌ ومذنب

١٦ — فما ساءنى تكفيرُ هاتيك منهمُ
ولا عيبُ هاتيك التى هى أعيب

١٧ — يَعيبوننى من خبهم وضلالهم
على حبكمُ بل يسخرون وأعجب

١٨ — وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
ويُنصب لى فى الأبعدين فأنصب

١٩ — وقالوا : ترابىٌّ هواه ورأيه
بذلك أدعى فيهمُ وألقب

— ٣ —

٢٠ — بخاتِمكم غصبا تجوز أمورهم
فلم أر غصبًا مثله يُتغصب

---

(١٣) كتاب : قرآن ، سنة : كلام الرسول ، والمراد بأى حق ترى ذلك .

(١٧) الخبّ : الخبث والمكر والخداع .

(١٨) نصب له : عاداه وحاربه .

(١٩) ترابى : نسبة إلى على كرم الله وجهه الذى قيل إن الرسول — ﷺ — لقبه بأبى تراب .

(٢٠) الخاتم : مايختم به الملك أو سواه ، لتصير الأمور نافذة ، تجوز : تسير وتنفذ ، ويتغصب : يغتصب .

٢١ — بحقكم أمست قريش تقودنا
وبالفذ منها والرديفين تَركَب

٢٢ — إذا اتّضعونا كارهين لبيعة
أناخوا لأخرى والأزمّة تُجذب

٢٣ — رِدَافاً علينا لم يُسيموا رعيةً
وهمهـم أن يمتروها فيحلبوا

٢٤ — لينتجوها فتنةً بعد فتنةٍ
فيفتعلوا أفلاءها ثم يركبوا

٢٥ — أقارُبنا الأدنَون منـكم لعلة
وساستُنا منهم ضباعٌ وأذؤُب

٢٦ — لنا قائدٌ منهم عنيف وسائق
يُقحِّمنا تلك الجرائمَ مُتعِب

---

(٢١) الفذ : الفرد وأول السهام ، الرديفان : مثنى الرديف وهو التابع أو الذى يركب خلف الراكب . تركب بمعنى تظهر .

(٢٢) اتضعونا : حكمونا ، وأصله اتضع البعير بمعنى خفض رأسه ؛ ليضع صاحبه قدمه على عنقه فيركب . أناخوا لأخرى : دبروا المسألة أخرى . الأزمة : جمع زمام وهو ماتضبط به الدابة من لجام ونحوه ، ومعنى والأزمة تجذب أى والأمور تسير .

(٢٣) ردافا : متتابعين . يسيم الماشية : يخرجها إلى المرعى ، يمترى الناقة : يمسح ضرعها لتدر .

(٢٤) نتج الفرس : عنى بها حتى تضع ، افتعل : اختلق ، أفلاء : جمع فِلو وهو الجحش أو المهر الصغير .

(٢٥) أذؤب : جمع ذئب .

(٢٦) يقحم الفرس راكبه : يرميه على وجهه . ويقحمه فى الأمر :=

٢٧ — وقالوا : ورثناها أبانا وأمّنا
وما ورّثتهم ذاك أمٌ ولا أب

٢٨ — يرون لهم حقا على الناس واجبا
سَفاها وحقُ الهاشميين أوجب

٢٩ — يقولون لم يُورث، ولولا تراثه
لقد شركت فيه بكيلٌ وأرحب

٣٠ — وعكٌ ولخمٌ والسكون وحمير
وكندةُ والحيان بكر وتغلب

٣١ — وما كانت الأنصار فيها أذلة
ولا غُيبا عنها إذ الناس غيب

٣٢ — هم شهدوا بدراً وخيبرَ بعدها
ويومَ حنين والدماء تصبّب

٣٣ — فإن هي لم تصلح لحى سواهم
فإن ذوى القربى أحق وأقرب

٣٤ — أناسٌ بهم عزت قريش فأصبحوا
وفيهم خباءُ المكرمات المطنّبُ

= يدخله فيه من غير روية ، الجراثيم : جمع جرثومة ، والمراد قرى النمل ، والمراد بالسائق : الخليفة ، ومتعب صفة لسائق الخليفة ,

(٢٧) ورثناها أى الخلافة . (٢٨) سفاها : جهلا وباطلا .

(٢٩) لم يورث : أى الرسول — ﷺ . بكيل وأرحب قبيلتان .

(٣٠) عك ولخم وغيرهما أسماء قبائل .

(٣٤) الخباء : واحد الأخبية من وبر أو صوف وأقيم على عمودين أو ثلاثة (الخيمة) . مطنب : مشدود الأطناب والأطناب مفردها طنب وهو حبل الخباء .

شرح الأفكار:

١ — [الأبيات من ١ إلى ٤] تمهيد ومطلع للقصيدة :

ابتدأ الكميت هذه البائية بتمهيد قال فيه : إنه يطرب كسائر الناس ولكن ليس إلى البيض الحسان ، ولم يعد يليق به أن يلهو ويلعب بعد أن بلغه المشيب ، ولم يعد يلهو بآثار الديار أو بالوقوف على الأطلال أو بالوقوع فى أحبال العشق والهوى الأخاذ ، وهو ليس من المتشائمين الذين يزجرون الطير أو يتطيرون من صوت الغراب ورؤية الثعالى ، وهو ليس من المتفائلين بانحراف الطيور من اليسار إلى اليمين ، فليست تعنيه كل هذه الأمور ولا يشغل نفسه بها .

٢ — الأبيات [من ٥ إلى ١٩] مديح وحب :

بعد المطلع السابق يحدد الشاعر وجهته ، ويكشف عن حبه للهاشميين حيث إنهم أهـــل الفضائل والعقول وخير الخلق على الإطلاق ، وهم أشراف يتقرب إلى الله بحبهم ، وهم قوم النبي وعشيرته ، ورهطه وجماعته يرضى لرضاهم ، ويغضب لغضبهم وقد برهم ، وأحسن معاملتهم ؛ لأنهم أهل له ولذلك رحبوا به ، وأحبوه ، وتحمل عنهم الأذى والذم ، وتلقى فى سبيلهم الإهانة ، وقاتل الأعداء من أجلهم لحبه لهم واعتزازه بهم ، وذكر أنه يقاوم الأعداء ، ولا يتأثر بهجومهم ، ولا ينخدع لكلامهم ، ولذلك لا ينجذب إليهم ، ويقول لمن يعيش فى ظلمات الجهالة ، ويرى الظلم عدلا أين تذهب ؟ وما مصيرك ؟

ثم يتساءل بأى حق يجعل هذا الأحمق حب بنى هاشم عارا يذم به الشاعر ، وقد أشار هؤلاء الحمقى بأيديهم إليه ، ودعوا عليه بالخيبة وهم أخيب . واختلفوا فى أمره فطائفة منهم حكمت عليه بالكفر ، وأخرى

اتهمته بالإساءة والذنب ، وهو لا يسوؤه ماقالته هذه أو تلك ، وكل هؤلاء الخصوم بمكرهم وضلالهم يعيبون الشاعر على حبه لبنى هاشم ويسخرون منه وهو لذلك يعجب منهم . وقد تندروا عليه وأعتبروه عديم القيمة لا يؤبه له ، وهو فى سبيل أحبابه يلقى الهوان من الأقارب الحاقدين والأباعد الناقين ، أما الأقارب فيصفح عنهم ، ويحتمل الأذى منهم ، وأما الأباعد فيصمد لهم . ويتصدى لعداوتهم .

٣ — الأبيات [من ٢٠ إلى ٣٤] حول مسألة الخلافة :

فى هذه الأبيات يقرر الكميت حقوق الهاشميين فى الخلافة ، ويذكر أن الأمويين اهتبلوها من غير حق ويرد على دعواهم بالمناقشة العقلية والحجج المنطقية ، ويورد من الأدلة مايقوى بها وجهة نظره ، فيذكر أنهم يحكمون بمفاتيح النبوة التى استلبوها وبخاتم الهاشميين الذى اغتصبوه ، وأمست قريش تحكم مطمئنة وتقود معتمدة على حقوق الآخرين ، وإن كانت دخيلة فى الحكم إذ لا حق لها .

وذكر أن الأمويين يكرهون الأمة على البيعة ويخططون لأخرى ، ويرغبون الناس فى الطاعة حتى تسير الأمور ، وهم يحكمون الرعية لينعموا بخيرات الملك دون أن يعنوا بمصالح الناس ، والأقارب منهم يدنون لأغراض ، والساسة منهم وحوش وذئاب ، وذكر أن الخليفة عنيف فى تصرفاته ، ويسوق الرعية إلى جرائم أفعاله

وقد قال الأمويون بوراثة الخلافة عن أبيهم وأمهم ، وقولهم بذلك باطل لأن الرسول ﷺ لم يورثها أحداً من بنى أمية ، وهم يرون بالجهل والباطل حقوقاً لهم على الناس ولو كانت الخلافة بالميراث لكانت من نصيب الهاشميين ، وهى لهم أحق وأوجب .

ثم يقولون : إن الأنبياء لا تورث ، ولذلك لا حق فيها للهاشميين لأن محمدا لا يورث — ولو كان هذا صحيحاً لكان من حق أهون القبائل وأقلها شأنا أن تشارك فى الخلافة ولشاركت فيها الأنصار لمكانتهم فى الإسلام ولجهادهم فى غزوات الرسول ، فإذا لم يكن لهذه القبائل حق فى الخلافة ، ولم تصلح لها غير قريش فإن ذوى القربى أحق بها من غيرهم ، فبفضل الهاشميين ارتقت قريش وأصبحت سادة للعرب ، ومناطا للشرف والسيادة .

الألفاظ والأساليب :

لم يهتم الكميت فى هذه البائية بفن التعبير قدر اهتمامه بعرض قضية الهاشميين ، والقصيدة ليست من المديح الذى يسعى فيه الشاعر لتحقيق مكاسب مادية أو معنوية ، وإنما يتجه بفنه إلى مدح بنى هاشم لقرابتهم من الرسول ، وقد جعل الدكتور زكى مبارك هاشميات الكميت لونا من المديح النبوى إلى جانب بعض الخصائص التى سوف تتضح من خلال عرض الأبيات .

بدأ الشاعر البيت الأول بقوله « طربت » وهو فعل ماض للتأكد من حدوث الطرب فعلا ، وفى الكلمة خفة ورشاقة تتناسب مع مطلع القصيدة ، وقدم كلمة « شوقا » على الفعل « أطرب » للاهتمام ، وسوف نلحظ الكميت يقدم فى هذه البائية كثيراً من الكلمات عن مواضعها بقصد الاهتمام بها إن لم تكن ضرورة الشعر قد أجبرته على ذلك . وقوله « وذو الشيب يلعب » جملة استفهامية وإن كانت الأداة محذوفة ، والاستفهام بمعنى النفى ، وكما يأتى الطباق للايجاب يأتى للسلب أيضاً كما فى قوله : « أطرب » و « وما شوقا أطرب » .

وقوله : « ولم يلهنى دار » أى ولم يلهنى رسم دار ففيه مجاز بالحذف

أو أنه من باب الاكتفاء لما ذكر بعده ، ويجوز أن يكون الكلام من غير حذف ، وقوله « يتطربنى » يوحى بتكلف الطرب ، والكلمة ملائمة للمعنى وهمـــزة الاستفهام للتسوية فى البيتين (٣ ، ٤) وبين السانحات والبارحات طباق .

وفى الأبيات التى يمدح فيها الهاشميين ، ويذكر براهين حبه لهم نراه يورد من الألفاظ والتراكيب ما يتلاءم مع هذه المعانى ، فقد عبر بالجمع فى قوله « الفضائل والنهى » وذلك للمبالغة ، وللاهتمام بالخير قدمه على الطلب فى (البيت الخامس) ، كما قدم بحبهم على أتقرب فى البيت الذى يليه .

وفى (البيت السابع) بدأ فى تفصيل بعد إجمال ، وذلك لإثارة السامع أو القارىء وشد انتباهه . وقوله « بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب » لف ونشر مرتب مع تقديم الجار والمجرور فيهما على متعلقهما ، إلى جانب الطباق بين أرضى وأغضب ، وفى الإشارة إلى (هؤلاء وهؤلاء) فى (البيت التاسع) وهى للقريب دلالة على دنو قدرهم تحقيراً لهم ، وقوله فى (البيت العاشر) (أرمى وأرمى) طباق معنوى . وقوله: « وأرمى بالعداوة أهلها » مضيفاً الأهل إلى ضمير العداوة للتأكيد على أنه لا يرمى إلا من لازم العداوة ، وارتبط بها ، وصار أهلا لها . والضمير فى (فيهم) يرجع إلى رهط النبى ، وأكد المعنى بإن واللام فى الشطر الثانى من البيت .

وقوله فى (البيت الثانى) عشر ترى الجور عدلا استفهام محذوف الأداة ، والغرض منه التوبيخ لمن هو فى ظل عمياء ، ووصفها بالجونة للإيحاء بشدة الضلال ، والاستفهام للوم فى قوله « أين تذهب » ، وجملة (لا أين) معترضة وهى دعاء بالضلال على المذكور فى البيت ، وهى مكونة من لا النافية للجنس واسمها . والاستفهام للإنكار فى البيت الثالث عشر ودحض الشاعر رأى الخصم بالكتاب والسنة مثلما جمع بين ترى اليقينية وتحسب الظنية للغرض نفسه والاستفهام للإنكار فى صدر البيت . والجملة الفعلية

« يشيرون بالأيدى » خبرية لفظا ومعنى وهى توحى بالاستهانة والتحقير ، وعبر بالظاهر دون الضمير فى قوله « والمشيرون » للتنديد بهم والسخرية منهم ، والأسلوب الخبرى فى البيتين (١٥ ، ١٦) للسخرية أيضاً .

ووصفهم بالخبث والمكر والخداع فى (البيت السابع عشر) ، حتى يجعل رأيهم واهياً وغير ذى قيمة ، وقد استهانوا بحبه لبنى هاشم فقالوا عنه ترابى هواه ورأيه تحقيراً له واستهانة به .

وفى (البيت العشرين) قدم « بخاتمكم » للقصر ،وصرح بالتهمة فى قوله غصبا ، وكرر كلمة الغصب فى البيت ثلاث مرات للتأكيد على أنهم أخذوا ما ليس لهم ، وللتأكيد على حق الهاشميين فى الخلافة .

والألفاظ فى الأبيات (٢١ — ٢٦) مستوحاة من البيئة مثل تركب ، اتضع ، أناخوا ، الأزمة ، ردافا ، يسيموا ، أن يمتروها ، فيحلبوا ، لينتجوها — أفلاءها ، ضباع ، أذؤب ، سائق .

وقوله فى (البيت السابع والعشرين) « ورثناها ، وما ورثتهم » طباق سلبى . وفى (البيت الثامن والعشرين) موازنة بين حق بنى أمية وحق بنى هاشم وفى البيتين (٢٩ ، ٣٠) دلالة على إلمام الشاعر بقبائل العرب المغمور منها والمشهور ، وكان يتابع فى الكوفة أخبار العرب فى بواديهم وحواضرهم عن طريق جدتين له ، فألم بثقافة كبيرة أفاد بها فى موهبته الشعرية ، وأجاد بعد ذلك فى حديثه عن الأنصار ، ثم انبرى لبيان حق ذوى القربى وهم بنو هاشم .

أحسن الكميت فى ختام قصيدته عندما امتدح بنى هاشم ، وأبرزهم فى صورة حسنة ، وجعلهم مستقراً للفضائل والخيرات دون سواهم ،

مستخدما أسلوب القصر للتأكيد على ذلك فى شطرى البيت كما أورد كلمة « أناس » نكرة للتعظيم ، وقد وفق فى استخدام ألفاظه حيث جاءت واضحة بعيدة عن الغرابة والشذوذ ، وتنوعت بين الجزالة والرقة توافقا للمعنى الذى قصده وسعى إليه .

التصوير الخيالى :

لم يعن الكميت فى الهاشمية المذكورة بالصور الخيالية ، بل انصرف — كما سبق أن قلت — إلى شرح قضيته نجاء فنه نتاجا للعقل والعاطفة معاً ، وعمد إلى إيضاح قضية الخلافة ، وإلى شرح نظرية الزيدية فهو مشغول بقضية أو بعدة قضايا محدودة ، يفكر فيها ويسعى لإبراز أدلتها وحججها العقلية أكثر من عنايته بفنون التعبير الكلامى والتصوير الخيالى ، وجاءت بعض الصور لخدمة الموضوع من غير تكلف أو تعسف فى تطلبها .

وقوله فى (البيت الأول) « البيض » كناية عن الحسناوات وقوله : « خير بنى حواء » كناية عن الرسول — ﷺ — وقوله فى (البيت السادس) « البيض » كناية عن الرفعة .

ووضح تأثر الشاعر فى (البيت الثامن) بقوله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » و (خفض الجناح) كناية عن المودة والعطف والرحمة . وفى قوله : « جناحى مودة » استعارة مكنية حيث شبه المودة بطائر ، ثم حذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو « جناحى » وجسم بذلك المودة وجعلها بارزة محسوسة . والشطر الثانى من هذا البيت كناية عن لطف المعاملة التى كان يتلقاها من الهاشميين .

وقوله فى (البيت التاسع) : « وكنت لهم مجنا .. » تشبيه بليغ ، وقوله :

« فى ظل عمياء » استعارة مكنية حيث شبه فيها الضلالة بسحابة سوداء قائمة مشخصا بالاستعارة ما غشيهم من ضلال ، وقوله : « فى ظل عمياء جونة » كناية عن أعداء بنى هاشم .

وفى الأبيات (٢١ — ٢٤) صورة خيالية مستوحاة من البيئة فقد جعل الشاعر الرعية حيوانات كقوله :

بحقكم أمست قريش تقودنا

وبالفذ منها والرديفين تركب

إذا اتضعونا . . . .

أناخوا لأخرى . . . . .

والأزمة تجذب . . . . . .

ردافا علينا . . . .

لم يسيموا رعية . . . . . .

وهمهم أن يمتروها فيحلبوا

لينتجوها . . . . . .

فيفتعلوا أفلاءها ثم يركبوا

وهذه كلها صور جزئية فى استعارات مكنية أو الصورة الأولى استعارة وما يليها ترشيح لها .

وهم يركبون الدواب « الرعية » ويأخذون منها اللبن ثم يعدون الأفلاء ليواصلوا الركوب عليها .

وفى البيت (السابع والعشرين) استعارة مكنية حيث تخيل الخلافة مالا أو عقارا أو شيئاً يورث وجاءت الصور المذكورة بلا تكلف ، لأن الشاعر كان يهمه بيان الحق ووجه الصواب قبل الاعتناء بالصور الخيالية الجذابة .

التعليق العام :

١ — تعد هذه القصيدة نموذجا لأدب الشيعة فى العصر الأموى ، والموضوع سياسى إذ كان الشيعة من طلاب الخلافة فى ذلك الزمن ، ودخلوا فى معارك سياسية مع بنى أمية ، وكان الكميت شاعرا للزيدية وهى إحدى فرقهم المعتدلة وقد عبر عن الاعتدال فى هذه البائيه وفى غيرها من القصائد التى عرفت باسم « الهاشميات » لأنها فى مديح بنى هاشم أجداد الرسول ﷺ .

وتعد هذه القصائد نزعة عقلية جديدة لم تكن معروفة قبل الكميت إذ لم يظهر شاعر أخلص لقضية ، ودافع عنها ، وتحمس لها بل وشغل نفسه بها ، وجعل لها مجموعة من القصائد سميت باسم هذه الدعوة مثلما فعل هذا الشاعر .

والكميت فى هذه الأشعار (الدينية والسياسية) يمازج بين الفكر والشعور أو بين العقل والعاطفة معتمدا ما أمكن على منهج الإقناع العقلى فى تقرير الحقوق ، والقصيدة لها هدف محدد وتعبر عن نظرية معينة ، والروح العقلية ظاهرة متجسدة .

٢ — نلاحظ أن مطلع القصيدة لا يبدأ ببكاء الاطلال أو بالوقوف على الديار اتباعا لمنهج الشعراء والتزاما بعاداتهم التقليدية الموروثة ، وإنما تبدأ كغيرها من الهاشميات بحب أهل البيت ، والتشوق لهم — وهو لا يمدحهم لذواتهم وإنما لقرابتهم من الرسول (ﷺ) .

٣ — الأفكار العامة ترجع إلى أصلين أما الأول فهو مدح بنى هاشم ووصف أخلاقهم وتقرير حقهم فى الخلافة ، وأما الثانى فيدور حول هجاء بنى امية ورميهم بالظلم والاستبداد .

والأفكار واضحة لا غموض فيها ... فأهل البيت أصحاب حق منهوب وقد عجب الكميت من تمسك الأمويين بالخلافة ومطالبتهم لها وراثة عن طريق عثمان؛ فكيف يتأتى لهم ذلك وينكرونها عن طريق الرسول — ﷺ — كيف يقولون : « ورثناها أبانا وأمنا » . ويقولون عن الرسول لم يورث، كيف يقع منهم هذا التناقض؟ فإما أن تكون الخلافة بالوراثة أولا تكون ، فإذا كانت بالوراثة فبنو هاشم أحق بها ، وإن لم تكن فلكل القبائل أن تشترك فيها ، وتطالب بها .

وتفنن فى وصف أخلاق الهاشميين فقال :

أناس بهم عزت قريش فأصبحوا
وفيهم خبـــاء المكرمات المطنب

٤ — ظهرت رقة الشاعر فى هذه البائية التى تفيض أسى وحسرة ، وبلغ بحبه وحنينه لبنى هاشم أقصى غايات التصوف ، وبدا فى أبيات المدح عذب المودة لطيف الجانب، وظهر فى شعر الهجاء غاضبا ساخطاً برما ببنى أمية لجورهم وعسفهم .

قـال :

بـأى كتاب أم بـأية سنة
ترى حبهم عارا على وتحسب؟

وهو لا يمدح للتكسب أو طلبا للشهرة أو سعيا لغرض دنيوى ، ولهذا جاءت الأبيات صادقة معبرة عن العقل والعاطفة معا .

والصور الخيالية قليلة لاعتماده فى التأثير على العقل والمنطق أكثر من اعتماده على الخيال والعاطفة ، والصور التى استعان بها منتزعة من البيئة العربية القديمة ، ومن القرآن الكريم كالتشبيه فى قوله : « كنت لهم مجنا »

والكناية عن الشرف بالبياض ، وعن التواضع بخفض الجناح ، والصور التى جاءت فى النص على قلتها تهدف إلى توضيح الأفكار وجلاء المعانى . وتمكن الشاعر لطول نفسه الشعرى واتساع موهبته ومن خلال بحر الطويل أن يطوع الموسيقى لخدمة الحقائق التى أراد تقريرها والمطالبة بها .

• — أسلوب الكميت جزل وفخم وبه قوة ووضوح وفيه أيضا رقة ونعومة أحيانا ، وقد اهتدى بألفاظ القرآن الكريم واعتمد فى إيضاح المعانى على تنويع العبارة وتلوينها خبريا وإنشائيا — وبدت فيها النبرة الخطابية عند الحديث عن حقوق بنى هاشم وظهر فى الأبيات تأثره بالقرآن وبالفكر الإسلامى وبالثقافة الشعرية .

وطوع الأسلوب ، وجعل الشعر قابلا لفن الحجاج كقوله :

يقولون لم يورث ولولا تراثه
لقد شركت فيه بكيل وأرحب

وبهذا جمع أسلوبه بين الثورة والرقة، الثورة حين يغضب على الخصوم ويجالدهم ، والرقة عندما يبكى آلام العلويين .

ولقد لقى شعر الكميت رواجا كثيرا بين الشيعة، وحفظه معظم الزيدية، وكان بنو أسد يعدون هذا الشاعر من أهم مفاخرهم ، ولا زال شعره يتردد على الألسنة ويتدارسه الناس فى محافل الأدب ودور العلم والثقافة .

من شعر النقائض

النقائض في اللغة هو الهدم «للبناء» «والحل» للحبل والمراد بالنقائض عند الأدباء تلك القصائد التى تدور بين شاعرين أو أكثر حول الفخر والهجاء على أن يلتزم الشاعر الثانى بنقض ما قاله الشاعر الأول «خصمه» بقصيدة من نفس البحر والوزن والقافية .

وتدور النقيضة حول التفاخر بالأحساب والأنساب وبالأيام الدامية التى دارت بين القبائل والأحزاب . ثم يتخلص الشاعر إلى هجاء خصومه وأعدائه ، أو يرد على ما رمى به من عيوب ونقائص . وكان الأخطل وجرير والفرزدق رواد هذا الفن فى العصر الأموى ، وهم فى طبقة واحدة ، ولا يذكر واحد منهم إلا ويذكر معه زميلاه .

ولقد ازدهر هذا الفن فى عصر بنى أمية لأسباب كثيرة منها :

١ — كان بنو أمية يريدون شغل الناس عنهم ، وصرفهم إلى المحاورات والمناقشات فى سوق المربد بالبصرة أو فى المساجد والمجالس والطرقات .

٢ — كان مجتمع العراق مجتمعا يموج بتيارات من السياسة الحزبية والعصبية القبلية فوجد هذا المجتمع — بما فيه من خصائص — فى النقائض وسيلة لإحياء ماضيهم ، والتفاخر بحاضرهم .

١ — وجد الشعراء فى النقائض وسيلة أو حرفة يتكسبون بها ويجنون من ورائها الأموال ، ولذلك كانوا يهتمون بها ويحرصون فيها على الإجادة والإبداع ، وكانوا يتخذونها كمناظرات أدبية يتسابقون فيها وينهضون لها بما لديهم من عوامل ومقومات .

٤ — كانت معارك النقائض يراد بها أحيانا اللهو والتسلية أكثر مما يقصد منها إلى السباب والتخاصم ، وما روى من أخبار شعراء النقائض يدل على أنهم كانوا فى أغلب الأحوال متحابين متصافين ، وقد دخل فى

صراع النقائض شعراء كثيرون . ولم يثبت منهم إلا جرير والأخطل والفرزدق .

١ — نقائض جرير والأخطل

كان جرير شاعرا لقيس وفى صف الزبيريين فتعرض له الأخطل يهجوه ويهجو قبيلة قيس . وكان جرير ينقض عليه كالصقر الجارح ، فيفضحه ، ويضع تحت عينيه مخازى تغلب وهزائمها من قيس . واشتدت المعركة بين الرجلين عند تفضيل الأخطل للفرزدق على جرير .

روى ابن سلام فى كتابه «طبقات فحول الشعراء» أن الفرزدق والأخطل وجريرا اجتمعوا عند بشر بن مروان ، وكان يغرى بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير ، فقال : اعفنى أيها الأمير ، فقال احكم بينهما ، فاستعفى بجهده فأبى إلا أن يقول ، فقال : هذا حكم مشؤوم ، الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر ، فلم يرض بذلك جرير ، وكان سبب الهجاء بينهما فقال جرير :

ياذا العباءة إن بشرا قد قضى
أن لا تجوزَ حكومة النشوان

فدعوا الحكومة لستمُ من أهلها
إن الحكومةَ فى بنى شيبانِ[1]

ثم استطار فى الهجاء .

وقال الأخطل يفضل الفرزدق على جرير :

(١) شرح ديوان الأخطل لإيليا الحاوى ص ٦٧٩ طبع دار الكتاب اللبنانى ويقصد بذى العباءة : الأخطل .

في دارم تاجُ الملوك وصهرها أيام يربوع مع الرعيان[١]

سبقوا أباك بكل مجمع تلعة بالمجد عند مواقف الركبان[٢]

وقد كانت قصيدة الأخطل « خف القطين » أروع نقائضه مع جرير وهي قصيدة طويلة في مدح عبد الملك بن مروان [٣] . ورد عليها جرير بنقيضة لها في أربعة وستين بيتا يقول مطلعها :

قل للديار : سقى أطلالكَ المطرُ
قد هجتِ شوقا وماذا تنفعُ الذكرُ[٤]

وفيها يقول :

خابت بنو تغلبٍ إذا ضل فارطُهم
حوضَ المكارم ، إن المجد مُبتدرُ[٥]

الطاعنون على العمياء ، إن طعنوا
والسائلون بظهر الغيب : ما الخبر ؟

---

(١) دارم رهط الفرزدق ، ويريد الأخطل تفضيله على جرير بهذا الشعر . الرعيان : جمع راع : من يقوم على الماشية يخدمها .

(٢) التلعة: ماعلا من الأرض،عندمواقف الركبان:أىعند المفاخرة والتحاكم (شرح الديوان ص ٣٩٥) .

(٣) سبق التعرض لها بالشرح والتحليل .

(٤) بالديوان ص٣٠٨ طبعة دار الكتاب اللبناني شرح إيليا الحاوى

(٥) فارط القوم : الذى يتقدمهم إلى الماء أو الكلا : مبتدر : متسابق اليه .

الآكلون خبيثَ الزاد وحدَهم
والنازلون إذا واراهم الخَمَرُ(١)

إلى أن يقول :

نسوانُ تغلبَ لا حِلم ولا حسبٌ
ولا جمـــال ولا دين وإلا خفر

ما كان يَرضى رسولُ الله دينَهم
والطيبان أبو بكر ولا عمر(٢)

جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا
وهل يضيرُ رسولَ الله إن كفروا؟

وظل جرير والأخطل ينظمان نقائضهما منذ سنة ٧٣ هـ إلى أن توفى الأخطل فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وقد جمع أبو تمام هذه النقائض فى ديوان مستقل بها .

٢ — نقائض جرير والفرزدق

نشأت الخصومة بين الفرزدق وجرير فى مرحلة متقدمة من عمريهما، لأسباب كثيرة ، قد يكون منها أو أهمها موقف ابن الزبير من زوج الفرزدق «النوار» وسوف يأتى الحديث عنها — ودخل الفرزدق فى عداء مع ابن الزبير ، ومع قبيلة قيس التى تناصره ، وكان جرير شاعر قيس على حساب قبيلته تميم ومن هنا اختلفت الأهواء بين الشاعرين الكبيرين ، ويروى الرواة سببا آخر لنشأة الخصومة بينهما فيذكرون أن خصومة

(١) الخمر : بفتح الخاء والميم المكان الذى تظلله الأشجار فلا يبدو المقيم فيه للعيان .

(٢) يقول : إن الرسول وأبا بكر وعمر أنكروا عليهم دينهم .

نشبت بين جرير وشاعر اسمه «غسان» من سليط أحد خصوم بنى يربوع ودخل بينهما شاعر من مجاشع قوم الفرزدق يسمى «البَعيث» وقد تفوق جرير عليه فهب بنو مجاشع إلى الفرزدق وطلبوا منه الاشتراك فى الخصومة والرد على جرير، وكان قد قيد نفسه لحفظ القرآن الكريم، واعتزم أن يهجر الشعر، فأظهر شيئا من التردد ثم زحف إلى المعركة، واستمر رافعا فيها سلاحه حتى وفاته.

وكان أكثر المشاركين فى هذا الفن يقفون إلى جوار الفرزدق، لأنه كان فعلا متفوقا من حيث المنزلة القبلية، والمكانة الاجتماعية، وكان العرب آنذاك لازالوا على اتصال وثيق بما توارثوه عن آبائهم وجدودهم الجاهليين.

وممن وقفوا إلى جانب الفرزدق الشاعر الراعى النميرى القيسى الذى قال:

يا صاحِبىَّ دنا الرواحُ فسيرا
غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا

وتألم جرير لذلك وغاظه أن يقف الراعى إلى صف الفرزدق، فهجا الاثنين فى بائيته المشهورة التى تسمى بالقصيدة «الدامغة» أو الدماغة وأولها[1] :

أقِلىِّ اللوم عاذل والعتابا
وقولى، إن أصبتُ لقد أصابا[2]

---

(١) الديوان ص ٨٩

(٢) يخاطب عازلته التى تلومه ويدعوها إلى أن تقصر عنه، وتكف عن معاتبته، وتقر بصواب مايقوله.

وفيها بيت مشهور يتوجه به إلى الراعى قائلا :

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وكان الناس يتحلقون حول الشاعرين ، لكن الذين يلتفون حول الفرزدق كانوا أكثر بكثير ممن يلتفون حول جرير ، وظل هذان الشاعران الكبيران يتهاجيان من خلال نقائضهما ما يقرب من نصف قرن . وجمعت النقائض فى ديوان خاص مثلما جمعت النقائض الأولى لكن هذه كانت أكثر أهمية وأقوى فنا وأعظم أثرا ، وأوسع زمنا .

وكان الفرزدق كثير الفخر بقومه ، يقول لجرير :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع[1]

ذكر ياقوت عما يروى عن محمد بن سلام الجمحى قوله « سمعت يونس بن حبيب يقول : ما شهدت مشهدا قط ، ذكر فيه جرير والفرزدق ، وأجمع أهل المجلس على أحدهما ، وكان يونس يقدم الفرزدق ويقول « ما كان بالبصرة مولد مثله »[2] .

وبرع الفرزدق فى الفخر ، بينما برز جرير فى الهجاء كما تفوق الأخطل فى المديح .

وشهد الأخطل لجرير بسيرورة الشعر فيذكر للفرزدق فيما يرويه

---

(١) ديوان الفرزدق حـ ١ ص ٧ طبعة دار صادر ، بيروت سنة ١٩٦٦م .

(٢) معجم الأدباء حـ ١٩ ص ٢٩٨ .

صاحب الأغانى حيث قال له : والله إنك وإياى لأشعر منه ولكنه أوتى من سير الشعر ما لم نؤته ، قلت أنا بيتا ما أعلم أن أحد قال أهجى منه ، قلت :

قوم إذا استنبح الأضيافُ كلبهمُ
قالوا لأمهمُ بولى على النار

فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر وقال هو :

والتغلبى إذا تنحنح للقرى حك إسته وتمثل الأمثالا

فلم تبق سقاة ولا أمثالها إلا رووه فقضينا له أنه أسير شعرا منها »[1]

وسوف نعرض هنا لقصيدتين الأولى للفرزدق ، وعدد أبياتها سبعة وسبعون ، والثانية لجرير وهى التى نقض بها قصيدة الفرزدق ، وعدد أبياتها كما وردت فى الديوان ستون بيتا ، وسوف أختار من كل واحدة منها ستة وعشرين بيتا ، للتعبير عما فيهما من أفكار جزئية ، وعلى أن تتقارب الأفكار فيما نختاره من القصيدتين .

فى الفخر والهجاء للفرزدق

التعريف بالفرزدق :

هو همام بن غالب بن صعصعة من دارم من تميم[2] ويكنى بأبى فراس وهى من كنى الأسد ، ولقب بالفرزدق لغلاظة وجهه ، وتجهمه وقصره والفرزدق قطعة العجين أو الرغيف الضخم أو غير ذلك .

---

(١) الأغانى حـ ٨ ص ٢١٨ .

(٢) راجع سلسلة نسبة (إن أردت) بمعجم الأدباء لياقوت الحموى حـ ١٩ ص ٢٩٧ وبكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة حـ ١ ص ٤٧٨ وبغيرهما من كتب القدماء .

وكانت قبيلة تميم تشغل الجزء الأكبر من شرقى الجزيرة، وتمتد فروعها من البحرين واليمامة جنوبا إلى شواطىء نهر الفرات شمالا ، وهى أقرب إلى أن تكون عدة قبائل فى قبيلة واحدة ، ومن فروعها بنو مجاشع قوم الفرزدق ، وكليب بن يربوع قوم جرير ودخلت تميم فى الإسلام بعد فتح مكة ، وشاركت فى حروب الفرس والروم ، ولهـــذا يقول الفرزدق :

فتحنا بإذن الله كل مدينة
من الهند أو باب من الروم مُغلق[1]

ولد الفرزدق بالبصرة فى تاريخ غير محقق ، وقيل إنه ولد سنة عشرين من الهجرة ، ويحتاط البعض فيذكر أنه ولد فى آخر خلافة عمر . أو فى أول خلافة عثمان دون الجزم بسنة معينة .

وكان جده صعصعة وجيها فى قومه ويعرف بمحيى الموءودات ، فقد اشترى أكثر من أربعمائة موءودة ،وأنقذها من الموت المحتم فى الجاهلية إلى أن جاء الله عز وجل بالإسلام ، وأتى رسول الله — ﷺ ، وأعلن إسلامه .

وكان أبوه غالب على مثال جده رئيسا فى قومه .ومن أصحاب الشرف فى الإسلام . وأم أبيه ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس المشهور بالشجاعة والجود .

وأم الفرزدق من ضبة وتسمى « لينة » وهى أخت الشاعر العلاء بن قرظة الضبى ، وكان الفرزدق يقول : إنما أتانى الشعر من قبل خالى ، وخالى الذى يقول :

---

(١) الديوان حـ ٢ ص ٣٨

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناس
حوادثه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا
سيلقى الشامتون كما لقينا[1]

ولهذا كان الفخر عند الفرزدق مقسما بين آبائه وأخواله ، فهو يتلفع بأردية الشرف من قبلهم جميعا .

نشأ الفرزدق ببادية البصرة وعنى أبوه بتربيته ، وتنشئته نشأة أدبية، ليرث عنه وعن جده السيادة والشرف ، وأخذ يمهد له الطريق إلى الشعر ونطق به صغيراً يافعاً ، ولكنه مال منذ صغره إلى التهتك والبذاءة، وأخذه أبوه غالب إلى الإمام على كرم الله وجهه بعد موقعة الجمل وقال له : إن ابنى هذا يقول الشعر ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً . وأشار عليه بأن يتريث ، وقال له : علمه القرآن ، فأمسك الفرزدق حتى حفظه ، وأفاد من أسلوبه ونظمه ، وتنقل بين القبائل والأحزاب فى العراق وغيرها ، وقضى شطرا من شبابه بالبادية ، فظهر أثر البداوة فى شعره ، وقضى شطرا آخر من حياته فى سكر وفسق وعربدة أليس هو القائل :

وكنت إذا نزلت بدار قوم
رحلت بخزية وتركت عاراً

ويبدو أنه كان شديد الصلة بالطبائع الجاهلية ، لما عرف عنه من فسق وفجور وشرب للخمر فضلا عن تأثره بمجتمع البصرة[2] ، وكان كريما متلافا لما فى يديه من مال ، حريصا على متابعة آبائه وأجداده ، وليس معنى ذلك أنه كان ينسلخ من الإسلام ، بل كان شديد التأثر به فى

(١) الشعر والشعراء حـ١ ص ٤٨٥

(٢) نذكر ذلك ونؤكد أن الحياة فى الجاهلية ثم فى البصرة لم تكن كلها فسق وفجور وخمر .

حالات كثيرة فقد عاش مع خلفاء بنى أمية وأمرائها،ومدحهم فى قصائد رائعة وكان ينصرف عنهم فى أحيان كثيرة ، ويهجو بعضهم ، ويتجه إلى العلويين بالمدح ، ويقال إنه كان يخفى تشيعه لآل علـــى ، وله قصيدة رائعة وجريئة فى مدح زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب(١) .

يقول فيها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه ، والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة ، إن كنت جاهله
بجـــده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا ؟ بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم(٢)

وتزوج الفرزدق بزوجات كثيرات ، ومن الصعب حصرهن ، لأن التفريق بين التى بنى بها بناء شرعيا ، وبين غيرها صعب جدا

---

(١) فى مناسبة هذه القصيدة قصة عظيمة بين الفرزدق والخليفة هشام بن عبد الملك ، وسجن الفرزدق بسببها .

(٢) أنكر أبو الفرج نسبة هذه القصيدة للفرزدق ، ولكن ارتباطها بأحداث مشهورة فى حياة الفرزدق يجعل رأى أبى الفرج واهيا ضعيفا .

ومن زوجاته «النوّار» ابنة عمه وتزوجها خُدعة ، إذ أن رجلا من بنى دارم قد خطبها ورضيت به ، وأرسلت إلى الفرزدق بصفته أحد أبناء عمومتها «وأهلها بالشام» ليكون وليها فى عقد النكاح وأخذ منها الولاية علنا ، وقال للشهود : «قد أشهدتكم أنها قد جعلت أمرها إلى وإنى أشهدكم أنى قد تزوجتها ...»[١] ، وهربت منه إلى خوله بنت منظور امرأة عبد الله بن الزبير بالمدينة ، وسألتها الشفاعة لها ، ولحق الفرزدق بها ، ونزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير بالمدينة ، وتكلم الشفيعان مع ابن الزبير فنجحت خولة ، وخاب حمزة ، وأمر ابن الزبير أن لا يقربها حتى يصير إلى البصرة فيحتكما إلى عامله هناك ، وقال الفرزدق فى ذلك :

أما بنوه فلم تُقبل شفاعتهم
وشفعت بنت منظور بن زبّانا
ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا
مثلَ الشفيع الذى يأتيك عُرْيَانا

وعاشت معه ترضى عنه حينا ، وتخاصمه أحيانا ، لسوء عشرته ، ومكثت زمانا لا يولد له فعيرته بذلك ، وقد ولد له فيما بعد منها (لبَطة وسبَطة وخبَطة وركضَة من النوار) وقيل منها أيضا زممة وهم من البنين والبنات ، وقيل من بناته أيضا كاحة وجلطة[٢] .

وماتت النوار وهى مطلقة منه وقد صلى عليها الحسن البصرى رحمه الله .

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٨٣
(٢) راجع الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٨٠

وعاش الفرزدق حتى قارب المائة وأصابته « الدّبيلة » (١) فجيء له برجل متطبب فأشار بأن يكوى ويسقى النفط الأبيض فقال : أتعجلون لى طعام أهل النار فى الدنيا ؟ وقيل له فى مرضه الأخير : اذكر الله ، فسكت طويلا ثم قال :

إلى من تفزعون إذا حثوتم
بأيديكم علىّ من التراب

ومن هذا يقوم لكم مقامى
إذا ما الريقُ غصّ عن الشراب ؟

فقالت مولاة له : نفزع إلى الله ، فقال : أخرجوا هذه من الوصية ، وكان قد أوصى لها بمائة درهم . ومات فى مرضه ذلك سنة عشر ومائة وقيل سنة أربع عشرة ومائة . ومات جرير بعده بستة أشهر ، ولما نعى الفرزدق إليه بكاه ثم أنشأ يقول :

فجعنا بحمّال الدّيات ابن غالب
وحامى تميم كلها والبراجم (٢)

بكيناك حدثانَ الفراق ، وإنما
بكيناك شجواً للأمور العظائم (٣)

فلا حملت بعد ابن ليلى مهيرةٌ
ولا شدّ أنساعُ المطى الرواسم (٤)

---

(١) الدبيلة : داء فى الجوف أو خراج فى الجسم .
(٢) البراجم : قوم من بنى تميم .
(٣) الشجوة الهم والحزن .
(٤) المهيرة من النساء : الحرة الغالية المهر ، وأنساع ، جمع =

وله فى رثائه أشعار أخرى كثيرة .

فنون شعره .

كان الفرزدق من فحول الشعراء فى العصر الأموى ، وهو ثالث الثلاثة المقدمين وهم الأخطل والفرزدق وجرير ، ولكل منهما ميزة فى شعره ، وتميز الفرزدق بالفخر فكان أضخم صوت لتميم فى هذا العصر . ويمتاز شعره بخشونة الألفاظ ووعورة المعانى ، والميل إلى الفخر فى هجائه ، والفحش فى غزله . وفى شعره كثير من أساليب العرب وألفاظهم حتى قالوا : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب » وكان أبو عمرو بن العلاء يشبهه بزهير بن أبى سلمى .

ولقد نبغ فى الفخر لما لقبيلته من شرف ومجد فى الجاهلية والإسلام ، ولهذا كان يكثر من تعداد أسماء أجداده وأخواله ، ولا يمل تكرارها فى كل قصيدة ، بل كان يفتخر بقبيلته فى محضر الخلفاء من بنى أمية مع أن هذا كان يغضبهم كثيرا ، قال :

أما الملوك فإنا لا نلين لهم
حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

كما برز فى الهجاء ، وكانت نقائضه مقسمة بين الفخر والهجاء :

— نسع : سير أو حبل عريض تشد به الرحال ، المطى : جمع مطية ، الرواسم : الإبل السائرة ، رسيما : أى مؤثرة فى الأرض .

« الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٨٩ » .

وتوجه بمعظم هجائه إلى معاصره جرير . ومن يطالع شعره فسوف يجد أكثر ألفاظه غاية في الفحش والسوء . ولم يثبت له من الشعراء إلا جرير على مابه من عفة وأدب بالقياس إليه ، فالفرزدق زعيم فى الفخر ، متقدم على أقرانه فى النقائض . وكان لا يعف عن تناول النساء بالمسبة والإقذاع ، ولعل هذا ما جعل امرأة كلابية تعوذ بقبر أبيه ، حتى لايذكرها بسوء فى شعره فقال :

عجوز تصلى الخمس عاذت بغالب
فلا والذى عاذت به لا أضيرها

وكان يمدح خلفاء بنى أمية وأمراءهم ليتقى شرهم ، ولينال العطاء منهم ، ومدح الحجاج بقوله :

إن ابن يوسف محمود خلائقه
سيان معروفه فى الناس والمطرُ
هو الشهاب الذى يُرمى العدو به
والمشرفى الذى تعصى بـه مضر

إلى غير ذلك من فنون الشعر المختلفة ، كالوصف والرثاء والغزل ، ولكنه لم يرق فيها إلى مستوى شعره فى الفخر والهجاء .

الأبيات المختارة :

قال الفرزدق *

١ — إن الذى سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول

٢ — بيتا بناه لنا المليك ومابنى
حكم السماء ، فإنه لا ينقل

٣ — بيتا ، زرارة محتب بفنائه
ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

٤ — يلجون بيت مجاشع، وإذا احتبوا
برزوا كأنهم الجبال المثل

٥ — لايحتبى بفناء بيتك مثلهم
أبدا إذا عد الفعال الأفضل

---

* الديوان ج ٢ ص ١٥٥

(١) سمك: رفع ، الدعائم : جمع دعامة وهى عمود البيت ، أعز:أقوى

(٢) المليك : الله جل جلاله ، حكم السماء : القوى المقتدر ، لاينقل لايزول ولا يتحول يريد : بيت عز وشرف .

(٣) زرارة ومجاشع ونهشل أولاد دارم جد عشيرة الفرزق يفتخر بهم على جرير .

(٤) يلجون : يدخلون ، احتبوا : أشتملوا بالثوب :المثل الراسيات، جمع ماثل يشبههم بالجبال الراسية .

(٥) فناء البيت : الساحة أمامه ، الفعال : الفعل الحسن ، والخطاب لجرير .

٦ — ضربت عليك العنكبوت بنسجها
وَقضى عليك به الكتابُ المنزل

٧ — أين الذين بهم تُسامى دارما ؟
أم من إلى سَلفَىْ طُهَيَّة تُجعَل

٨ — يمشون في حلق الحديد كما مشت
جُرب الجمال بها الكُحيل المُشعَل

٩ — والمانعون — إذا النساء ترادفت
حذر السِّباء — جمالها لا ترحل

١٠ — وإذا دعوت بنى فُقَيم جاءنى
مَجرٌ له العدد الذى لا يُعدل

---

(٦) الشطر الثانى إشارة إلى الآية الكريمة «وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت» .

(٧) تسامى : تطاول وتفاخر ، دارم : قوم الفرزدق ، طهية : أم جماعة من قوم الفرزدق يفتخر بهم على جرير ، تجعل هنا معناها تقرن بهم وتباهى .

(٨) الحلق : جمع حلقة وهى الدرع ، جرب الجمال . الجمال المصابة بداء الجرب ، الكحيل ، القطران ، المشعل : الكثير المنتشر .

(٩) المانعون : الحامون ، ترادفت : ركبت بعضهن خلف بعض ، السباء: الأسر فى الغارات . لاترحل ؛ لاتوضع عليها الرحال .

(١٠) بنو فقيم : بطن من قبيلة دارم عشيرة الشاعر ، المجر: الجيش الكثير العدد ، لا يعدل : ليس له نظير .

١١ — وإذا بذخت ورايتى يمشى بها

سفيانُ أو عُـدُس الفعال وَجندل

١٢ — الأكثرون إذا يُعد حصاهم

والأكرمون إذا يُعـد الأول

١٣ — إن الزحام لغيركم فتحينوا

وِرد العشى ، إليه يخـلو المنهل

١٤ — حُلل الملوك لباسُنا فى أهلنا

والسابغاتُ إلى الوغى نتسربل

١٥ — أحلامنا تزن الجبال رزانه

وتخالنا جنّـا إذا ما نجهل

١٦ — فادفع بكفك إن أردت بناءنا

ثهلانَ ذا الهضبات هـل يتحلل ؟

---

(١١) بذخت : فخرت فى كبر ، والأسماء المذكورة فى البيت من قوم الفرزدق .

(١٢) حصاهم : عددهم ، الأول : يعنى الآباء والأجداد أو من المساعى والأفعال .

(١٣) وردا لعشى ، ورود الماء ليلا

(١٤) الحلة : إزار ورداء . السابغات : الدروع ، الوغى : الحرب نتسربل . نتقمص أى نلبس السربال وهو القميص أو الدرع.

(١٥) الأحلام : العقول . تزن الجبال : تساويها وتعادلها . رزانة : وقارا ، نجهل : نغضب .

(١٦) ثهلان : جبل عظيم بنجد : والهضبات : جمع هضبة وهى القمة العالية ، هل يتحلل ؟ هل يزول ويتحرك ؟

١٧ — وأنا ابن حنظلة الأغرّ وإننى
في آل ضبة للمُعَمّ المُخْوَلِ

١٨ — فرعانِ قد بلغ السماء ذُراهما
وإليهما من كل خوف يُعقل

١٩ — فإن فخرتُ بهم لمثل قديمهم
أعلو الحزون به ولا أتسهل

٢٠ — زيدُ الفوارس، وابنُ زيد منهم
وأبو قبيصة ، والرئيس الأولُ

٢١ — من يكونُ بنو كليب رهطه
أو من يكون إليهم يتخول

٢٢ — يابنُ المراغة ! أين خالك ؟ إننى
خالى حُبيشٌ ذو الفعال الأفضل

---

(١٧) حنظلة : هو ابن مالك بن زيد من رهط الشاعر ، وأمه من ضبة، الأغر : المشهور بالعز والشرف ، المعم المخول : الكريم الأعمام والأخوال .

(١٨) الذرى : جمع ذروة وهى من كل شيء أعلاه ، يعقل : يلجأ

(١٩) الحزون : جمع حَزْن وهو ماغلظ من الأرض وضده السهل .

(٢٠) زيد الفوارس هو زيد بن حصين سمى بذلك لأنه والى بين سبعة فوارس فى ثأر أبيه حصين : وابنه هو الحصين بن زيد : وأبو قبيصة خوار بن عمرو ومنهم أيضا ، والرئيس الأول هو محلم بن سويط من سعد بن ضبة .

(٢١) بنو كليب : رهط جرير ، يتخول : يدعيهم أخوالا من الخؤولة

(٢٢) ابن المراغة : جرير ، حبيش : من بنى ضبة وكان قد أسر =

٢٣ — خالى الذى غصَبَ الملوك نفوسهم
وإليه كان حِباءُ جفنة يُنقل

٢٤ — إنا لنضرب رأس كل قبيلة
وأبوك خلف أتانه يتقمّل

٢٥ — وشُغلت عن حسب الكرام وما بنوا
إن اللئيم عن المكارم يُشغل

٢٦ — إن التى فُقئت بها أبصاركم
وهى التى دمغت أباك الفيصلُ

= عمر بن الحارث الغسانى ، وجزّ ناصيته واشترط عليه أن يبعث إليه كل سنه إتاوة حتى يموت .

(٢٣) الحباء : العطية ، والمراد به الضريبة ، جفنة هـو من آباء الغساسنة وإليه ينسبون ، ويسمون آل جفنة ملوك الشام فى الجاهلية .

(٢٤) الرأس : الرئيس . الأتان : الحمارة ، يتقمل يكثر فيه القمل .

(٢٥) اللئيم . الدنى الأصل أو البخيل .

(٢٦) نقأ العين : كسرها أو قلعها أو شقها . دمغ رأسه : ضربه حتى وصلت الضربة إلى دماغه . الفيصل : مقطع الحق فيما بيننا وبينكم ، ويقول : إن هذه القصيدة كانت تسمى الفيصل .

مضمون الأبيات :

بدأ الفرزدق القصيدة بالفخر بآبائه الذين أسسوا بيتاً من العزة والمجد أقوى وأفضـــل من بيت جرير ، وأذن الله ببنائه فهو بيت عز وشرف ، وما بناه الله لا يتحول أو يتغير .

وذكر أجداده الذين يشبهون الجبال الرواسى ، وينكر أن يكون فى بيت جرير رجال أشراف أنداد كهؤلاء ، ويصف بيت جرير بالوهن والضعف والذل فهو كبيت العنكبوت ، ويفتخر الفرزدق بآبائه وأجداده ويشير إلى بأسهم فى الحروب ، ويذكر أن قومه يمنعون نساءهم إذا كانت الغارات وفزعت النساء إلى الإبل يركبنها أعراء بلا رحال وينبه إلى كبر القبيلة وبسالتها وعصبيتها ؛ ويشيد بقومه الذين يحملون الراية ويرفعونها عالية خفاقة ، وهم كثرة كثيرة وذو كرم ومروءة .

ثم يرمى جريراً وقبيلته بالضعف والمهانة وينصحهم بألا يتزاحموا على موارد الماء قانعين بما نبقى من فضل غيرهم ، ولن يظفروا به إلا ليلا حيث يخلو لهم المورد بعد أن ينتهى الزحام ، ويذكر الفرزدق أن قبيلته ملوك فى السلم يلبسون فاخر الثياب وفى الحرب أسود تتذرع بالدروع ، وهم قوم عقلاء كالجبال الرواسى ، وفى الحرب خفاف كالجن لا يطيق قتالهم أحد ، ولن يستطيع إنسان أن ينال شيئاً من مجدهم الراسخ إلا بمقدار تحريكه لجبل ثهلان الشامخ ، ويفتخر بأهله من الأقارب والأخوال ، ويذكر فرعين من العمومة والخؤولة هما الحصن الحصين الذى يلجأ إليه الناس عند الخوف والفزع ، ويؤكد أن فخره بهؤلاء الأجداد يعلى من قدره ، ثم يفضل نفسه على جرير نسباً وحسباً وعمومة وخؤولة . ويسأله فى سخرية واستهزاء عن خاله ، لكن خال الفرزدق ذو مجد وشمم ؛ فقد كان ملوك الشام أذلة له ، وتبعاً لأوامره ، ويؤكد أن قبيلته قوية

شجاعه ، إذ أنها تضرب رؤساء القبائل الأخرى بينما قوم جرير ضعاف ورعاع ، وأبوه يسير خلف حمارته وهو قذر وسخ . ويزيد الفرزدق من غضبه على جرير فيصفه بالمكر لأنه انشغل ونسى آل دارم وآل ضبة ، ولذلك استحق منه أن يفقأ أعين قبيلته جميعاً بهذه القصيدة التى تسمى الفيصل لأنها قد أبانت وجه الحق فيما بينهم وكان لهجاء « عطية » والد جرير نصيب كبير فيها .

ملامح التعبير :

تساير الألفاظ والعبارات الجو النفسى لشاعر النص ، وتتمشى مع طبيعة الموضوع وهو الفخر والهجاء ، فجـــاءت الألفاظ جزلة قوية ، والعبارات محـكمة النسج متينة البناء .

وقد بدأها بالفخر ببيت قبيلته حيث العزة والشرف والكرامة ، وأكد ذلك فى مطلع القصيدة بأداة التوكيد (إن) وعبر بقوله « سمك السماء » فى البيت الأول ، و « حـكم السماء » فى البيت الثانى ، ليضفى القوة والمهابة والقدسية على بيت عشيرته . ونـكر « بيتا » لتعظيم شأنه ، وحذف المفضل عليه فى قوله « أعز وأطول » للعموم إذ أن بيت عشيرته أعز وأطول من كل البيوت ، ومن بيت جرير خاصة ، أو أن أفعل التفضيل على غير بابه ، وقوله فى البيت الثالث « محتب » للدلالة على عظمة قومه فى هـذه البيئة البدوية .

والأسلوب خبرى فى الأبيات الثلاثة الأولى وغرضه المدح ، وقوله « لا يحتبى بفناء بيت مثلهم » تأكيد للمعنى السابق فى قوله « محتب » .

واستخدام (لا) النافية مع الفعل المضارع يفيد استمرار النفى ، وأكد هذا المعنى أيضاً بقوله « أبداً » .

واستعان الشاعر فى الأبيات (٤ ، ٥ ، ٦) بالأسلوب الخبرى والغرض منه الهجاء .

والاستفهام فى البيت السابع للتحقير والاستهزاء ، والأسلوب الخبرى فى البيتين (١١ ، ١٢) للفخر .

واستخدام (إن) فى البيت الثالث عشر لتأكيد السخرية بجرير وقومه . وقوله « فتحينوا » أمر غرضه السخرية والاستهزاء ، وهو نصح يقصد منه الهجاء ، ويوحى بالعجز التام لقوم جرير . وقوله « يخلو المنهل » تأكيد لهذا العجز . والأسلوب فى هذا البيت خبرى والغرض منه السخرية ، وفى البيت الخامس عشر مقابلة بين شطريه . وقوله فى البيت السادس عشر « فادفع بكفك » أمر غرضه التعجيز ، والاستفهام فى قوله « هل يتحلل » ؟ للنفى بمعنى أنه لايتحول ولايتحرك ، والأسلوب خبرى للفخر فى البيت السابع عشر ، وفى البيت الذى يليه حذف فى قوله « فرعان » أى هما فرعان أو هذان فرعان .

والنداء فى قوله « أين خالك » ؟ للتحقير والاستهزاء . والأسلوب خبرى غرضه الفخر ، وفى البيت الرابع والعشرين مقابلة بين شطريه ، ومال الشاعر فى الأبيات كلها لاستخدام أساليب التأكيد كقوله فى الأبيات الأخيرة « إنا لنضرب ... » و « كل قبيلة » و « إن اللئيم ... » « إن التى » .

وانتقى الألفاظ الفخمة التى تلائم الفخر مثـــل « محتب ، بذخت ، الأكرون ، الجبال ، رزانة ، الهضبات ، الملوك ... » واستعان فى فخره بذكر عدد كبير من أسماء آبائه وأخواله (راجع الأبيات : الثالث ، والرابع ، والسابع ، والسابع عشر ، والعشرين) .

مظاهر التجسيد :

تشكل الصور الخيالية من كناية وتشبيه واستعارة أهم مظاهر التجسيد في القصيدة ، ومع أن الصور قليلة في الأبيات المختارة لكنها تمتاز بقوة التأثير ، وبأنها منتزعة من البيئة البدوية أو مقتبسة من القرآن الكريم ، ولنرجع إلى الأبيات لمتابعة أهم هذه المظاهر .

يقول الشاعر في البيت الأول « الذي سمك السماء » وهو كناية عن الله سبحانه وتعالى ، وقوله « بيتاً دعائمه أعز وأطول » كناية عن المجد العظيم والشرف الرفيع ، وهي منتزعة من البيئة إذ أن بيت رئيس القبيلة عظيم العماد .

وقوله في البيت الثاني « حكم السماء » كناية عن الله سبحانه وتعالى .

ويشبه الشاعر في البيت الرابع أجداده بالجبال الرواسي والتشبيه منتزع من البيئة الصحراوية .

وفي البيت السادس استعارة تمثيلية ، شبه فيها صورة جرير في ضعفه وعدم قدرته على التحمل بصورة بيت العنكبوت ، والاستعارة توحي بالذلة والمهانة .

وشبه في البيت الثامن رجال قومه في ملابسهم الحديدية ودروعهم السابغة وقت الحرب بالجمال المدهونة بالقطران ، فكلاهما أسود اللون أو أن القطران يهيجها فتنطلق ثائرة .

والصورة في البيتين (١٠ ، ١١) كناية عن اتساع القبيلة وبسالتها وعظمتها .

وقوله في البيت الثالث عشر « إن الزحام لغيركم » كناية عن ضعف

قوم جرير وفيها إيحاء بقوة دارم قبيلة الفرزدق ، وأثر البيئة الصحراوية واضح فى هذا البيت حيث كانوا يتزاحمون على مناهل الماء .

وشبه فى البيت الخامس عشر قومه بالجبال فى الثبات والرزانة ، ثم شبه قومه بالجن عند الغضب ، وهذا التشبيه يوحى بالقدرة والغلبة وقهر الأعداء .

وفى البيت السادس عشر تشبيه ضمنى (أى لا يشتمل على أركان التشبيه المعروفة) ففيه تشبيه لمجد قوم الشاعر بثهلان « وهو جبل بنجد » فى الرفعة والعلو .

وقوله « قد بلغ السماء ذراهما » فى البيت الثامن عشر كناية عن العزة والمجد وفيها مبالغة .

وفى البيت التاسع عشر كناية عن الشجاعة والقوة والبسالة فى قوله « أعلو الحزون ... » .

وقوله فى البيت الرابع والعشرين « .. خلف أتانه يتقمل » كناية عن المستوى الوضيع لوالد جرير وهى صورة ساخرة سافرة .

وقوله فى البيت الأخير « فقئت بها أبصاركم » كناية عن الإفحام ، وقد رأينـــا كيف استعان الشاعر بالأسلوب الكنائى ، وبالتشبيهات المنتزعة من البيئة ، وكان الخيال فى معظم صوره محدداً أو مقيداً لمخاطبة الواقع عن طريق الفخر القبلى . وللخيال وثبات قليلة وقفزات محدودة فى عدد بسيط من الصور ، كتشبيه الرجال بالجبال أو بالجن أو أن بعد دارم قد وصل إلى السماء ، وهذه المبالغات مقبولة ومتلائمة مع طبيعة الفخر والهجاء .

نقيضة جرير فى الرد على الفرزدق

نبذة عن حياة جرير وفنون شعره :

استقرت قبيلة كليب وهى حى من أحياء يربوع من بنى تميم بواد يقال له « المرّوت » من بادية اليمامة ، وهى منطقة « الرياض » الآن .

وفى قرية « أثيفية » بأرض اليمامة ولد جرير بن عطية الخطفى سنة تسع وعشرين من الهجرة[١] وكنيته « أبو حرزة » وحوزة ابنه الأكبر وقيل عنه ابن المراغة ، والمراغة من الأسماء القبيحة للأتان ، وأطلقه أحد الشعراء الذين هجوا جريرا فهو من كليب التى ترعى الغنم ، والجرير الحبل ، لأن أمه رأت كأنها ولدت حبلا أسود يقفز على بعض الناس فيخنقه . وكان جده حذيفة الملقب بالخطفى شاعراً واسع الاطلاع على اللغة وعلى أنساب العرب ومن شعره :

عجبتُ لإزراء العيى بنفسه
وصمت الذى قد كان بالقول أعلما

وفى الصمت ستر « للعى » ، وإنما
صحيفة لب المرء أن يتكلما

وكان أبوه « عطية » هزيلا لا شأن له فى الناس ، قصيرا ، أفحج فقيرا . وأم جرير هى أم قيس بنت معبد من بنى كليب بن يربوع ، فأبوه وأمه كانا ابنى عم ، وكان لخاله شهرة كبيرة فى الحمق والغفلة ، فالأصل

---

(١) وقيل سنة ثلاث وثلاثين ، ويمسك بعض المؤرخين عن ذكر تاريخ ولادته ويكتفون بقولهم : إنه ولد فى خلافة عثمان أو بين عامى ٣٠ ، ٣٥ من الهجرة .

الدانى لجرير كان وضيعا ، وكان هو الآخر مثل أبيه دميا قصيرا ، نحيفا ، واهيا فى جسده، إذ أن أمه ولدته لسبعة أشهر ولم يكن أهل البادية فى ذلك الوقت يهتمون بمن يولدون قبل أوانهم وفيه غنة أى أنه يخرج كلامه من أنفه ، وكأن كلامه فيه أبدا نون .

وكانت قبيلته تشتغل برعى الغنم والحمير فى قرى اليمامة بالجنوب الشرقى من نجد ، وشب جرير بدويا فقيرا يرعى الغنم لأبيه ، ونطق بالشعر صبيا ولم يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، وكان يسمع بأخبار البصرة وتصله أشعارها وهو مقيم بالبادية ومتطبع بطباعها فى جوار إخوته عمرو وأبى الورد . وقد تزوج بأكثر من واحدة إحداهن من الرى وهى أم حكيم والتى يقول فيها :

إذا عرضوا عشرين ألفا تعرضت
لأم حكيم حاجةٌ هى ما هيا
لقد زدتِ أهلَ الرى عندى مودة
وحببتِ أضعافا إلىّ المواليا [1]

وأم حكيم هى التى وهبها له الحجاج بن يوسف بمدحه إياه ، وتسمى « أمامة » وولدت له بلالا وضمرة، وكانت أمة وأخواتها أحرارا وقاضوه عنها عشرين ألفا ولم يقبل بتحريرها ، وهى أعجمية وذات لكنة ، ولهذا قال لها جرير « لا تتكلمى إذا كان عندنا رجال » .

ومن زوجاته « سلمى » وخالدة بنت سعد أم حرزة وهى التى أوجعه فراقها فبكاها بقصيدة رثاء مشهورة قال فيها :

لولا الحياءُ لعادنى استعبار
ولزرتُ قبرك والحبيب يزار [2]

---

(١) الديوان (المقدمة) ص ٦ (٢) الديوان ص ٢٣٧

وذكر فى شعره أسماء أخرى لنساء لا ندرى إن كن زوجات له أو أنه ذكرهن لمجرد الغزل مثل : أسماء ، وتماضر ، وهند ، وزينب .

وكانت حياته بين زوجاته أليفة قريرة بينما كانت سيئة مع أولاده . فكانوا يسابونه كما كان هو يساب أباه ، وكان ابنه (بلال) أعق الناس به ، لأن جريرا عاش فقيرا يشكو الفقر لمدوحيه بخيلا لا يعطى إلا من يخاف منه ويخشاه .

ولجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور ومنهم حوزة وعكرمة وسوادة وحكيم ونوح وموسى ، ونشأوا جميعا يجيدون قرض الشعر .

وكان جرير معجبا بابنه سوادة ولما مات بالشام رثاه بأبيات منها :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم من للعرين إذا فارقت أشبالى

لكن سوادة يجلو مقلتى لحم

بازٍ يصرصر فوق المرقب العالى[1]

وقد استمر مقيما بالبادية ، والفرزدق بالعراق وهما يتهاجيان ، ويظهر أن انتقال جرير للبصرة كان مع دخول العراق فى طاعة ابن الزبير (٦٥ — ٦٦ هـ) لأنه ربما مال إلى الزبيريين كمعظم شعراء تميم وقيس .

اتصاله بالخلفاء والأمراء :

كان جرير كأكثر شعراء عصره من طلاب العطاء متعيشا بشعره ، فاتصل بيزيد بن معاوية ، ونال منه جائزة ، ومدح الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقال :

(١) الديوان ص ٥٢١ ، وهو يشبه ابنه بالبازى

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا
ماضى البصيرة واضحُ المنهاج[١]

واتخذ جرير من البصرة مستقرا له يهاجى الفرزدق على أرضها ولكنه كان يطمع في مزيد من العطاء ، فأرسله الحجاج إلى عبد الملك بن مروان ، واستقبله بعد عناء وعاتبه قائلا : « ماذا عسى أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج عاملنا » ،

من سد مُطلع النفاق عليهم
أم من يصول كصولة الحجاج[٢]

إن الله لم ينصرنا بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته ، وظهر الغضب على وجه الخليفة . ثم أنشده جرير قصيدة قال فيها :

إنى قد رأيت على حقا زيارتَى الخليفة وامتداحى
سأشكر إن رددت على ريشى وأثبتّ القوادم فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح[٣]

فتبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن ، وما زلنا كذلك ، ثم أمر له بجائزة كبيرة ، ومدحه بأخرى قال فيها :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه
ما قام للناس أحكام ولا جُمع[٤]

---

(١) الديوان ص ١١١
(٢) المطلع ، المنفذ من أعلى أو الصعد ، والبيت هو أول القصيدة التى منها البيت السابق .
(٣) أندى : أجود ، والقصيدة فى الديوان ص ١٩٧
(٤) الديوان ص ٤٣٤

ومع إعجاب عبد الملك بجرير إلا أنه فضل عليه الأخطل لاعتبارات متعددة منها أن جريرا كان زبيرى الهوى ، وكان الأخطل أكثر إخلاصا لبنى أمية فضلا عمن وراءه من قبيلة تغلب ، وقدمدح جرير من جاء بعد عبد الملك من أخلاف كالوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ولم يكن عمر يعطى الشعراء أعطية لمدحهم إياه.

وكان جرير يزور مكة والمدينة ، ويقال إنه ارتحل إلى مصر لمدح عبد العزيز بن مروان ، وعاد إلى اليمامة فى أواخر أيامه ، استقر بها فى كنف أميرها عبد الله الكلابى . ومدح القيسيين عندما زاروه وسهروا عليه فى مرضه فقال :

نفسى الفـــداء لقوم زينوا حسبى
وإن مرضت فهم أهلى وعوادى[1]

ونيف على الثمانين عاما، ومات باليمامة بعد الفرزدق بعدة أشهر فى سنة مائة وأربع عشرة من الهجرة[2] .

فنون شعره :

كان جرير يعد نفسه للشعر إعدادا خاصا فيطلب النبيذ ، ويحبو على فراشه وهو عريان فى بعض الأحيان . وعرف عنه حبه للتطيب والملابس الفاخرة والطرب ، والمجالسة دون فسق ومجون على عكس الفرزدق .

وبرع فى معظم فنون الشعر كالهجاء والرثاء والمدح والنسيب وكان

---

(١) الديوان ص ١٦٢
(٢) وقيل فى سنة ١١٠ هـ .

الهجاء هو الفن الغالب لديه ، وقد عاش بالبصرة يتهاجى مع الفرزدق ما يقرب من نصف قرن .

ونقل عن الأصمعى أن أربعين شاعرا من شعراء البصرة كانوا يهجونه، وينهشونه ، وقيل : كان يهاجيه ثمانون شاعرا غلبهم جميعا ولم يثبت إلا اثنان الأخطل والفرزدق .

ونقل عنه قوله : « إنهم يبدءوننى ثم لا أعفو ، ومن دخل معه فى الهجاء الفرزدق ، والأخطل ، والراعى النيرى ، والأنور النبهانى ، وغسان السليطى ، والبعيث المجاشعى ، وعمرو بن لجأ التيمى ، وسراقة ابن مرداس ... الخ .

وتعرض راعى الإبل النيرى لجرير بقوله :

يا صاحبىّ دنا الأصيلُ فسيرا
غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا

فلامه جرير على ذلك ، وأنشأ قصيدة فى هجائه هو والفرزدق وأنشـــدها فى المربد بالبصرة ، وهى التى تسمى الدامغة أو الدماغة ومطلعها :

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبتُ لقد أصابا[1]

وهى مليئة بالفحش والسوء ، وزادت أبياتها عن المائة : ومن هجائه الذى يتسم بالعفة قوله :

لو أن تغلب جمّعت أحسابها يوم التفاضل لم تزن مثقالا[2]

(١) الديوان ص ٨٩
(٢) الديوان ص ٥٤٥

وسبقت أبيات له فى المدح والرثاء ، ومن عيون غزله :

إن العيون التى فى طرفها حور
قَتَلْنَنا ثم لم يُحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حِراك به
وهنّ أضعف خلق الله أركانا[١]

ولم يصل فخره إلى مستوى فنون شعره الأخرى ، ومن الأبيات السائرة له فى هذا اللون :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا[٢]

وهو من القصيدة الدامغة المشهورة .

آراء الأقدمين فى شعره :

كان جرير يشبه من شعراء الجاهلية بالأعشى ، واختلف الأقدمون فيه . وفى زميليه الأخطل والفرزدق اختلافا كبيراً لحماد الرواية يعجب بشعر الأخطل ، وابن سلام يعجب بشعر جرير ، وقال يونس « لولا الفرزدق لذهب ثلث اللغة » .

وقال أبو عبيدة « شعراء الإسلام : الأخطل ، فجرير ، فالفرزدق وسوف تتسع دائرة الحديث عن جرير والفرزدق بخاصة عند الموازنة بينهما ، ونكتفى فى هذا الموضوع بما دار بين جرير وابنه عكرمة ، « فقد قال عكرمة لأبيه :

---

(١) الديوان ص ٧٠٢

(٢) الديوان ص ٩٩

يا أبت ، من أشعر الناس ، فقال الجاهلية تريد أم الإسلام ؟ فقال عكرمة : أخبرنى عن الجاهلية ، قال : شاعر الجاهلية زهير ، قال عكرمة: فالإسلام ؟ قال : نبعة الشعر الفرزدق ، قال عكرمة فالأخطل ؟ قال : يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت الخمر ، قال عكرمة ما تركت لنفسك ؟ قال : دعنى فإنى بحرت الشعر بحرا » .

الأبيات المختارة : (٥)

١ — لمن الديارُ كأنها لم تُحلل
بين الكِناس وبين طلح الأعولِ ؟

٢ — ولقد أرى بكِ ،والجديد إلى بِلى
موتَ الهوى ، وشفاءَ عين المجتلي

٣ — يا أمَّ ناجية السلامُ عليكم
قبل الرواح ، وقبل لوم العذّل

٤ — لو كنتُ أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

٥ — أعددت للشعراء سماً ناقعاً
فسقيت آخرهم بكأس الأول

---

(٥) القصيدة فى الديوان ص٥٣٦ طبعة بيروت بشرح إيليا الحاوى.

(١) كأنها لم تحلل : كأنها لم تكن مسكونة من قبل لدروسها .

الكناس : موضع ، طلح : شجر ، الأعول : واد لكليب .

(٢) بلى : فنى وقدم ، المجتلى : من اجتلى أى تحرى عن معالم الأمكنة ، موت الهوى : ذهابه .

(٣) يا أم ناجية : ربما كان المقصود يا آل ناجية ، الرواح : الذهاب عشية ، العذل : اللوم .

(٤) آخر عهدكم : اللقاء الأخير .

(٥) سما ناقعا : هجاء مرا .

٦ — لما وضعت على الفرزدق مِيسَمِى
وضغا البعيثُ جدعت أنف الأخطل

٧ — أخزى الذى سمك السماء مُجاشعا
وبنى بناءك فى الحضيض الأسفل

٨ — ولقد بنيتَ أخس بيت يُبتنى
فهدمت بيتكمُ بمثلىْ يذُبل

٩ — إنى بنى لى فى المكارم أوّلى
ونفخت كيرك فى الزمان الأول

١٠ — أعيتك مأثرةُ القيون مجاشع
فانظر لعلك تدعى من نهشَلِ

١١ — إنى انصببت من السماء عليكم
حتى اختطفتك يافرزدق من علِ

---

(٦) الميسم : المكواة ويريد الشعر . ضغا : تذلل أو صوت وأصلها فى الخنزير ، جدع الأنف : قطعه . البعيث : الشاعر المجاشعى الذى كان أحد الأسباب فى العداوة بين جرير والفرزدق .

(٧) سمك : رفع ، مجاشع : قوم الفرزدق ، الحضيض : أسفل الجبل .

(٨) يذبل : جبل مشهور بنجد يشبه به مجده .

(٩) أولى : آبائى وأجدادى . الكير : ما ينفخ به الحداد موقده .

(١٠) مأثرة : مكرمة . تدعى : تنسب . نهشل ومجاشع أخوان من تميم .

(١١) انصببت : انقضضت . من عل : من أعلى .

١٢ — من بعد صكّيَ البعيثَ كأنه
خَرَبٌ تنفّجَ من حِذار الأجدل

١٣ — ولقد وسمتك يا بعيث بميْسمي
وضغا الفرزدق تحت حد الكلكل

١٤ — إني إلى جبلَيْ تميم معقلي
ومحل بيتي في اليفاع الأطول

١٥ — أحلامُنا تزن الجبال رزانة
ويفوق جاهلنا فعال الجُهّل

١٦ — فارجع إلى حكمَيْ قريش إنّهم
أهلُ النبوة والكتاب المنزل

١٧ — أبنو طُهَيّة يعدلون فوارسي
وبنو خضافٍ، وذاك ما لم يُعدل

---

(١٢) الصك : الضرب الشديد . الخرب : ذكر الحبارى وهو يشبه الديك ، ويوصف بالجبن ، تنفج : نفش ريشه . الأجدل : الصقر .

(١٣) الكلكل : قرص في صدر البعير يستقر عليه عند الإناخة ، ويطعن به الفريسة ، الحد : الصلابة .

(١٤) المعقل : الملجأ أو الجبل المرتفع ، والمراد : الشرف ، اليفاع ما ارتفع من الأرض .

(١٥) الجاهل : السفيه .

(١٦) حكما قريش : بنو هاشم وبنو عبد مناف .

(١٧) طهية : أم جماعة من تميم منهم مجاشع ونهشل ودارم .
خضاف : بنو مجاشع .

١٨ — عمرو وسعد يا فرزدق فيهم
زهر النجوم وباذخات الأجبل

١٩ — كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله
مثل الذليل يعوذ تحت القرمل

٢٠ — وافخر بضبة إن أمك منهم
ليس ابن ضبة بالمعم المخول

٢١ — إن الذى سمك السماء بنى لنا
عزا علاك فما له من منقل

٢٢ — أبلغ بنى وقبان أن حلومهم
خفت فما يزنون حبة خردل

٢٣ — أزرى بحلمكم الفياش، فأنتم
مثل الفراش غشين نار المصطلى

---

(١٨) عمرو وسعد حليفا عشيرة جرير. زهر النجوم: النابهون، الباذخات: العالية جداً، الأجبل: جمع جبل والمراد عظماء الرجال.

(١٩) يعوذ: يحتمى، القرمل: شجر ضعيف لا شوك له، ومنه المثل «ذليل عاذ بقرملة».

(٢٠) بنو ضبة: أخوال الفرزدق، المعم المخول: الكريم الأعمام والأخوال.

(٢١) منقل: متحول.

(٢٢) بنو وقبان: بنو مجاشع، ولقبوا بذلك تشبيها لهم بالحمق، حلوم: جمع حلم وهو العقل والرزانة.

(٢٣) الفياش: الزهو والمفاخرة، المصطلى: المستدفىء بالنار.

٢٤ — تصف السيوف وغيرُكم يعصى بها
يا ابنَ القيون وذاك فعل الصَّيقل

٢٥ — أُلهى أباك عن المكارم والعلا
ليُّ الكتائف وارتفاعُ المِرجل

٢٦ — إنا نقيم صغا الرؤوس ونختلى
رأسَ المتوّج بالحُسام المِفصل

إيضاح المضمون :

بدأ جرير قصيدته فى رده على الفرزدق بالحديث عن ديار محبوبته التى درست كأنها لم تسكن من قبل ، وقد مات الهوى فى قلبه لما اعترى الديار من تغير وتبديل لهجرة أهلها . غير أن نظرة لما فيها من آثار ترقأ الدمع وتشفى القلوب . ثم يناجى أهل محبوبته الذين رحلوا وتركوا الديار فأقفرت من بعدهم ، ولم يكن ليرضى ويسمح بما جرى لو علم أن ما حدث سيكون آخر عهده بمحبوبته ، ويتخلص إلى هجاء الشعراء فيذكر أنه أعد لهم قصائد قاتلة تنصرف إلى الفرزدق والبعيث والأخطل فتؤثر فيهم وتأتى عليهم ، ويخص الفرزدق بالهجاء فيذكر أن الله قد أراد لقومه الذلة والهوان فاختار لهم بيتاً وضيعاً فى أسفل مكان فى أحقر بيت ،

---

(٢٤) يعصى بها : يتخذها كالعصى ، الصيقل : الذى يصقل السيوف ويشحذها .

(٢٥) الكتائف : جمع كتيفة وهى الصفيحة من الحديد ، المرجل : القدر الكبيرة ، وهذه وتلك من عمل الحدادين .

(٢٦) صغا الرؤوس : ميلها فهم يصلحون المعوج ولو كانت رأساً بها كبرياء ، نختلى : نجز ونقطع ، المتوج : الملك المتوج . المفصل : الباتر .

أما بيت جرير فعظيم ، رفيع القدر مثل جبل يذبل بل يزيد ويتفوق عليه وكان أجداده الأوائل عظاما بينما كان أجداد الفرزدق حدادين ، فليس له أن يفتخر بمجاشع ، وعليه أن ينتسب فى غيرها كأختها نهشل . ثم يذكر أنه كالنسر الجارح أو القضاء النازل الذى لاحيلة فيه ولا مرد له . ويعود للحديث عن البعيث فيقول : إنه طعنه طعنة مصمية أفقدته توازنه ، وجعلته كالديك الذى ينفش ريشه زهواً وغروراً ، فأذاقه لاذع الهجاء ، وأخرس الفرزدق وكتم أنفاسه . ويعاود الفخر بنفسه ذاكراً أن شرفه لايطاول ، وأن بيته رفيع المكانة عالى المنزلة ، ويؤكد فخره بقبيلته ، فيذكر أن عقولهم راجحة كالجبال فى ثباتها ، وإذا غضبوا كانوا شديدى الغضب سريعى الانتقام ممن يحاولون المساس بكرامتهم ، ويفتخر ببنى هاشم وبنى عبد مناف ، فمنهم كانت النبوة ، وفيهم نزل القرآن الكريم ، وينكر أن يصل بنو طهية وبنو خضاف إلى ما وصل إليه أهله . ويفتخر جرير بعمرو وسعد زهرة النجوم وعظماء الرجال ، فيقول : عندما يعوذ الفرزدق بخاله يكون مثل الذليل الذى يحتمى بشجر ضعيف ، ويوصيه بأن يفتخر بآل ضبة الذين لا يصلحون لعمومة أو خؤولة ، ولقد بنى الله — سبحانه وتعالى — عزا لأهل جرير لا ينقل عنهم أبداً . ويهجو مجاشعا ويصفهم بعدم القدرة على التمييز والفكر ، ثم يهدد من يتعرض له بالهجاء ، ويصف بنى وقبان أهل الفرزدق بالضعف والخور فهم يشبهون الفراش التى تحوم حول مصطلى النار فتصرع بها ، ويصفهم بالنذالة والجبن ، وبأنهم ابتعدوا عن المكارم والعلا ، وانصرفوا إلى العمل بالحدادة ليصنعوا السيوف ليقاتل بها سواهم ، بينما يصافح قومه ما اعوج من رؤوس الأعداء ويقتلونهم ويأتون على آخرهم بالحسام الفاصل الباتر .

الألفاظ والتراكيب وملاءمتها للحالة النفسية :

الأسلوب فى معظم الأبيات المختارة أسلوب خبرى يتلاءم مع ما فى القصيدة من فخر وهجاء ، والغرض الخبرى إما الفخر وإما السخرية والتحقير ، فخر الشاعر بنفسه وبقومه ، وسخريته بالفرزدق وعشيرته .

وقد استخدم لكل غرض ما يلائمه من ألفاظ وتعابير ، فمن ألفاظ الفخر وتراكيبه الملائمة قوله : « يذبل » المكارم . انصبت من السماء ، وسمتك ، اليفاع : الجبال ، فوارس ، بنى لنا عزا علاك .. إلخ .

ومن الألفاظ والتراكيب الملائمة والدالة على السخرية والاستهزاء بالفرزدق وغيره من الشعراء قوله: «سما» ميسمى، جدعت ، أخزى ، فى الحضيض الأسفل ، أخس بيت ، هدمت ، انصببت ، اختطفتك، خرب ، فلايزنون حبة خردل . القيون ، صغا الرؤوس...

ونلاحظ أن التعبير ملائم للجو النفسى فى حالتى الهجاء والفخر ، فالألفاظ منتقاة ومختارة بعناية ، وفيها سهولة وعذوبة ورشاقة ، فضلا عن ملاءمتها للحالة النفسية إذ كان الشاعر فى موقف الدفاع عن نفسه أمام عدد غير قليل من الشعراء .

وفى التراكيب تنسيق وترتيب بين الأساليب وما تدل عليه وتكشف عنه ، وتواكبت العبارات مع الألفاظ فى إحداث موسيقى خفية تتجلى فى كل تفاصيل البيت ووحداته الموسيقية ، وفى تفاصيل هذا الإجمال نقول:

فى البيت الأول استفهام إنكارى لما حدث ببيت محبوبته بعد رحيل الأهل عنها ، والنداء فى البيت الثالث التحسر والتوجع ، وهو يوحى بالشوق واللهفة ، وعاون على ذلك قوله فى البيت الذى يليه «آخر عهدكم» و«يوم الرحيل» ثم ينتقل فى البيت الخامس إلى هجاء الشعراء الذين كانوا يهاجمونه، فيقاتلهم بلسان أحد من السيف ، ويبدأ البيت بقوله: «أعددت» والكلمة تنذر بالخطورة

وتوحى بالتجويد وبالتمكن فى فن القريض ثم عبر بقوله « الشعراء » — وأل فيها للعهد — ليجمع من وقفوا ضده فى صعيد واحد ، ويوزع اسمه عليهم جميعا ، وقد وصف السم بأنه ناقع ، ليؤكد قوة فاعليته وشدة تأثيره فى إذلال الشعراء ، وفى قوله «آخرهم والأول» طباق ، وينتقل من خلال الفخر بشعره إلى بيان تأثيره فى خصومه ومنافسيه . مستعينا فى ذلك بالأسلوب الخبرى الملائم للفخر .

وتتوالى الكلمات الموحية المعبرة كقوله « أخزى ، الحضيض ، أخس بيت ، وفى قوله : « بنيت وهدمت » طباق.

وفى الفخر يستعين بالكلمات الملائمة مثل « بنى لى ، فى المكارم أولى» والأمر فى قوله « فانظر » للإهانة والتحقير . وقوله «من عل» يوحى بالسيطرة والقدرة على الحدوث والتمكن منه ، والنداء على البعيث فى البيت الثالث عشر بأداة النداء « يا » التى تستخدم للبعيد إشارة إلى أنه وضيع المنزلة منحط الدرجة والمكانة . والأمر فى قوله «فارجع» بالبيت السادس عشر للإهانة والتحقير ، والاستفهام للإنكار . فى قوله : « أبنو طهية » ، والنداء للسخرية فى قوله يافرزدق «والأمر للإهانة فى قوله « واخر » وأبلغ ، والنداء للإهانة أيضا فى قوله « يابن القيون » ، وقد وضح أن الأغراض الخبرية والمعانى الإنشائية تنصرف إلى الإهانة والإيلام ، وتتعاون فى إذلال الشعراء ، ونقض شعر الفرزدق بخاصة .

التصوير الخيالى :

استعان جرير بالصور الخيالية التى تتلاءم مع الطبيعة البدوية من جهة ، ومع جو الفخر والهجاء من خلال النقائض من جهة أخرى .

فالتصوير الخيالى ينبعث من نفس حزينة ملتاعة تقاتل فى أكثر من

جهة وتلتحم مع أكثر من خصم ، وقد جمع الشاعر كل مالديه من أدوات فى رد الهجوم ودفع الاعتداء ، وكان يلجأ إلى أسلحة خسيسة فيذكر فى هجائه الأمهات والأخوات وذوات الأرحام فى غير رفق واحتشام ، ولقد فضلت أن تكون الأبيات المختارة خالية من كل فحش وسوء ، وكنت مترفقا بجرير متعاطفا معه عندما طالعت هذه القصيدة لأول مرة لكننى جعلته فى صف واحد مع الفرزدق تقريبا عندما وجدت شارح الديوان[1] قد أسقط تسعة أبيات إلى الهامش ، وأبقى واحدا وخمسين بيتا فى متن القصيدة ليطلع عليها من أراد ، وإن كنت لا أنضل هذه الطريقة ولا أرتاح لهذا الاقتطاع ، وأرى أن تبقى القصيدة بتمامها فى متن الديوان وليس فى ذيله أو هامشه .

ولنعرض إلى بعض الصور الناطقة بما قلنا ، والمعبرة عما فى صدر جرير ، فقوله فى البيت الثانى « موت الهوى » كناية عن ذهابه وعدم بقائه .

وفى « البيت الخامس » استعارة تصريحية فى قوله « سما ناقعا » حيث شبه فيها شعره بالسم القاتل وحذف المشبه وذكر المشبه به ، والاستعارة توحى بقوة تأثير شعره فى إذلال خصومه من الشعراء ، والشطر الثانى من البيت كناية عن عمق موهبته الشعرية .

وفى « البيت السادس » استعارة تصريحية أخرى فى قوله « ميسمى » حيث شبه شعره بالميسم وهو المكواة وقوله : « جدعت أنف الأخطل » كناية عن إذلاله ، وفيها إيحاء بما نال هذا الشاعر من مهانة ، لأن الأنف عند العرب موضع العزة والأنفة والكرامة .

---

(١) فى الطبعة البيروتية وهو إيليا الحاوى .

وقوله في البيت السابع « الذي سمك السماء » كناية عن الله — سبحانه وتعالى — والشطر الثاني من هذا البيت كناية عن حقارة أصل الفرزدق.

ثم استعان جرير في البيت الثامن بالتشبيه ، لبيان علو منزلته فقد شبه مجده في الرفعة والعلو بمثل جبل يذبل بنجد والتشبيه منتزع من البيئة .

وفي البيت الحادي عشر استعارة مكنية في قوله « إني انصببت » « واختطفتك » فقد شبه نفسه بالنسر الذي ينقض على فريسته فيختطفها ، وفي هذه المكنية إيحاء بقوة الشاعر وعلو مكانته ، وهوان شأن خصومه .

وفي البيت الثاني عشر صورة بيانية رائعة لجمال التشبيه فيه ، وفي البيت الذي يليه تكرار في الصور مع تغيير في مواضع الشعراء .

وفي البيت الخامس عشر تجسيم بالتشبيه وإبراز المعاني في صورة حسية .

وفي البيت التاسع عشر تشبيه حسي وصورة بيانية مستوحاة من البيئة البدوية فهو يقول :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله

مثل الذليل يعوذ تحت القرمل

وفي البيت الحادي والعشرين تجسيم بالمكنية حيث شبه « العز » بالبناء وحذف المشبه به ، وجاء بلازم من لوازمه وهو « بنى » والاستعارة توحي بالقوة والمتانة .

وفى البيت الثانى والعشرين يشبه عقول قوم الفرزدق بحبة الخردل فى الصغر والضآلة .

فالشاعر يستعين بعاطفته الصادقة وخياله الوثاب فى الفخر بشعره والتباهى بأجداده ، ويسخر تجربته فى هجاء خصومه ونقض قصيدة الفرزدق السابقة .

الموازنة

(١)

لا تكون الموازنة بين القصيدتين كاملة إلا إذا تناولنا كل الأبيات فيهما ، وعرضنا للأفكار الجزئيـة فكرة فكرة إلى غير ذلك من بديهيات الموازنات ، ومع التسليم بذلك فقد اخترنا عدداً متساوياً من الأبيات فى كل قصيدة وراعينا أن نلم بالأفكار الجزئية وما يقابلها من خلال الأبيات المختارة ليكون ذلك مطابقاً لوجه الحقيقة إذ أن الموازنة من باب النقد ، ولابد أن يكون النقد مبنيا على العدل والنصفة مع مراعاة الذوق الأدبى ، وانه لمن الصعب أن يتصدى الباحث للموازنة بين قطبين كبيرين من أقطاب الشعر فى القرن الأول الهجرى ، ولا مناص لكل دارس من الاسترشاد بما خطه المتقدمون والمتأخرون جميعاً فى الذوق الأدبى العام الذى يرضى عنه ويلتف حوله معظم الدارسين والقراء .

ونطالع القصيدتين فنرى الفرزدق قد بدأ قصيدته بقوله :

إن الذى سمك السماء بنى لنا
بيتاً دعائمـه أعـز وأطـول

ومطلع قصيدة جرير :

لمن الديارُ كأنها لم تحلل
بين الكناس وبين طلح الأعزل .

وبالنظرة إلى المطلعين نرى الفرزدق قد تنصل فى قصيدته من عادة الأسلاف فى الابتداء بالنسيب ، وقد قال أبو الطيب المتنبى بعد ذلك يستنكر هذه العادة :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم
أكل فصيح قال شعرا متيم ؟

فكانوا منذ الجاهلية — يبدؤون معظم قصائدهم بالنسيب مهما اختلفت موضوعاتها ، وليس المدح فقط كما فى البيت المذكور . فقد خالف الفرزدق هذا التقليد ، وتخلص من ذلك الميراث ، كما لم يلتزم فى المطلع بالتصريع المعهود فى البيت الأول من القصيدة ، ودخل فى موضوعها مفتخراً ببيت آبائه وأجداده بينما نجد جريرا قد التزم بميراث أسلافه مع تصريع البيت الأول من مطلع مبنى على الغزل التقليدى واستغرق فى القصيدة مجتمعة عشرة أبيات اخترت منها أربعة لتبيان الفرق بين القصيدتين من هذه الناحية .

(٢)

مع أن الشاعرين يرجعان فى أصلهما إلى جدهما الأكبر ، تميم ، إلا أن قبيلة الفرزدق كانت قوية وذات مكانة ، فهو ينتمى فى نسبه إلى أجداد أفذاذ ذوى مروءات فى الجاهلية والإسلام بينما كانت (كليب بن يربوع) قبيلة فقيرة تعيش حياة البدو وتعمل برعى الغنم والحمير ، ولم يكن لها ماض يشرفها ، أو حاضر يرفع من مكانتها .

وقد اعتمد الفرزدق فى قصيدته على الفخر القبلى ، وأحيا سنة جاهلية فى الفخر بالآباء والأجداد والأخوال ، وعرض مفاخرهم ، وذكر أنسابهم ، المبالغة فى تعداد أسمائهم ، وهذا تأكيد بعظمتهم ، ومالهم من

مكانة عظيمة ، ولنرجع إلى الأبيات لنرى سيلا من الأسماء المتتابعة مثل زرارة ، نهشل ، مجاشع ، سفيان ، عدس ، جندل ، حنظلة ، ضبة ... إلخ وهذا التعداد يدل على كثرة العظماء فيهم . فالفرزدق ينزع فى فخره عن صدق فى العاطفة وعن مشاعر جياشة يمتلىء بها صدره وفؤاده ، مما أكسب أبيات الفخر فى قصيدته قوة لم تتوفر لخصمه جرير الذى جمع فى شعره بين الفخر الفردى والفخر القبلى . فقد بدأ فخره بشعره وأبان عن قوة تأثيره ، ثم انبرى إلى قومه مفتخراً برجاحة عقولهم وقدرتهم على الانتقام ، ولم يكن لجرير من القوة فى فخره ما للفرزدق ، لأن قومه ليس لهم من المجد ما لقوم الفرزدق ، فأين كليب من دارم ؟ وكيف يوازن عطية الخطفى بغالب بن صعصعة ؟ وعندما نراجع أبيات الفخر عند جرير لا نجده يذكر واحدا من عشيرته مثلما فعل الفرزدق لكنه افتخر بأجداده الأولين مثل تميم ، مع أن تميما هو جد الفرزدق أيضا فإليه ينتسبان ، وعنده يلتقيان .

ويقضى شعر النقائض أن ينقض الثانى كلام الأول ، فقد انصرف جرير إلى ذلك فى البيت السابع وما بعده ، ولكنه لم يخصص كل قصيدته لنقض أبيات الفرزدق بل جعل للبعيث والأخطل من شعره نصيبا .

ولقد أخذ يتخبط ويضطرب فيما عرضه من أبيات الفخر ، وهو يكرر أشطرا من شعر الفرزدق لا ليرد عليها بل ليمسخها مسخا .

ونلاحظ أن قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول

أفضل من قول جرير :

إن الذى سمك السماء بنى لنا
عـــزا علاك فما له من منقل

وقول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانة
وتخالنا جنا إذا ما نجهـــل

أفضل من قول جرير :

أحلامنا تزن الجبال رزانة
ويفوق جاهلنا فعال الجهـــل

لأن الجن قوة خارقة أسمى وأقوى من قوى البشر ، ألم يحاول كثير من الناس الاتصال بالجن والاستعانة بهم لقضاء ما يعجزون عنه من حوائج .

فالبشر مهما كانت قوتهم ضعاف أمام الجن ، وبهذا كان الفرزدق فى فخره شامخ الرأس ، ثابت القدم ، يقول حقا ، وينطق صدقا ، بعكس جرير الذى جاء لينقض ما قاله الفرزدق فلم تطاوعه قدراته ولم تسعفه معطياته .

(٣)

وفى أبيات الهجاء كان جرير أشد عنفا وأكثر إيلاما لأنه — كما سبق أن ذكرت — يحارب بكل أسلحته ويهاجم ويدافع بكل قواه ، وصمد للجميع ، وأعلن انتصاره عليهم ، وهذه ثقة بالنفس ، واعتزاز بالمقدرة الشعرية ، وهو فى صموده وتحديه لا يبارى فلنقرأ له :

أعـــددت للشعراء سما ناقعا
فسقيت آخـــرهم بكأس الأول

لما وضعت على الفرزدق ميسمي
وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل

ومما يؤخذ عليه أنه كرر هذا المعنى في البيت الثالث عشر .
وكان الهجاء عند جرير تعبيراً عن حالة اليأس ، وتنفيسا عما يعانيه من قنوط وضجر ، ومع ذلك لم يسيطر عليه اليأس ، ووقف صامداً رافعاً راية الهجاء ، وأمامه أربعون شاعراً أو أكثر وذلك عن جدارة وقوة .

وعندما يهجو الفرزدق ينفي عن جرير وقومه أن يكون فيهم من له فعل حسن فهو يقول :

يابن المراغة أين خالك ؟ إنني
خالي حبيش ذو الفعال الأفضل

ويقول :

إنا لنضرب رأس كل قبيـــلة
وأبوك خلف أتانه يتقمـــل

فالهجاء عند الفرزدق متصل بالفخر ، لأن الفخر بقومه يتلوه هجاء لقوم جرير ، وليس معنى ذلك أن أبيات الهجاء عنده كانت هزيلة أو فاترة بل كانت قوية أيضا ، وهما في هذه القصيدة فرسا رهان ولا يشق لهما غبار وللفرزدق فضل السبق ، ولجرير فضل الإجادة .

(٤)

الأفكار فى القصيدتين غير مرتبة ولا عميقة ، وليس فيها ابتكار أو تجديد، بل إن جريرا كان يعيد فى قصيدته ويكرر فى أفكاره مع تغيير مواضع الكلمات ، لأنه مشغول بالرد على خصمه ونقض كلامه .

ويبدو أن جمهور المربد بالبصرة كان متلهفا على كل جديد ، فتخرج القصائد غير ناضجة ولا مرتبة وكل بيت فيها قائم بذاته، وغير متصل بما قبله، ومنقطع عما بعده غالبا .

والفرزدق متأثر بالقرآن الكريم مقتبس منه لقوله فى البيت :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها
وقضى عليك به الكتاب الأول

وهو مأخوذ من قول الله تعالى « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »[1] .

وتأثر فى البيت الثالث عشر بقول الشاعر :

ولا يردون الماء إلا عشية
إذا صدر الوراد عن كل منهل

ومتأثر أيضا فى البيت السادس عشر بقول الأعشى :

كناطح صخرة يوما ليفلقها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل[2]

وجرير لأنه تابع لا يهمــــه إلا ما قاله الفرزدق ، فيأتى عليه بالأخذ والنقض .

(١) العنكبوت آية ٤١ (٢) ديوان الأعشى ص ١١١

والصور الخيالية قليلة فى القصيدتين ، ومعظمها منتزع من البيئة العربية ، وتمتاز بقوة تأثيرها .

وفى القصيدتين ملامح كثيرة من حياة الشاعرين ، ومن حضارة بنى أمية ، ومن ثقافة واسعة ، ومعرفة كبيرة بالأنساب وتاريخ القبائل .

(٥)

يتلاءم التعبير فى القصيدتين مع الجو النفسى فى حالتى الفخر والهجاء ، وتتعاون الصور الخيالية مع التعابير فى إيراد الأفكار وتجسيم المعانى ، لكن ملامح الأسلوب تختلف من شاعر إلى آخر ، ففى أسلوب الفرزدق قوة وجزالة . ولهذا قالوا عنه : إنه كان ينحت من صخر ، ونجد ألفاظه خشنة جافة ، وتتسم معانيه بالمبالغة والتهويل .

وفى أسلوب جرير عذوبة ، وليونة ، وانطلاق ، ولهذا قالوا عنه إنه يغرف من بحر . مع استعانته بالصور الساخرة ، وكان شعره محببا للناس لما فيه من خفة وسهولة .

(٦)

كان صاحب القصيدة الأولى فى شعر النقائض هو الذى يتفوق غالبا ، لأنه حر لايتقيد بمعان خاصة أو أوزان معينة ، وهنا يمكن التماس العذر لجرير ، لأنه يرد وينقض ، ومع التسليم بذلك فإن الحقيقة واضحة ، وينبغى تبيانها ، فجرير كان فى نقيضته على لسفح من الجبل الأشم الذى تبوأه واعتلاه الفرزدق ، لماذا ؟ لأن الفرزدق كان متفوقا فى الفخر متفوقا فى النقائض بعامة ، وكان جرير خصما عنيدا متفوقا فى الهجاء ، ولأنه كان مشغولا بفنون أخرى من الشعر تفوق فيها على الفرزدق كالمدح والرثاء والنسيب — وسبق ذكرها ولاداعى لتكرارها .

وكان الفرزدق مهموما دائما بجرير، ويحزن عندما يعلم أنه قال قصيدة جديدة، لأن ذلك سوف يتعبه ويشقيه في الانشغال بها والرد عليها، وفي الوقت الذي كانت فيه عوامل النقمة تعتلج في صدره كانت عوامل الغيرة تدب في نفس جرير، وحاول القدماء أن يحكموا بينهما، ولم يتفقوا في أحكامهم.

قال ابن قتيبة: «وقال أبو عمرو، سئل الأخطل: أيكم أشعر؟ قال: أنا أمدحهم للملوك، وأنعتهم للخمر والحُمُر، يعني النساء، وأما جرير فأنسبنا وأشبهنا، وأما الفرزدق فأفخرنا.

وقال مروان بن أبي حفصة:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما
حلو القريض ومره لجرير[1]

وقال ياقوت: «وهم[2] في الفرزدق وجرير قسمان: فمن كان يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق، ومن كان يميل إلى الشعر المطبوع، وإلى الكلام السمح السهل الغزل فيقدم جريرا»[3].

وقد شرح أبو عبيدة ديوان النقائض لجرير والفرزدق شرحا واسعا لأن نقائضهما قد دارت بين شاعرين كبيرين من شعراء الإسلام، وفي مدة زمنية طويلة، وكان شعرهما تسجيلا لتاريخ العرب وإيقاظا للأيام الغائرة المدفونة في عمق التاريخ، ولم يصل هذا الفن في عصر من العصور إلى ما وصل إليه في عصر بني أمية لاعتبارات كثيرة سبق الحديث عنها.

---

(١) الشعر والشعراء ج١ ص ٤٧٤.
(٢) أي الناس.
(٣) معجم الأدباء ج١٩ ص ٣٠٠

ثانيا : النثر :

خطبة الحجاج حين ولى العراق

نبذة عن حياته :

ولد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل الثقفى بالطائف سنة إحدى وأربعين من الهجرة[1] . ويُكنى بأبى محمد ، ونشأ بالطائف ، وتثقف بها ، وبدأ حياته العلمية معلما للصبيان ، ثم صار جنديا فى جيش الأمويين ، وتولى قتال عبد الله بن الزبير فى مكة ، وانتصر عليه وانتهت الثورة فى الحجاز بقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين من الهجرة ، وبعد مقتله صلبه الحجاج فى أحداث مؤلمة أفاضت كتب التاريخ والسيرة فى الحديث عنها ، وصار الحجاج بعدها واليا على الحجاز فأظهر للأمويين شجاعته وعنفه ومقدرته فى إخماد الثورات فى السنوات الثلاث التى استمر فيها واليا على الحجاز ، وعندما اتصل بعبد الملك بن مروان عن طريق روح بن زنباع قلده عبد الملك أمر العسكر فى الجيش الأموى ، فقضى الحجاج على ما كان يشتكى منه عبد الملك من توان بين الجنود ، فى الوقت الذى كانت فيه الثورة ضد الأمويين بالعراق لا زالت مستمرة ، فاهتبل الحجاج الفرصة وكتب إلى عبد الملك يقول « إنى حزت الحجاز بشمالى وبقيت يمينى فارغة » فرد عليه بعهد توليته العراق سنة خمس وسبعين من الهجرة خلفا لبشر بن مروان الذى أتاح — بوفاته فى السنة نفسها — لعبد الملك أن يختار واليا معروفا بالصلابة والعنف .

وعندما عين الحجاج على العراق اتجه إلى الكوفة ، وألقى خطبة عنيفة ، سوف نعرض لها ، وقد حذر فيها من مخالفة أمره ، وقد نفذ تهديده .

---

(١) وقيل سنة ٤٢ هـ .

فقتل جماعة من أهلها تخاف الناس منه ، وأيقنوا أنه جاد في وعيده ، فتسارعوا إلى قتال الخوارج ، ومعاونة القائد الأموى « المهلب بن أبى صفرة » ثم اتجه الحجاج إلى البصرة وخطب فيها أيضا ، وأحكم قبضته على العراق، وكانت له مواقع شديدة مع الخوارج ما كان لغيره أن يقدر على القيام بها وتحمل أعبائها ، وقد بنى مدينة واسط فى بادية النبط بالعراق ، ومات ودفن فيها سنة خمس وتسعين من الهجرة .

ويعد الحجاج وزياد بن أبيه أشهر الخطباء السياسيين فى العصر الأموى، وكان الحجاج يستعين بموهبته الخطابية وقدرته الكلامية على إقناع خصومه ، ودفع الناس ، وتحريكهم إلى ما يريد .

روى أن الحسن البصرى كان يقول عنه : إنه يعظ عظة الأزارقة ، ويبطش بطش الجبارين ، وقال مالك بن دينار : « لربما رأيت الحجاج يتكلم على منبره . ويذكر حسن صنيعه إلى أهل العراق وسوء صنيعهم إليه حتى إنه ليخيل إلى أنه صادق مظلوم .

ومن أشهر خطبه وأروعها تلك الخطبة التى ألقاها فى أهل الكوفة عندما قدم إلى العراق واليا عليه من قبل عبد الملك بن مروان سنة ٧٥ هـ .

وذكر الجاحظ مناسبة هذه الخطبة فقال : « [1] حدثنا محمد بن يحيى ابن على بن عبدالحميد عن عبد الله بن أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال :

---

(١) البيان والتبين جـ ٢ ص ٣٠٧ تحقيق الأستاذ القدير عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ١٩٧٥ م نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة والخطبة مذكورة فى كثير من كتب التراث كالكامل ، والعقد ، وصبح الأعشى ، وعيون الأخبار .

« خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها « فى اثنى عشر را كبا على النجائب حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ، وقد كان بشر بن مروان ، بعث المهلب إلى الحرورية [1] فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فقال :

على بالناس فحسبوه وأصحابه خوارج ، فهموا به ، حتى إذا اجتمع الناس فى المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال : .. الخطبة .

وذكر المبرد فى التقديم لهذه الخطبة بإسناد إلى عبد الملك بن عمير الليثى قوله « بينا نحن فى المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آت فقال : هذا الحجاج قدم أميرا على العراق . فإذا به دخل المسجد معتما بعمامة غطى بها أكثر وجهه ، متقلدا سيفا ، متنكبا قوسا ، يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه ، حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق! حتى قال عمير بن ضابىء البرجمى : ألا أحصبه لكم ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر ، فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض وقال ... » [2] الخطبة .

ومن هاتين الروايتين يتبين لنا كيف كان الحجاج داهية ماكرا ،

---

(١) حَرَوْرَاء : قرية بالعراق وإليها انتسب أصل الخوارج الذين كانوا مع على كرم الله وجهه ثم اختلفوا معه بعد مسألة التحكيم بينه وبين معاوية ، وقاتلهم على بالنهروان وسموا بالحرورية نسبة إلى هذه القرية .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٨٠ طبعة دار نهضة مصر تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

فقد أراد أن يبدأ صفحته مع أهل الكوفة بزرع الخوف والرعب فى صدورهم . ورغب فى أن يجمع إليه عددا كبيرا من الناس حتى يستمعوا إليه وإلى منهج سياسته ، فدخل المسجد بهذه الصورة الغريبة التى لم يألفها الناس إلا فى مقاتلى الخوارج ، كحمل السلاح بالمسجد وصعود المنبر باللثام ، وبقاء الرجل ساعة لايتكلم حتى يحار الناس فى أمره ، ثم كانت المفاجأة الكبرى فى الخطبة نفسها التى زادتهم خوفا وفزعا .

نص الخطبة(*)

قال :

أنا ابنُ جلا وطلاع الثنايا   متى أضعِ العمامة تعرفونى[1]

أما والله إنى لأحتمل الشر بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى .

قد شمرت عن ساقيها فشمرا .

ثم قال :

هــــذا أوانُ الشد فاشتدى زِيَمْ
قــــد لفها الليل بسوّاق حُطمْ [2]

(*) البيان والتبيين حـ٢ ص ٣٠٨

(١) البيت من قصيده لسحيم بن وثيل الرياح رواها الأصمعى فى الأصمعيات، ابن جلا أى ابن رجل جلا الأمور وكشف الصعاب ، والثنايا : جمع ثنية وهى الطريق فى الجبل أو الجبل نفسه وطلاع الثنايا أى أنه قادر شجاع .

(٢) هذا الرجز لرويشد بن رميص العنبرى يقوله فى رجل يسمى =

ليس براعى إبل ولا غنمْ ... ولا بجزار على ظهر وضم[١]

وقال أيضا :

قد لفها الليل بعَصْلَبِيّ ... أروعَ خرّاج من الدّوِّى[٢]

مهاجرٍ ليس بأعرابى ..

إنى واقه يا أهل العراق ، والشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ، ما أغمز تغماز التين ، ولا يقعقع لى بالشِّنان[٣] ولقد فررت عن ذكاء[٤] ،

= شريح بن ضبيعة « ويعرف بالحُطم القيسى ، وكان شريح قد غزا اليمن ، فغنم وسبي ، ثم أخذ على طريق مفازة ، فضل بهم دليلهم ، وهرب منهم وهلك منهم ناس كثيرون بالعطش ، وجعل الحطم يسوق بأصحابه سوقاً عنيفاً حتى نجوا ، ووردوا الماء ، فقال فيه رويشد الرجز مادحا ، ملقبا الحطم بما فى الرجز ، وقد أدرك الحطم الإسلام فأسلم ثم ارتد بعد وفاة الرسول . (بتصرف عن هامش البيان والتبين) زيم : اسم لناقته أو لفرسه ، لفها : الضمير فيه للإبل أى جمعها الليل بسائق شديد ، عن نفسه والرعية .

(١) الوضم . كل ما قطع عليه اللحم .

(٢) العصلبى : الشديد الباقى على المشى والعمل ، الأروع : الكريم الذكى ، الدوى : المفازة والمراد : الخراج من كل غماء شديدة .

(٣) الشنان : جمع شن وهو القربة البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للسير لتفزع فتسرع . يضرب الحجاج ذلك مثلا لنفسه أى أنه لا يرهبه وعيد أو تخويف .

(٤) فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وفرّ عن الأمر بحث عنه . الذكاء : نهاية الشباب وتمام السن ، والمراد أن الخليفة اختاره واليا لحدة ذكائه وصحة تجاربه .

وفتشت عن تجربة وجريت من الغاية[١] . إن أمير المؤمنين كبّ كنانته[٢] ثم عجم عيدانها[٣] فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها عمودا ، فوجهنى إليكم ، فإنكم طالما أوضعتم[٤] فى الفتن ، واضطجعتم فى مراقد الضلال ، وسننتم سنن الغىّ .

أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأعصبنكم عصب السَّلمة[٥] ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[٦] فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

إنى والله لا أعِد إلا وفَيت ، ولا أهمّ إلا أمضيت ، ولا أخلقُ إلا فريت[٧] ، فإياى وهذه الجماعات وقال وقيل وما تقولون ؟ وفيم أنتم وذاك !

---

(١) الغاية : قصبة تنصب فى الموضع الذى تكون المسابقة إليه ليأخذها السابق أى كأنه جاوز الغاية .

(٢) الكنانة : جعبة السهام.

(٣) عجم العود : عضه ليعرف صلابته .

(٤) الإيضاع : السير بين القوم بسرعة، وأوضعتم فى الفتن أى أسرعتم فى الشر .

(٥) السلمة : نوع من الشجر الشائك تعصب أغصانه ، وتخبط بالعصى لسقوط الورق للماشية .

(٦) غرائب الإبل : الغريبة عن مواطنها ، وهى تضرب حين تدخل بين الإبل لتخرج عنها ، ويكون ضربها بغير شفقة لأنها لاتهم الضارب .

(٧) خلق الأديم : قدره لما يريد قبل القطع ، وقاسه ليقطع منه وفريت : قطعت — وبعد هذه الفقرة روى صاحب الكامل ما يأتى :

أما والله لتستقيمُنّ على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده ، من وجدت من بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله ، ثم دخل منزله ».

إيضاح المضمون :

لقد بدأ الحجاج خطبته بتزكية نفسه ، والتغنى بعزمه وحزمه، وأخذ يهدد الناس ويثير الفزع في نفوسهم، لأن أهل العراق مردوا على النفاق ، وأخذ الحجاج — في مقدمة الخطبة — ينشد أشعاراً غريبة ليثير الناس، ويشد انتباههم ، ويحطم كبرياءهم حتى يخضعوا له ، وينصاعوا لأوامره .

ثم عاد للفخر بنفسه ، فذكر أن أمير المؤمنين قد اختاره لما يتمتع به من قوة وذكاء وتجربة وأنه قد فاق أقرانه ، فهو قوى وصلب وشجاع ولأنه أصلح الرجال في مقاومة الانحراف والفتن والضلالات .

وحدد للمستمعين منهجه في الحكم وطريقته في معاملة الناس ، وبنى خطته على أساس من الشدة والعنف ، مقتبسا ومهتديا في ذلك بآية من القرآن الكريم تصور أهل قرية كانت آمنة مطمئنة تنعم برزق الدنيا ونعيمها ، وعندما كفرت بنعمة الله كان جزاؤها الجوع والحرمان وفقد الأمن جزاء بما كانوا يصنعون .

وأعلن في نهاية هذه الخطبة الملتهبة أنه ماض في تنفيذ ما وعد به ،

= « وأن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه »

وقد أورد المبرد زيادات أخرى غير ما ذكرت .

ثم حـــذر الذين ينشغلون بنقل الكلام ، وحبك الأقاويل ، والعمل بالوشايات ، وأمر الناس بالانصراف إلى الجد والاشتغال بالواجب ، ومعاونة المهلب بن أبى صفرة فى قتال الخوارج ، وأنذر من يتخلف عنه ثلاثة أيام بضرب عنقه وسفك دمه ، ونهب ماله .

خصائص الأسلوب :

أبان الحجاج فى هذه الخطبة منهجه فى السياسة والحكم ، وكشف عن خطته العنيفة فى قيادة العراق الذى كان قد تفشت فيه الفتن والثورات ، وتعرض لألوان من الفساد الأخلاقى فى عبارات مشتعلة وألفاظ غريبة ، وتراكيب لم يكن لأهل الكوفة عهد بها ، فضلا عما واكب الخطبة من غموض فى شخصية الخطيب ، وتصوير بيانى لمنهجه السياسى .

ومن الألفاظ الجزلة والتراكيب الفخمة التى جاءت فى الخطبة ملائمة للجو النفسى قوله فى الشعر الذى تمثل به « ابن جلا ، زيم ، عصلبى ، الدوى » وقوله « يقعقع لى بالشنان ، عجم عيدانها ، اضطجعتم فى مراقد الضلال ، لألحونكم لحو العصا ... »

ومن الألفاظ والتراكيب التى تتلاءم مع فخره بنفسه ، واعتزازه بثقة عبد الملك فيه . قوله : « وإنى لصاحبها ، فوجدنى ، فوجهنى » وقد بدأ الخطبة دون أن يحمد الله ، ويثنى عليه مستعينا فى المقدمة بالشعر الذى تمثل به ، مثل :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

واقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها

الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »(١) .

واستخدم الأسلوب الخبرى للتهديد والوعيد ، ولجأ إلى أساليب التوكيد بصورها المختلفة كإن ، وإن واللام ، ونون التوكيد ، والقسم ، وقد ، والمفعول المطلق . كقوله : أما والله إنى لأحتمل الشر بحمله ... وإنى لأنظر إلى الدماء .. وإنى والله ، أما والله لألحونكم لحو العصا ... إنى والله لا أعد إلا وفيت ... أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده .

ومن أساليب التحذير قوله « فإياى وهذه الجماعات . . » والأمر للتحذير والإرهاب فى قوله : لتستقيمن على طريق الحق ، والنداء للزجر فى قوله : يا أهل العراق .

والخطبة موجزة محددة تتلاءم مع مقتضى الحال ، وقد حذف فيها كثيرا من متعلقات الأفعال لإفادة العموم كقوله : لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت . ولا أخلق إلا فريت ... ، بل ربما اكتفى بالإشارة الخاطفة كقوله : « فإياى وهذه الجماعات وقيل وقال ، وما تقولون ؟

كما اعتمد على كثير من ألوان البديع التى تشد السمع وتثير الانتباه ، وتحرك الأذهان إلى متابعة المعنى . وبنى الخطبة على السجع ، وهو توافق الفاصلة من جملتين أو أكثر فى الحرف الأخير وحركته . كقوله : يا أهل العراق ، والشقاق ، والنفاق ، ومساوىء الأخلاق .. وكقوله .. وفيت ، أمضيت ، فريت .

ويوازن بين الجمل مع اتفاق الفواصل فى الحرف الأخير وهو الذى يسمى بالترصيع كقوله : لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت .

---

(١) النحـــل آية ١١٢

ومن الجناس الناقص فى الخطبة قوله : عودا ، وعمودا .

واهتم الحجاج بالمعنى واللفظ معا مع الملاءمة بينهما فى إيجاز دقيق وتنسيق رائع للأفكار .

التصوير البيانى :

كان الحجاج صادقا مع نفسه ، ومع مستمعيه ، إذ أنه استشعر أهمية الخطبة فى التعريف بشخصه ، وتحديد ملامح سياسته ، وكان واثقا بقدراته ، متوجسا من أهل العراق ، فجاء الخيال بعيدا مواكبا لهذه الأحاسيس ومن الصور البيانية التى استعان بها فى الفخر بنفسه ، وتحديد سياسته :

الكناية : وأسلوبها من أبلغ الأساليب فى مقام الوعيد والتهديد ، كقوله « لا يقعقع لى بالشنان ، وهو كناية عن شجاعته وعدم فزعه ، ثم تتوالى الكنايات فى قوله : إن أمير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها عمودا ، وهى تكشف عن صلاحيته للحكم ، وصلابته فى مقاومة الانحراف ، وقوله : « لأضربنكم ضرب غرائب الإبل » كناية عن شدة الضرب بلا شفقة ، وهو يشبه ضربه لأهل العراق بضرب راعى الإبل للإبل الغريبة أى أن ضربه سيكون عنيفا قاسيا .

والتشبيه كقوله : « لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، وكتشبيهه لأهل العراق بأهل القرية التى صورتهم الآية الكريمة .

ومن الاستعارة المكنية التى أسهمت فى إبراز المعنى وتحديده ، وعبرت عن مشاعر الحجاج وعواطفه المتأججة بنار الغيظ ولهيب الكراهية لأهل العراق قوله : « إنى لأرى رؤوسا قد أينعت ، وحان قطافها ،

وإنى لصاحبها ، فقد صور الرؤوس المثيرة للفتن فى صورة الثمار اليانعة التى يسهل قطافها ، كأنه يقول لهم :

إن قتلكم سهل جدا مثل قطف الثمار ، وقد تصور الضلال مرتعا كبيرا وبه مراقد يقيم فيها أهل العراق .

وتكشف الخطبة عن شخصية الحجاج ، وتحدد ملامحه النفسية ، وقدرته الخطابية، وقد عرض موضوعه بترتيب ، وترابط وإيجاز ، ولهذا كانت الخطبة محل اهتمام عنده القدماء والمحدثين ، فهى نموذج صادق للخطابة السياسية فى العصر الأموى .

من أدب الخوارج

(مقدمة تاريخية) :

كان الخوارج يسكنون الكوفة ، ويقاتلون فى صفوف الإمام على كرم الله وجهه إلى أن قبل التحكيم فتبرؤوا منه وقالوا : « لا حكم إلا لله » وسموا بالخوارج لأنهم خرجوا عليه وقيل : لأنهم خرجوا فى سبيل الله أخذا من قوله تعالى: «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »[1] ويسمون الشراة لقولهم: شرينا أنفسنا (أى بعناها) فى طاعة الله أخذا من قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد »[2]، وسموا بالحَرَوْرِيّة لأنهم خرجوا من الكوفة إلى قرية قريبة منها تسمى « حَرَوراء »[3] وجعلوا عبد الله بن وهب الراسبى أميراً عليهم وكان ذا رأى وفهم ولسان وشجاعة، وقد قاتلهم الإمام على فى الوقعة الشهيرة (بالنهروان). وقضى على الكثير منهم ، ولكنه لم يبدهم ولم يبد أفكارهم ، ثم فارق بعضهم ابن وهب ، وتجمعوا فى النُخيلة وهى بالقرب من الكوفة أيضاً ووجه الإمام إليهم عبد الله بن عباس داعياً ومحاوراً فلم يفلح فى إقناعهم، فسار إليهم الإمام على

---

(١) سورة النساء (آية ١٠٠) .

(٢) سورة البقرة (آية ٢٠٧) .

(٣) حروراء : فى العراق قرية بظاهر الكوفة ، وقيل : موضع على بعد ميلين منها (راجع معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٥ طبعة دار صادر بيروت).

على بجيشه ولم يبدءهم بقتال ، وقضى عليهم جميعاً ولم يفلت منهم ممن كان في هذه الوقعة إلا خمسة[1] .

وجاء في الحديث أن عليا رضى الله عنه تلى بحضرته: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[2] فقال على : أهل حَرَوْرَاء منهم »[3] . وكانوا على الأمد الطويل شوكة في جنب الأمويين ، وقاتلهم الحجاج وعبيد الله بن زياد والمهلب بن أبي صفرة وغيرهم ، ووقفوا إلى جانب ابن الزبير عند حصار الأمويين لمكة، ثم خرجوا عليه ، وحاربهم إلى أن قتله الأمويون في مكة .

وقد بايعوا قطرى بن الفجاءة أمـــيراً عليهم ، وافترقوا إلى عدة جماعات منهم الإباضية وهم أصحاب عبد الله بن إباض والصُفرية الذين تابعوا زياد بن الأصفر أو سموا بابن صفّار أو لأنهم قوم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم ، ويقال لهم (الزيادية) . ومن الفرق التى انقسموا إليها البيهسية وهم أصحاب بيهس (هيصم بن جابر) والأزارقة نسبة إلى نافع بن الأزرق الحنفى والنجدية أتباع نجدة بن عامر ، وهذا التعدد بسبب الاختلاف في بعض المسائل الدينية .

وأفرد المبرد قسما كبيراً في « الكامل » للخوارج فتحدث عن تاريخهم وفرقهم وأدبهم حديثاً طويلا ذا شجون ولكن يؤخذ عليه أن كلامه عنهم غير مرتب من الناحية التاريخية وفيه خلط كبير بين التاريخ والأدب واللغة

---

(١) انظر الكامل للمبرد حـ ٣ ص ٢٢٧ طبعة دار نهضة مصر .
(٢) سورة الكهف الآيتان (١٠٣ ، ١٠٤) .
(٣) الكامل حـ ٣ صـ ١٨٨ .

والنحو وغيرها كمهد القدماء فى التأليف ، وعلى كل فهو مرجع عظيم وأثر نفيس .

ويرى الخوارج أن الخلافة حق مشترك بين المسلمين جميعاً ، وأحقهم بها هو أتقاهم ، ولا فرق فى ذلك بين عربى وعجمى وقرشى ، وكان رأيهم مبنيا على الشورى فيما يخص السلطة ، وقد صححوا خلافة أبى بكر وعمر وعثمان حتى ست سنوات من حكمه ، وعليا إلى أن حكم فى دين الله الرجال .

ومن أهم شعرائهم عمران بن حطان ، وقطرى بن الفجاءة والطرماح ابن حكيم وعيسى بن فاتك ، وعمرو بن الحصين وغيرهم كثيرون .

ومن خطبائهم قطرى بن الفجاءة ، وأبو حمزة الشارى (المختار بن عوف الأزدى) وغيرهما ، وأدبهم جـــدير بالدراسة لخصائصه التى لا تتوفر لغيرة من أدب الأحزاب السـياسـية الأخرى فى هذا العصر .

خطبة أبى حمزة الشارى فى أهل المدينة

التعريف بأبى حمزة مع بيان مناسبة الخطبة :

أبو حمزة هو المختار بن عوف الأزدى[١] ، وكنيته أبو حمزة ولقبه الشارى (كسائر الخوارج) ، وكان من أهـــل البصرة ، ومن زعماء

(١) ذكر الجاحظ أن اسمه (يحيى بن المختار) وأن الخطبة كانت بمكة وليست بالمدينة . انظر البيان والتبيين حـ ٢ ص ١٢٢ طبعة الخانجى بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون .

الأزارقة ، ولما تعقب الأمويون الخوارج ، وجمل عليهم الحجاج فر أبو حمزة إلى اليمن وحضرموت . وعاش فى هذه البقاع ، وكان يأتى إلى مكة فى موسم الحج ليحرض المسلمين على الخليفة الأموى .

وفى سنة ١٢٦ هـ . استولى عبد الله بن يحيى الكندى (الخارجى) على اليمن ، وكان زعيما للإباضية ، ولبث بصنعاء أشهراً يقيم العدل بين الناس ويمنع عنهم الأذى ويحسن معاملتهم ، وانضم حوله كثير من الخوارج لحسن سيرته ، ومنهم أبو حمزة الشارى الذى كان خطيبا مفوها وقائداً عسكرياً محنكاً ومناضلا سياسياً بارعاً ، والتقى الرجلان على حب الخوارج وكراهة الأمويين وضرورة محاربتهم ، وعزما على أن تكون الحجاز مركزا للتحرك ، وميداناً للقتال خاصة وأن أبا حمزة له خبرة فى القتال ودراية بهذه الأماكن ومعرفة بأهلها ، وعلى علم بقدر الأمويين فيها وقوتهم بها .

وفى سنة ١٢٩ هـ أرسله عبد الله بن يحيى بجيش كبير إلى مكة فى موسم الحج مظهراً الخروج على الخليفة (مروان بن محمد) . ودخل مكة يوم التروية من غير قتال وأخلاها له واليها (عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك) وكره أن يقاتلهم فى موسم الحج ، لحرمة القتال فى مكة ، وذهب إلى المدينة وأعد فيها جيشاً كبيراً ليواجه به أبا حمزة وجعل على قيادته (عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان) وسار الجيش حتى بلغ قديداً[1] .

ولما علم أبو حمزة بخروج أهل المدينة لقتاله ترك مكة ، واستخلف

---

(١) قديد : اسم موضع قرب مكة (معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٤ ص ٣١٣)

عليها ، والتقى بجيش الأمويين بما فيهم أهل المدينة عند قديد وأخبر المقاتلين من أهل المدينة أنه لم يجيء لقتالهم ، وإنما جاء لقتال من أفسدوا فى الأرض ، واستأثروا بالفيء .

وانتصر أبو حمزة فى هذه الواقعة انتصاراً عظيماً ، ودخل المدينة فى سنة ١٣٠ ﻫ ، وألقى فيها خطبته التى سوف نعرض لها ، وفـ (والى المدينة) إلى الشام ، وغضب لذلك الأمويون ، وجمعوا جيشاً كبيراً لقتال الخوارج فى المدينة وتصدى له أبو حمزة بمن معه ، ولكنه هزم هزيمة منكرة ، وقتل من جيشه عدد كبير ، وهرب أبو حمزة إلى مكة ، وتم القبض عليه وقتل وصلب مع بعض زعماء الخوارج فى أواخر سنة ١٣٠ ﻫ .

وكان قد قال خطبته عندما دخل المدينة منتصراً وعلم أن أهلها يعيبون أصحابه لحداثة سنهم ، وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه محمد ، ثم قال خطبته :

والخطبة طويلة وعظيمة ومتنوعة ، وقد بدأها بقوله : « يا أهل المدينة ، قد بلغنى مقالتكم لأصحابى ، ولولا معرفتى بضعف رأيكم ، وقلة عقولكم لأحسنت أدبكم . . . . . . » ومدح النبى وأبا بكر وعثمان حتى ست سنوات من ولايته ثم قال عن على : « . . . ثم ولى على ابن أبى طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله . . . » .

وعاب معاوية وابنه يزيد ، وصب عليهما سيلا من اللعنات ومما قاله عن معاوية : « ثم ولى معاوية بن أبى سفيان ، لعين رسول الله — ﷺ — وابن لعينه ، وجلف من الأعراب وبقية من الأحزاب . . .

ثم لعن المروانيين من دون عمر بن عبد العزيز فقال : « ثم تداولها

بنو مروان بعده (أى بعد مروان بن الحكم) أهل بيت اللعنة، طرداء رسول الله — ﷺ وآله — وقوم من الطلقاء ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان، فأكلوا مال الله أكلا، ولعبوا بدين الله لعباً، واتخذوا عباد الله عبيداً، يورّث ذلك الأكبر منهم الأصغر، فيالها أمة ما أضيعها وأضعفها، ! وقال عن عمر بن عبد العزيز «فبلغ ولم يكد وعجز عن الذى أظهر» حتى مضى لسبيله، ولم يذكره بخير ولا شر، وتحدث عن الشيعة، وأعاب رأيهم فى القول برجعة الموتى ومما قاله عن هذه الفرقة: «شيعة ظاهرت بكتاب الله، وأعلنت الفرية على الله، لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن، ولا عقل بالغ فى الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب»[1] وبعد أن انتهى من بيان كل ذلك وغيره حدث أهل المدينة عن أصحابه وعن عقيدتهم ومنهجهم فى الدعوة، وعن إخلاصهم فى العبادة وهذا ما سأذكره فى الجزء الأخير وهو ما سوف نعوض له بالشرح والتحليل ومن أراد مطالعة الخطبة بأكملها، فليرجع إليها فى كتب التراث.[2].

---

(١) الأغانى لأبى الفرج ج ٢٣ ص ٢٤٣

(٢) مثل البيان والتبيين للجاحظ والعقد الفريد لابن عبدربه والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وتاريخ الطبرى.

النص المختار من الخطبة :

«... يا أهل المدينة قد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى قلتم : هم شباب أحداث وأعراب جفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله — ﷺ — وآله المذكورون فى الخير إلا شباباً أحداثاً ؟ أما والله إنى لعالم بتتابعكم[1] فيما ضركم فى معادكم . ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم . شباب والله مكتهلون[2] فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء[3] عباده ، وأطلاح[4] سهر ، باعوا أنفساً تموت غداً ، بأنفس لا تموت أبداً . قد نظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة ، بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال[5] الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك فى جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله .

---

(١) التتابع : التهافت والوقوع فى الشر ، يقال : تتابعوا فى الخير ، وتتابعوا فى الشر .

(٢) مكتهلون : عاقلون لبلوغهم مبلغ الكهول فى عقولهم .

(٣) أنضاء : جمع نضو وهو المهزول ، وتستعمل للجمل الضعيف والثوب الخلق .

(٤) أطلاح : جمع طلح بكسر أوله وهو المهزول أيضاً .

(٥) كلال : عياء .

حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فُوِّقت، ورماحهم[١] وقد أشرعت[٢]، وسيوفهم وقد انتضيت[٣] وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة، ولقوا شبا[٤] الأسنة وشائك السهام، وظُبات[٥] السيوف بنحورهم، ووجوههم وصدورهم، فمضى الشاب منهم قُدما، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه. واختضبت محاسن وجهه بالدماء، وعُفِّر[٦] جبينه بالثرى، وانحطت عليه طير السماء، وتمزقته سباع الأرض فطوبى لهم وحسنُ مآب، فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله، وكم من يد قد أُبينت[٧] عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً، وكم من وجه رقيق، وجبين عتيق[٨] قد فلق بعمد الحديد ثم بكى وقال: آه، آه، على فراق الإخوان، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحهم الجنان».

إيجاز المضمون :

بدأ أبو حمزة الخطبة (أى الجزء المختار منها) بالرد على أهل المدينة، وقرن أصحابه بأصحاب الرسول — ﷺ —، وكان رده مبنياً على الحجة

---

(١) فوقت: ركبت فى الأقواس للرمى.

(٢) أشرعت: سددت.

(٣) انتضيت: أخرجت من أغمادها وسلت.

(٤) شبا: جمع شباة وهى حد السيف وغيره.

(٥) ظبات: جمع ظبة وهى حد السيف والسنان والنصل والخنجر وما أشبه ذلك.

(٦) عفر: مرغ.

(٧) أبينت: قطعت.

(٨) عتيق: كريم.

والمنطق ثم وصف أصحابه، وذكر أنهم فعلا شباب ولكنهم لا يملكون طيش الشباب ونزقه ومروقه وإنما هم أصحاب عقول كعقول الكهول، وتحدث عن إخلاصهم فى عبادة الله، فهم يغضون أعينهم عن الشر وتتثاقل أرجلهم عن الباطل، وقد هزلوا من العبادة، وباعوا الدنيا، وشروا الآخرة. وتراهم فى الليل وقد انحنوا على القرآن قراءة وفهماً وتأثراً، فهم يبكون تأثراً عند ذكر آيات الجنة، ويشهقون من عجبٍ عند ذكر آيات النار.

وهم يقومون الليـــل للصلاة والعبادة حتى أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم، فليلهم قراءة وصلاة وذكر وعبادة، ونهارهم صيام وقيام وركوع للصلاة، وهم يعدون ذلك قليلا، ثم استكمل الحديث عن صفاتهم وفضائلهم، فتحدث عن الوفاء بعهد الله، والإنجاز لوعده سبحانه وتعالى.

ثم انتقل أبو حمزة إلى الحديث عن جهادهم فى سبيل الله، فعندما يدعوهم داعى الجهاد، ويرون العدو وقد جهز عتاده، وأخرج سيوفه، وسدد رماحه يتقدمون كالأسود المتوثبة مستخفين بوعيد الكتيبة، ويواجهون سلاح الأعداء بنحورهم ووجوههم وصدورهم، وترى الشاب منهم وهو على حصانه يدفعه إلى الكر والعدو فتتصل رجلا الفارس على عنق الفرس، وتختلفان فيهوى الخارجى إلى الأرض، وهم يستخفون بالموت ولا يحترصون للحياة، وتختضب وجوههم بالدماء، وتعفر جباههم بالتراب، ثم تحدث عنهم بعد الاستشهاد فى سبيل الله فذكر ما كانت تؤديه جوارحهم قبل الشهادة، فكم من عين أصبحت فى منقار طائر وقد كانت تبكى فى سبيل الله، وكم من يد فصلت عن ساعدها وكان صاحبها يعتمد عليها فى الركوع والسجود، وكم من وجوه رقيقة مزقها الحديد! ثم بكى على هؤلاء الشهداء وطلب لهم من الله الرحمة لأبدانهم والجنة لأرواحهم.

وقد حدد أبو حمزة رسالة الخوارج من حيث الإخلاص فى العبادة والجهاد فى سبيل الله ، ورد على أهل المدينة رداً منطقياً معقولا يمكن الاقتناع به .

ملامح التعبير :

١ — نوع أبو حمزة فى خطبته بين الخبر والإنشاء فقد ابتدأها بأسلوب إنشائى فقال : « يا أهل المدينة » والنداء هنا للتنبيه وجذب الأنظار وهو يشعر بالدهشة ، وقوله : « هل كان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم وآله — المذكورون فى الخير إلا شباباً أحداثاً » ، وهذا استفهام معناه النفى . وقوله : « فطوبى لهم وحسن مآب » ، وقوله : « رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحهم الجنان » ، أساليب خبرية فى اللفظ لكنها إنشائية فى المعنى وتفيد الدعاء .

والأساليب الخبرية فى الجزء الأول من الخطبة وهو ما تحدث فيه — أبو حمزة عن إخلاص الخوارج فى العبادة — خرجت إلى معنى مجازى وهو المدح كقوله : « غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ... » .

وفى الجزء الثانى الذى تحدث فيه عن جهادهم واستشهادهم ، جاءت الأساليب خبرية لإظهار الحزن والألم والحسرة والتوجع .

٢ — الألفاظ المفردة فى الخطبة منتقاة وموحية ومعبرة وذات جرس قوى ومتواكبة مع الموضوع الحماسى العقدى الجياش ، والممتلىء الزاخر بالحيوية والإيمان .

ففى الجزء الأول اختار الألفاظ التى تعبر عن الخشوع والتقوى مثل غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، منحنية

أصلابهم ، بكى شوقا ، شهق ، وصلوا كلال الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، موفون بعهد الله » .

ومن الألفاظ التى تؤكد جهادهم ، وتوضح استهانتهم بالموت قوله : « برقت الكتيبة ، رعدت بصواعق الموت ، لقوا شبا الأسنة وظبات السيوف بنحورهم ، انحطت عليه طير السماء ، تمزقته سباع الأرض ، قدّ ُ ق بعمد الحديد » .

ومن الكلمات المؤثرة وذات الجرس القوى قوله : « مكتهلون ، أصلابهم ، فوقت ، انتضيت ، بصواعق الموت ، واختضبت ، أبينت ، بعمد الحديد ...

٣ ــ التعبير فى الخطبة دقيق ومحدد ، فالجمل متوازنة ، والفقرات مقسمة ، والعبارات محكمة ، وهى تتراوح بين الطول والقصر ، انظر إلى قوله :

غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم .

فالجملتان متوازنتان فضلا عما فيهما من سجع ، وهو توافق الفواصل فى الحرف الأخير ، وحركته ، وانظر إلى حسن التقسيم فى قوله : أنضاء عباده وأطلاح سهر ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم .

وأهم مايميز الأسلوب أن أباحمزة استعان فيها بالمحسنات اللفظية التى لا ترهق الألفاظ ، كالسجع فى قوله : « أعينهم ، وأرجلهم » و « ألوانهم ، أجسامهم » و « القيام ، الصيام » و « فوقت ، أشرعت ، انتضيت » و « رقيق ، عتيق » و « الأخوان ، الأبدان ، الجنان » .

والجناس رديف السجع وهو يؤثر تأثيره ويوحى إيحاءه ، راجع بعض الكلمات السابقة مثل « الصيام والقيام » .

ومن الألوان البديعية التى استعان بها أبو حمزة فى توشية الأسلوب، الطباق والمقابلة كقوله : «شباب مكتهلون» و «الجنة والنار» و «الليل والنهار» و «استخفوا ولم يستخفوا» و «تموت غداً، لا تموت أبداً».

٤ — عمد الخطيب إلى تكرار كم الخبرية للدلالة على الأسى واللوعة كقوله «فكم من عين — وكم من يد — وكم من وجه».

واستعان بعدة ألوان من المؤكدات اللفظية، مثل أسلوب القصر فى قوله : «هل كان أصحاب رسول الله — ﷺ — إلا شباباً أحداثاً» وهل بمعنى (ما) وكالتوكيد بالقسم وإن واللام فى قوله : «أما والله إنى لعالم» وبقد، كقوله : «وقد أشرعت».

كما استعان «بالحال مفردة وجملة كقوله منحنية أصلابهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسادهم، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوقت، ورماحهم وقد أشرعت.

اعتمد فى أسلوبه على السرد والقص ونلاحظ ذلك من خلال الخطبة متنقلا فيها من فقرة إلى فقرة ومن موقف إلى آخر، وأكثر فى مفرداته من النعوت التى وصف بها أصحابه، وأبان عن جهادهم وقوة عقيدتهم.

الخيال والعاطفة :

اعتمد أبو حمزة فى رسم صورة أصحابه على التصوير الخيالى، والعاطفة الصادقة القوية من خلال الواقع النقلى (التاريخى) مع الاستعانة بالأسلوب النابض الموحى المعبر، ولهذه الأسباب مجتمعة استحوذت الخطبة على إعجاب الكثيرين. ومن الاستعارات الجميلة التى جاءت فى الخطبة قوله :

« باعوا أنفسنا تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً ، أى اشتروا الآخرة بالدنيا ، فقد جعل الأنفس شيئاً محسوساً يباع ويشترى .

وقوله : « أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم » تشخيص للأرض بالمكنية ، فقد جعلها كائناً يلتهم وينهش الجوارح والأطراف ، والاستعارة توحى بكثرة الصلاة ، وطول السجود . وقوله : « وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت » استعارة مكنية أخرى ، فقد شخصها وجعلها كائناً يبرق ويرعد .

ومن الكنايات التى استكمل بها ملامح الصورة الكلية لأصحابه قوله : « غضيضة عن الشر أعينهم » وهو كناية عن العفة وقوله : « ثقيلة عن الباطل أرجلهم » كناية عن البعد عن الذنوب والمعاصى وقوله : « نظر الله إليهم » كناية عن رضاه عنهم وقبوله لهم ، وقوله : « حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه » كناية عن الموت فوق الفرس مع محاولة التمسك بالحياة .

وقد استوحى هذه الصور من البيئة العربية ، ونلمح فيها شدة الفزع وقسوة الصراع بين الفئات المتناحرة .

الدلالة التاريخية :

تعبر الخطبة عن رأى الخوارج وفكرهم وعقيدتهم فى العصر الأموى ، وقد انطلق أبو حمزة من الدين إلى السياسة يتحدث عن أصحابه ، ودافع عنهم ، وأشاد بإخلاصهم فى العبادة والجهاد ، وكان ما ذكره بمثابة تبرير للثورة التى قاموا بها ضد الأمويين فى أرض الحجاز وهى من الناحية الدينية تشير إلى الانشقاق العقائدى فى هذا العصر ، ومن الناحية السياسية تبرز دور الأحزاب المناوئة فى زعزعة الحكم وعدم استقراره ، ودل هذا

الصراع على عجز الأمويين فى السيطرة على ممتلكات دولتهم مما ساعد على قيام الأسرة العباسية بدور جديد بعد سنتين من هذه الأحداث. وتحولت الخلافه من الشام إلى العراق، وقد استمر الخوارج على منهاجهم ولم يغيروا منه مع العباسيين.

ويمكن من قراءة هذه الخطبة بيان عصرها، والاستدلال على شخصية قائلها، فهو ثائر شجاع وقائد همام قوى العقيده، ناصع الحجة، معتز بأصحابه متأجج العاطفة، وأفكاره مرتبـــة، وأسلوبه منطق، ومقتنع بآراء الخوارج واتجاهاتهم السياسية والدينية.

القسم الثاني

من روائع الأدب العربي في العصر العباسي الأول

أولا : الشعر :

قصيدة فى الغزل لبشار بن برد

نبذة عن حياة بشار :

ولد بشار بن يرجوخ بالبصرة سنة ست وتسعين من الهجرة ، وكان جده (يرجوخ) من طخارستان ،[1] وممن سباهم (المهلب بن أبى صفرة) عند ولايته على خراسان بين عامى (٧٨ ﻫ و ٨٢ ﻫ) وكان قد أهداه إلى زوجته (خيرة بنت ضمرة القشيرية) حيث كانت تقيم بضيعة لها فى البصرة، وكان (برد) برفقة والده ، فنشأ على الرق ، وفى عداد من تملكهم امرأة المهلب .

وتزوج (برد) امرأة رومية ، ووهبته (خيرة) إلى امرأة من بنى عقيل ، وولدت امرأته بشارا وهما على الرق فى ملك (العقيلية) والتى أعتقت بردا وابنه ، وعدا بذلك من موالى بنى عقيل أو أعتقت بشاراً وحده ، ولذلك يقال فى نسبه العقيلى ، وأنشد عن نسبه فيما بعد :

إننى من بنى عقيل بن كعب

موضعَ السيف من طُلى الأعناق[2]

وأشار إلى أصل أمه الرومى ، فقال :

وقيصرٌ خالى إذا عددت يوما نسبى[3]

---

(١) طخارستان من نواحى خراسان ببلاد فارس . وضبطها (ياقوت) بفتح الطاء ، أنظر معظم البلدان

(٢) الديوان ﺟ ٤ ص ١٣٧ تحقيق الطاهر بن عاشور

(٣) الديوان ﺟ ١ ص ٣٨٩

على أن هذا البيت يختلف مع رواية بالأغانى — وما أكثر روايات الأغانى — وجاء فيها أن خيرة وهبت بردا .. « بعد أن زوجته لامرأة من بنى عقيل كانت متصلة بها ، فولدت له امرأته وهو فى ملكها بشارا ، فأعتقته العقلية »(١) .

واختلف المؤرخون فى أصل بشار وفى نسبة من جهة أبيه وأمه اختلافا كثيراً ، وقد ولد كفيفاً ، وأصابه الجدوى فصار قبيح المنظر ، قال :

عميت جنينا والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم معقلا(٢)

ويُكنى بأبى معاذ ، ويلقب بالمرّعث ، لأنه كان فى أذنه وهو صغير رعاث وهو القرطة ، ونشأ فى البصرة ، وتفتحت قريحته بقول الشعر ، ولم يبلغ عشر سنين ، وقال : « هجوت جريراً ، فأعرض عنى . واستصغرنى ، ولو أجابنى لكنت أشعر الناس »(٣) . ولم يقصد بشار أن يغلبه ، ولكن ليجيبه حتى يكون من طبقته ،

وكان والده (طيّانا) ويبدو أنه مات ، ولم يتجاوز بشار المرحلة الأولى من عمره والتى لهج فيها بقول الشعر .

وذكرت المصادر التاريخية أن له أخوين هما بشر وبشير ، وتزوج بامرأة تسمى (أمامة) وأنجب منها ، وله شعر فى رثاء ابن وابنة له ، غير أن حياته الاجتماعية لم تكن بالصورة المألوفة فكان يعيش على نظام خاص ، وترعاه جارية له تسمى (ربابة) وكانت له جارية أخرى سوداء ، ولعلها السندية التى لم يتبع جنازته سواها .

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٣٦ طبعة دار الكتب المصرية

(٢) الديوان جـ ٤ ص ١٥٨ (٣) الأغانى جـ ٢ ص ١٤٣

وتحدث الأصمعي عن صفاته فقال : « كان بشار ضخما ، عظيم الخلق والوجه ، مجدورا ، طويلا ، جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظراً ، وكان إذا أراد أن ينشد صفّق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب »[١] .

وكان قوي البدن موفور الصحة عالي اللسان دقيق الحس شديد الذكاء ، ولديه شعور بالنقص لعاهته ودمامته ، كما أنه من الموالي ، ولذلك سخر لسانه في إثبات قوته وتعويض نقصه وإظهار براعته في المجون والهجاء ، وإن ذكر أحياناً أنه ضعيف جداً أمام المرأة .

ولم تنعكس عاهته وفارسيته على شعره فحسب ، بل أثرت أيضاً على مدى ولائه للعرب أو الفرس ، فهو يفتخر ببني عقيل . وبني عامر وبقيس عيلان ، وليس في تعدد هذا الفخر تلونا على حد قول الطاهر بن عاشور .. « لأن بني عقيل بن كعب هم من بني عامر بن صعصعة ، وبنو عامر بن صعصعة هم من قبائل قيس عيلان بن مضر »[٢] . ولكننا نقصد التلون الذي يجعل بشاراً يفخر بنسبه العربي ثم ينتقل إلى الفخر بنسبه الفارسي ، وفي شعره أمثلة كثيرة لذلك .

وكان مضطربا في عقيدته ، متساهلا في دينه ، لتظاهره بالمفاسد والمنكرات . ورمي من خصومه بالإلحاد والزندقة ، وعرّض نفسه لكراهية أهل الدولة وفي مقدمتهم المهدي (الخليفة العباسي) ووزيره يعقوب بن داود ، وأمعن في تطاوله فهجاهما ، وهجا واصل بن عطاء زعيم

---

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٤١

(٢) مقدمه ديوان بشار ج ١ ص ١٢

كما أنه لم يكتسب عطف الأمراء ولا ود الشعراء ، وأخذ الناس يلحون على المهدى أن يمنع عنهم أذى هذا الشاعر الهجاء الماجن ، ولذلك كانت نهاية سيئة جداً ، على أن من يقرأ أشعاره سوف يجد فيها الخلاعة والعقائد الباطلة ، وسوف يجد فيها أيضاً الإيمان الصحيح واتباع شرائع الإسلام .

وجاء إلى المهدى من شهد بأن بشاراً من الزنادقة فأمر بقتله بصورة يتعظ الناس منها ، وقد ضرب سبعين سوطاً ، فمات على إثرها ، وألقى فى البطيحة بالبصرة ، وحمله بعض الناس إلى مثواه الأخير سنة ثمان وستين ومائة بعد أن بلغ نيفاً وسبعين سنة ، وذكر أبو الفرج أن المهدى ندم على قتله . فقال : « لا جزى الله يعقوب بن داود خيراً ، فإنه لما هجاه لفق عندى شهوداً على أنه زنديق فقتلته ، ثم ندمت حين لا يغنى الندم »[1] .

وبشار واحد من الشعراء المطبوعين المكثرين فى العصر العباسى ، وقد تنوعت أغراض شعره وإن برع فى المدح والغزل والهجاء ، وله أشعار جيدة فى الفخر والوصف والحكمة ، كما كان راجزاً وصاحب نوادر تضحك وتبكى ، فأعجب به كثيرون من شباب البصرة وخلعائها ونسائها ، واختلف الناس حول شعره ، وإن لم يختلفوا حول خلاعته ومجونه وغزله الإباحى المكشوف ، وسوف نتعرف على بعض الجوانب الأخرى من شعره خلال عرضنا لإحدى قصائده الغزلية .

---

(١) الأغانى ج٣ ص ٢٤٩

القصيدة

قال(*) :

١ — لقد زادنى ما تعلمين صبابةً
إليكِ فللقلبِ الحزينِ وجيبُ

٢ — وما تذكرين الدهر إلا تهللت
لعينىّ من شوق إليك غُروب

٣ — أبيتُ وعينى بالدموع رهينةٌ
وأصبح صبّا والفؤاد كئيب

٤ — إذا نطق القوم الجلوس فإننى
أُكِبُّ كأنى منْ هواكِ غريب

٥ — يقولون : داء القلب جنٌّ أصابه
ودانٍ غزال فى الحجال ربيب

(*) الديوان جـ ١ ص ٢٠٥ .

(١) الصبابة : رقة الشوق وحرارته ، وجيب القلب : اضطرابه ، والحديث موجه إلى محبوبته (عبْدة) .

(٢) غروب : دموع .　　　　(٣) صبا : مشتاقا .

(٤) أكب : أطرق ، وجاء فى الأغانى (مكب) بدلا من أكب .

(٥) الضمير فى يقولون عائد على (القوم الجلوس) ، وجملتا داء القلب وجن أصابه مقول القول أى به داء القلب وبه جن أصابه . والغزال : ولد الظبية ، والحجال : الخلخال (بفتح الخاءين) ، والربيب : المربى (بضم الميم وفتح الباء مع تشديدها .

٦ — إذا شئتُ هاج الشوق واقتاده الهوى
إليكِ من الريح الجنوب هُبوب

٧ — هوى صاحبي ريحُ الشمال إذا جرت
وأهوى لقلبي أن تهُبَّ جنوب

٨ — وما ذاك إلا أنها حين تنتهي
تناهَى وفيها من «عُبيدةَ» طيب

٩ — وإني لمسْتشفٍ «عبيدة» إنها
بدائي — وإن كاتمْته — لطبيب

١٠ — كقارورة العطار أو زاد نعتها
تلين إذ عاتبتُهـا وتطيب

١١ — لقد شغلتْ قلبي (عبيدة) في الهوى
فليس لأخرى في الفؤاد نصيب

---

(٥) شئت (لعلها تحريف لكلمة بنت) اقتاد: بمعنى قاد، وقوله: «من الريح الجنوب هبوب» بيان لجهة حلولها، وكأنها جواب لسؤال مفاده: بأية جهة بانت ؟

(٧) لعله يقصد بقوله: «صاحبي» زوج عبدة، لأن بشارا يصاحب ذكره، وكان هوى صاحبه ريح الشمال، لأنها تهب من ورائهم (أي هو وعبدة) في السير إلى عمـــان، وأحب بشار ريح الجنوب، لأن عمان بالجنوب من البصرة حيث يوجد، وفي الأغاني: «وأشفى لقلبي» بدلا من (وأهوى لقلبي) ج ٣ ص ١٧٧.

(٩) لمستشفٍ عبيدة: جعل من عبيدة شفاء له.

(١٠) القارورة: وعاء من الزجاج تحفظ فيـــه السوائل أو الطيب، وتشبه بها المرأة.

١٢ — ألا تتقين الله فى قتل عاشق
له حين يُمسى زَفرة ونحيب

١٣ — يُقطع من أهل القرابة وُدّه
فليس له إلا هواكِ نسيب

١٤ — تُمنِّينى حسن القضاء بعيدةً
وتَلوينى دَينى وأنت قريب

١٥ — فو الله ما أدرى : أيجحدُ حبنا
«عُبيدة» أم تَجزى به فتُثيبُ

١٦ — وإنى لأشقى الناس إن كان حبها
خصيباً ومُرتاد الجناب جديب

١٧ — وقائلةٍ : إن مِتَّ فى طلب الصبا
فلابد أن تُحصى عليك ذنوب

١٨ — فرم توبةً قبل الممات فإننى
أخافُ عليك الله حين تؤوب

١٩ — تكلف إرشادى وقد شاب مَفرِقى
وحمّلنى أهلى فليس أريب

---

(١٢) زفرة : خورجة النفس (آهة) نحيب : بكاء شديد .

(١٣) نسيب : عشق وتشبيب .

(١٥) جعل وفاء عبدة له جزاء وثوابا .

(١٦) خصيبا : كثيرا ، مرتاد : اسم مكان من ارتاد ، الجناب : الفناء وما قرب من محلة القوم ، جديب : غير خصيب (أى محل ارتياد قلبه منها جديب) . (١٧) مِت : مت

(١٩) حملنى أهلى : حمل أعباء أهله ، ليس أريب : ليس محلا للريب .

٢٠ — فقلت لها : لم أجن فى الحب بيننا
آثاما على نفس ، فيم أتوب ؟

٢١ — أرانا قريباً فى الجوار ونلتقى
مراراً ، ولا نخلو ، وذاك عجيب

٢٢ — ألا ليت شعرى : هل أزورك مرة
وليس علينا يا « عبيد » رقيب

٢٣ — فنشفى فؤادينا من الشوق والهوى
فإن الذى يشفى المحب حبيب

٢٤ — وما أنس مما أحدث الدهر للفتى
وأيامه اللاتى عليه تنوب

٢٥ — فلست بناس من رضابك مشربا
وقد حان من شمس النهار غروب

٢٦ — فبت لما زودتنى ، وكأننى
من الأهل والمال التلاد حريب

٢٧ — إذا قلت ينسينيك تغميض ساعة
تعرض أهوال لكم وكروب

* * *

(٢٤) حذف حرف العلة من الفعل (أنسى) لضرورة الشعر ، تنوب تتناوب .

(٢٥) الرضاب : الريق .

(٢٦) المال التلاد : المال القديم ، الأصلى الذى ولد عند صاحبه ، حريب : مسلوب المال ، والزاد : ما يكتسبه الإنسان من خير أو شر .

(٢٧) كروب : جمع كرب وهو الغم الذى يأخذ بالنفس .

إطلالة على النص :

هتف بشار بهذه القصيدة الغزلية في محبوبته (عبدة)، وكانت قد خرجت مع زوجها من البصرة إلى عُمان، فتشوق إليها وهام بها .

وإذا كان قد تغزل في مجموعة من النساء — ورد ذكرهن في شعره — فإن احتفاله بعبدة كان متميزا، فهو يشتكي من فراقها، ويدعوها للوصال بأدب جم يختلف في شكله ومضمونه عما قاله في الأخريات، فهو يتحدث إليها بما لا يخدش الحياء، ويدعوها لأن تتقي الله فيه وتنعم عليه باللقاء، وقد عقد أبو الفرج في الأغاني فصلا خاصا بأخبار بشار وعبدة، وذكر فيها رفع سنده إلى الأصمعي أنه « كان لبشار مجلس يجلس فيه يقال له البَرَدان، فبينما هو في مجلسه ذات يوم وكان النساء يحضرنه، إذ سمع كلام امرأة يقال لها عبدة في المجلس، فدعا غلامه فقال: إني قد علقت امرأة، فإذا تكلمت فانظر من هي واعرفها، فإذا انقضى المجلس، وانصرف أهله فاتبعها وكلمها وأعلمها أني لها محب، وأنشدها هذه الأبيات، وعرفها أني قلتها فيها :

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم
الأُذن كالعين تُوفي القلب ما كانا

ما كنتُ أول مشعوف بجــارية
يلــقى بلقيانها رَوحاً ورَيحــانا

ويروى :

هــل من دواء لمشغوف بجارية

ياقوم أذْنى لبعض الحى عاشقة
والأذن تعشق قبــل العين أحيانا

وقال الأصمعي (راوي الخبر) : فأبلغها الغلام الأبيات ، فهشت لها ، وكانت تزوره مع نسوة يصحبنها ، فيأكلن عنده ، ويشربن وينصرفن بعد أن يحدثها وينشدها ، ولا تطمعه في نفسها »[1] .

وذكر أبو الفرج لبشار كثيراً من الأشعار التي قالها في عبدة ، والتي شخص فيها عاهته ، وأنه ليس محتاجاً للبصر لكي يدرك ويستشعر حبه لها وغرامه بها .

ونعود فنؤكد أن أكثر أشعاره فيها (بخاصة) تميل إلى اللون العذري الذي اتجه جميل وأضرابه من النجديين والنازلين بوادي الحجاز ، وليست البائية التي بين أيدينا إلا واحدة من هذه القصائد التي تبعد عن الإسفاف ولا تخدش الحياء ، وقد قالها عندما تركت (عبدة) البصرة ، واتجهت مع زوجها إلى عمان ، فذكر هذه القصيدة ، متشوقا إليها ومتغزلا فيها .

شرح الأفكار :

سيبقى تقسيم النص إشكالية لدى كل من ينهض بالكشف عن أفكار القصيدة الشعرية ، وأعتقد أن التقسيم ينبع من النص وليس من خارجه ، فبعض القصائد تبرز فيها الأفكار العامة التي تندرج تحتها المعاني الجزئية ، ولذلك لا يجد المتذوق عسرا في الفصل بين الأفكار ، وفي وضع عناوين لكل مجموعة من الأبيات .

وفي بعض القصائد الأخرى تنساب الأفكار الجزئية في دفقات شعورية بحيث يعجز المتلقي للنص عن تقسيمه إلى وحدات أو مقاطع ذات مضامين مستقلة ، وتتصل هذه القضية من قريب بما تعارف الناس عليه في العصر الحديث بالوحدة العضوية أو الفنية ، وهي التي تتعانق مع

---

(١) الأغاني جـ٦ ص ٢٤٢ ، ص ٦٤٣ .

مجموعة أخرى من العوامل فى تشكيل ما يسمى بالتجربة الشعرية ، ونأتى إلى قصيدة بشار ، وهى تعرض — بأبياتها السبعة والعشرين — لعلاقة الحب التى تربط بين بشار وعبدة وهى علاقة كثر حولها الجدل قديما وحديثا ، فالشاعر يؤكـــد لمحبوبته رقة شوقه وحرارة عاطفته بسبب ما بينهما من حب انعكس أثره على قلبه الذى بدا قلقا مضطربا ، وذكر أنه يحن إلى ماضى الذكريات ، وتتساقط الدموع من عينيه حيث يبيت باكيا ملتاعا ، ويصبح مشتاقا وكئيبا . أى أن العشق والبكاء يلازمانه فى الصباح والمساء .

وذكر فى البيتين (.الرابع والخامس) تأثير الحب عليه ، فإذا نطق القوم بقصة عشقهما أطرق ، أو أصم أذنيه كأنه غريب أو مقطوع الصلة بهذا الحب ، فيبدو لهم وكأنه مريض بقلبه أو به مس من جنون ، ولكن علته فى حبه لعبدة التى تشبه الغزال (الربيب) .

ويود — إذا شاء — أن يحمل الهوى شوقه إليها حيث تهب عليه ريح الجنوب من (عمان) فى محل وجودها ، ولذلك فهواها من الشمال وحبه مع هوى الجنوب الذى يحمل له من عبيدة كل طيب .

وذكر أنه يستشفى من دائه بعبدة ، فهى الدواء ، وهى كقارورة العطار تلين وينبعث منها الطيب ، وقد شغلت قلبه وليس به مكان لأخرى ويدعوها للرأفة به والإشفاق عليه ، ويحضها على تقوى الله فيه ، حيث يعانى من الموت (أو القتل) البطىء ، أما فى المساء فليس له إلا الإجهاد والبكاء .

ودكر أنه قاطع أهله ، ولم يعـــد له نسب مكتفيا بحبها وهواها ، وهى تمنيه فى اللقاء ، وتماطل فى الوفاء مع أنها قريبة منه ، ويقسم أنه لا يدرى ماذا سيكون منها .. هل ستتنكر لحبه أم ستفى به وتثيب عليه ، وهو مع ذلك أشق الناس ، لحبها مرتع خصب ، ومحل ارتياد قلبه منها مقفر مجدب ، أى أن قلبه متعطش للارتواء من حبها الخصيب .

وتنهض فى الأبيات (١٧ ، ١٨ ، ١٩) بإرشاده ، وتوجيه النصح له (حسب قوله) فذكرت أنه سيكون مذنبا إذا مات عـــلى العشق ، ولهذا ترشده إلى التوبة ، خوفا عليه من لقاء الله ، ويعجب من نصيحتها ، وهو الذى شابت رأسه ، وتحمل أعباء أهله بلا ريب ، وأكد أنه لم يذنب فم يتوب؟ وهما قريبان فى الجوار ويلتقيان كثيرا ولا يخلوان مع بعضهما ، وهذا عجب ، ويتمنى أن يزورها مرة بلا رقيب حتى يشفيا قلبيهما ، ويرويا ظمأ هما فلا يشفى المحب إلا الحبيب، وهو لا ينسى ما فعل الزمن به مع أن أيامه معدودة ، وهو لا ينسى يوم ارتشف ريقها قبيل الغروب ، وصار لحرمانه ، وكأنه مسلوب الأهل والمال ، ويعجب عندما يطلب منها غفوة عشق يسلى وينسى فيها فلا يجد منها إلا الأهوال والكروب .

خصائص الأسلوب :

تجلت بعض مظاهر التجديد فى مطالع هذه البائية فلم يكن الشاعر مقلدا لأسلافه الجاهليين أو الأمويين المتقدمين ، فليس ثمت حديث عن الخمر أو الأطلال ، وإنما أعلن منذ البداية فى أسلوب مشمول بالتأكيد عن عن صبابته واضطراب قلبه ، ثم تنهمر الدموع من عينيه حسب قوله فى الأبيات التى استهل بها القصيدة، والدموع دليل ضعف وصدق، وفيها بعض الرائحة من شعر جميل وأضرابه .

لقد تبلورت بعض مـــلامح التطور فى الفن الشعرى لدى بشار، فلا يخفى أنه كان رأس مدرسة للتجديد فى أوائل القرن الثانى من الهجرة ، ولننظر إلى التأكيد الذى بدأ به البيت الأول ، ثم فى التخصيص الذى احتوته كلمة (زادنى) ، وقوله : « تعلمين » يكشف عن دلالات كثيرة ، أهمها رغبة الشاعر فى عدم كشف ما بين الحبيبين من

من أسرار ، والزيادة فى بناء كلمة (تهلت) يصحبها زيادة فى المعنى المراد ، وهو كثرة الدموع ، وتوحى كلمة (رهينة) بالملازمة والاستمرار كالشىء المرهون الذى لا ينفك عن قابضه ، وأسهم الطباق بين (أبيت) و(أصبح) فى التأكيد على ملازمة الحزن والعشق للشاعر .

وفى البيت الخامس إيجاز بالحذف فى قوله : « داء بالقلب » و « جن أصابه » وهو تعبير يقتضيه الحال ، أما قوله : « إذا شئت » فليس له قيمة، فالشوق يأتى عفوا ومن غير إرادة ، كما أن كلمة (الريح) لا تتلاءم مع الموقف ، وهى زائدة وربما اقتضتها ضرورة الشعر ... ولننظر إلى الأبيات التى قدم الشاعر فيها (عبدة) فى صيغة التصغير حتى يتناسب ذلك مع التمليح والنسيب .

ويعود إلى التأكيد (باللام وقدم) فى البيت الحادى عشر ، وتبرز ملامح عشقه فى ترديد اسم (عبيدة) فى عدة مواضع ، وتتجلى مشاعره الإسلامية فى الأبيات (الثانى عشر إلى الخامس عشر) كتقوى الله ، وصلة القربى ، وحسن القضاء ، والقسم بلفظ الجلالة ، وهو متأثر بجميل بن معمر فى مجموعة من الأفكار الجزئية هنا — كما يعبر بالأسلوب الخبرى الذى يرمى به إلى الاستعطاف والاسترحام .

ويسهم الطباق بين (بعيدة) و (قريب) فى الدلالة على الهوة السحيقة بين أمنيته فى اللقاء والمماطلة فى التحقيق . أما كلمة (تلوينى) فهى ثقيلة ثقل الانتظار وعدم الوفاء ، والطباق فى البيت الخامس عشر لا يقل فى أداء الغرض عن نظيره السابق ، والطباق فى البيت السادس عشر للتعبير عن الفوارق بين الرغبة والاستجابة وذلك فى قوله : «خصيبا» و«جديب» ، والاستفهام للتحسر فى قوله : «أتجحد حبنا ...؟» .

أما الموت من العشق والذى أبرزه الشاعر فى عدة أبيات فهو كثير فى أقوال الشعراء (العذريين بخاصة) .

ويسهم الحوار فى إبراز الغرائز والانفعالات وإثارة الانتباه لدى المتلقى ، والاستفهام فى البيت (العشرين) يكشف عن حسرة الشاعر لعدم اللقاء ، والاستفهام فى قوله : «هل أزورك مرة» للتمنى ، وقوله : «فنشق فؤادينا» يدل على الحب المتبادل بين الاثنين ، ويوحى الغروب بانقطاع الأمل فهو نهاية للحركة وبداية للسكون ، وكلمة (حريب) تعبر عن يأس الشاعر وحرمانه . ولعل حرصه على استعمال الجموع — وهو بصدد إبراز هذا اليأس — ما يؤكد على التوافق بين الألفاظ والمعانى ، وبين أيدينا من القصيدة جموع متعددة كقوله : «أهوال وكروب» وقبلها كلمات كثيرة لا تقل عنها فى تأكيد الترابط بين الألفاظ والحالة الشعورية .

وقد وفق (بشار) فى تطويع بحر الطويل ، لكى يتناسب مع الغزل ذلك الفن الذى اعتاد الشعراء التنغم فيه بالبحور الخفيفة ، والمجزوءة كثيرا ، كما أضاف إلى الموسيقى الظاهرة ألوانا من التنغيم بالطباق والتنويع فى الأسلوب ، والألفاظ المنتقاة التى تتلاءم مع القافية ، وإن كنا لا نعول كثيراً على الربط بين الوزن والموضوع .

العاطفة والخيال :

تحدث الدكتور طه حسين عن بشار بن برد وشعره فقال : «كان شديد الولع بالنساء مسرفا فى التشبيب ، مفتنا فيه فنوناً لم يسبق إليها ، وكأنه لم يلحق فيها أيضاً ، كان شعره كله إغراء بالفجور ، وحثا على الفسوق ، وإفسادا حتى لأشد النساء حرصاً على الشرف وأوفرهن حظا من الإحصان ...»[1] .

---

(١) حديث الأربعاء جـ ٢ ص١٩٣ طبعة دار المعارف بمصر .

وأعتقد أن فى كلام الدكتور طه حسين مبالغة يؤكدها المطبوع من ديوان بشار ، والقصيدة التى بين أيدينا لا تزيد فى ألفاظها ومعانيها عن قصائد أخرى لكثير من الشعراء الأمويين على وجه الخصوص ، لكنها تشبه قصائد (جميل) فى التعفف والعذرية والنقاء .

ويبدو أنه عندما كتب مقالاته فى مجلة السياسة والتى جمعت بعد ذلك فى (حديث الأربعاء) لم يكن قد أتم قراءة كل ما احتواه ديوان بشار الذى ظهر مطبوعاً فيما بعد واقتصر — حسب ظنى — على الأغانى وبعض الكتب الأخرى ، مع أن أبا الفرج ذكر نماذج عديدة من شعر بشار تخلو من الفحش والفجور ، وبخاصة ما جاء فى الفصل الذى جعله لأخبار بشار وعبدة .

وقال طه حسين عن غزل بشار أيضاً : «لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقاً ، وإنما يمثل أمرين اثنين : يمثل تهالكا على اللذة ، وإفحاشاً فى هذا التهالك ، وافتناناً فيه أيضاً دون أن يراقب الشاعر فى ذلك خلقاً أو أدباً أو ديناً ...»[1] .

ونجد فى ديوان بشار شعراً كثيراً لا يتفق مع الإفحاش والتهالك على اللذة التى وصف طه حسين شعره بها كقوله :

أنسٌ غرائر ما هممن بريبة   كظباء مكة صيدهن حرام

يُحسبن من لين الحديث زوانياً   ويصدهن عن الخنا الإسلام[2]

وقوله :

يا عبدَ أنت ذخيرتى   نفسى فدتك وجيرتى

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ص ٢٠٤ .
(٢) الديوان جـ٤ ص ٢١٢ .

الله يعـــلم فيكمُ يا عبد حسن سريرتى
نفسى لنفسك خُـــلة وكذاك أنتِ أسيرتى[1]

ولنرجع إلى البائية التى معنا ، فهى تمثل الجانب الراقى المتحضر من غزل بشار ، بما فى هذا الجانب من ورع وعفة ونقاء .

ولا نقصد — هنا — أن ندافع عن الفحش والمجون والإسفاف، فى غزله ، فهو كثير فى ديوانه، ومعروف للكثيرين .

ويلمس طه حسين عاطفة الحب عنده فيقول : « هل أحب بشار حبا صادقا ؟ هذا سؤال أحاول أن ألتمس الجواب عليه فى شعر بشار ، فلا أجد إلى ذلك سبيلا »[2] .

لقد تغزل بشار فى الكثيرات ، وربما مارس فى شعره معهن الكذب والتمهر والتكلف، ولكن أكثر شعره فى عبدة كان مختلفا، خاصة وأن البائية تؤكد ذلك فشعره نابع من قلبه ووجدانه ، وما علينا بعد ذلك أنه لم يحترم عاهته ، أو أنه كان رأس مدرسة للتجديد فى القرن الثانى ، أو أنه جاهر فى الكثير من غزله بما لم تعتاده البيئة العربية فى ذلك الوقت ، وقد أثرت عاهته على تصويره الحسى فى القصيـــدة التى معنا ، فلم يبرز فيها الأوصاف الحسية أو الخلقية ، بل اقتصر على البكاء واللوم والوجوم وتأثير الحب عليه ، ودعوته لعبدة بتقوى الله فيه ، وأمنيته فى التداوى بحبها ، وهى أفكار بسيطة أو ساذجة .

وفى النص بعض الصور الخيالية التى لايخفى أثرها كقوله : « والفؤاد كئيب » حيث شخص الفؤاد ، وأبرزه فى صورة تتلاءم مع الحزن

---

(١) الديوان جـ ٤ ص ٣٦ وخلة : خليلة .
(٢) حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٢٠٧ .

والدموع ، كما شبه محبوبته بالغزال الربيب فى قوله : « وداني غزال » على سبيل الاستعارة التصريحية ، وقوله « هاج الشوق » و « اقتاده الهوى » استعارتان مكنيتان تبرزان الشوق والهوى فى صورة مجسمة (ملائمة) .

وجعل فى البيت التاسع (عبدة) الداء والدواء ، ثم شبهها بقارورة العطار فى اللين والنفع ، وجعل الحرمان من الوصل (قتلا) وهى مبالغة تتناولها ألسنة الشعراء .

أما قوله : يقطع ... وده » فهو استعارة مكنية ومبالغة أكدها بتضعيف الفعل (يقطع) وجعل (الدين) يلوى فأبرزه فى صورة مجسمة بارزة .

وفى البيت السادس عشر استعارتان ، حيث جعل حبها خصيبا وقلبه مجدبا ، وأسهم التباين بين المعنيين فى رسم الصورة رسما حسياً ، وقوله : « شاب مفرق » كناية عن الخبرة والتجربة ، كما شبه الأثام بشيء محسوس يجنى ، وعبر فى البيت الثالث والعشرين عن الشوق والهوى بالعلة التى تستحق طلب الشفاء ، ثم جعل حبيبته الدواء الذى يشفى ويزيل العلة .

وشخص فى البيت الرابع والعشرين الدهر ، وقدمه فى صورة فاعله ، وجعل الرضاب سقيا أو حياة ، ثم أنهى القصيدة بتصوير الإباء بالأهوال والكروب .

ونؤكد أخيرا أن بشارا كان من شعراء الغزل والمجون والخلاعة ، ولكنة قال أشعاراً كثيرة تشبه — إلى حد كبير — ما قاله جميل بن معمر وأضرابه من شعراء نجد والحجاز .

قصيدة فى الخمر لأبى نواس

نبذة عن حياته وشعره :

كان أبو نواس (الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح) واحداً من الشعراء الذين أشاعوا جوا من الخلاعة والمجون فى العصر العباسى الأول ، وكانوا يمثلون الحياة الجديدة التى هبت رياحها من بلاد فارس ، غير أن لكل واحد من هؤلاء الشعراء أسلوبه وطريقته فى التميز على الآخرين ببعض الملامح التى تفصل بين موهبة وأخرى ، وإن (تمذهب) بشار وأبو نواس ومسلم بن الوليد وجماعة أخرى مواكبة لهم بالمذهب الحديث فى الشعر من حيث الخروج على التقاليد المتوارثة فى معيارية هذا الفن ، والأخذ بمظاهر التجديد فى الألفاظ والمعانى ، على أن هذه الطائفة من الشعراء قد أوجدت لها طبقة فى المجتمع ، وأسهمت مظاهر التحضر والتطور فى إنماء هذه الطبقة بما انغمست فيه من ترف ولهو وفسق ومجون .

وأبو نواس شاعر متميز ، وعلم على التجديد فى عصره ، وأثنى عليه القدماء والمحدثون لحداثة فنه ، وأصالة موهبته ، وصدق عاطفته ، وإن نقم عليه الكثيرون لخلاعته ومجاهرته بالمعاصى مع أن له شعرا فى الزهد قاله فى فترات من حياته كانت مشحونة بالورع والتقوى [١] .

وكان والده (هانىء) فارسياً ومن موالى (الجراح بن عبد الله الحكمى)[٢] ، وقد انتظم فى جند الخلافة بجيش (مروان بن محمد) آخر

---

(١) انظر بحثنا عن (الزهد فى شعر أبى نواس) بمجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد السادس عام ١٩٨٦م .

(١) والى خراسان فى عهد عمر بن عبد العزيز .

الخلفاء الأمويين ، وعند ماأرسل إلى الأهواز[1] التقى فيها بجارية فارسية تسمى (جُلّبان) فتزوجها ، وأنجب منها أبا نواس فى سنة (١٤١ هـ) تقريباً .

انتقل الحسن بن هانىء مع أسرته إلى البصرة بعدسنوات من ولادته ، وحصّل فى طفولته المبكرة معارف كثيرة فى اللغة والأدب ، وساءت سيرة أمه فى البصرة (بعد وفاة والده) ودفعت به إلى أحدالعطارين ولكنه لم ينقطع عن تثقيف نفسه مع حداثة سنه . وتفتحت مواهبه فى مرحلة مبكرة من عمره ، فلهج ببعض الشعر الذى تناوله الرواة ، ولكن التقاءه بوالبة بن الحباب فى البصرة ، أوفى الأهواز قدغير من سيرة حياته ، فترك العطارة ، وانصرف إلى الخمر والمجون ، واصطحبه والبة إلى الكوفة ، وهو ابن خمس عشرة سنه ، بعد أن أعجب بشعر له وكان جوها بالكوفة مليئاً بالخلعاء والمجان من أمثال مطيع بن إياس وحماد عجرد ، ولم تنقطع رغبة الحسن فى تحصيل العلوم والآداب ، فخرج إلى بادية بنى أسد ، وأقام فيها عاما ، ثم عاد إلى البصرة ، وتتلمذ فيها على (خلف الأحمر) وتعلق قلبه بجارية تسمى (جنـــان) ، وكانت تسبه فيزداد بها حباً وكلفاً وعشقاً ، وقال :

أتانى عنك سبك لى فسبى ... أليس جرى بفيك اسمى فحسبى
وقولى ما بدا لك أن تقولى ... فماذا كله إلا لحبى[2]

---

(١) الأهواز: إحدى قرى خوزستان فى الجنوب الغربى من فارس .

(٢) ديوان أبى نواس ص ٢٤١ تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى طبع دار الكتاب العربى ، وشبيه بهذا المعنى قول أحد الشعراء :

لئن ســـاءنى أن نلتنى بمساءة
لقد سرنى أنى خطرت ببالك

واتجه إلى بغداد وهو فى الثلاثين من عمره، واتصل بهارون الرشيد فى أول خلافته، كما التقى بمجموعة أخرى من المجان لاتقل عن مثيلاتها بالكوفة أو بالبصرة، وذاع شعره فى الخمر والغزل بالغلمان، ولم يكن حريصا على العبادة، وكان يجاهر بالمعصية، فساءت علاقته بالرشيد، واتجه إلى دمشق وارتحل منها إلى مصر، ومدح الخصيب بن عبد الحميد والى الخراج بها بشعر غضب له الرشيد، مع أن النواسى كان يحن إلى بغداد ويشتاق اليها، فترك مصر بعد انتهاء ولاية الخصيب، وأقبل على الرشيد فى بغداد، وكانت العلاقة بينهما تسوء وتحسن، وسجن أبو نواس عدة مرات لإمعانه فى العبث والمجون. ثم مات الرشيد، وتولى بعـــده الأمين (محمد)، ورق لأبى نواس، فأخرجه من السجن، واتخذه شاعرا ونديما، وتناقل الرواة أشعار أبى نواس فى الخمر والمجون والغزل بالغلمان والتى أتخذها (المأمون) أداة لمحاربة أخيه (الأمين)، ويدخل النواسى السجن، ويخرج منه، ويموت الأمين، فيرثيه بأصدق الشعر، ويبقى فى بغداد لاهجا ببعض شعره فى الزهد إلى أن توفى فى عام (١٩٩) هـ، وقيل إن وفاته غير طبيعية، بل كانت قتـــلا بالسم أو بالضرب المفضى إلى الموت.

شعره :

أبو نواس واحد من الشعراء المكثرين المجددين، وقد انعكست حياته على شعره، ولهذا فإن أكثر مافى ديوانه يمثل عصره، وينقل لنا بعض الجوانب لشتى مناحى الحياة فى القرن الثانى من الهجرة.

وكان الدم الفارسى يجرى فى عروقه، وعد من مجموعة الشعوبيين الذين يكرهون العرب، ويسخرون منهم ويحبون الفرس ويشيدون بهم.

وقد شرب الخمر وتغزل بالغلمان، وتردى فى المجون، وجاهر

بالمعاصى ، وصار شعر الخمرة عنده فنا مستقلا ، بعد أن كان القدماء يبدؤون به بعض قصائدهم ، ومن شعره :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر[1]

وقال :

تخيرت والنجوم وقف   لم يتمكن بها المدار[2]

«يريد أن الخمر تخيرت بين خلق الله الفلك»[3].

وقال :

اسقنى حتى ترانى   أحسب الديك حمارا[4]

وقد سبق إلى معان كثيرة فى الخمر لم يأت بها غيره ، وأبدع فى مجموعة أخرى من أغراض الشعر بدرجات متفاوتة ، فله باع طويلة فى الغزل بشتى ألوانه ، وشعره فى مجان كثير ومتميز ، وله قصائد ومقطوعات متنوعة فى المدح اختص بأكثرها الخلفاء العباسيين ، ويتوزع مابقى من شعره بين الهجاء والرثاء والعتاب والزهد والطرد ، ولكنه لم يبلغ فيها ما بلغه فى الخمر من حيث التميز والتجديد .

ومن عجب أن يقول فى الخمر والمجون ، ويقول فى الزهد شعرا أظهر فيه التوبة والندم ، فهو القائل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو فى ثياب صديق[5]

وقد اخترت واحدة من قصائده فى الخمر ، لندلل بها على موهبته فى هذا الموضوع ، فضلا عما يثيره فيها من كلام عن المعصية والتوبة .

---

(١) الديوان ص ٢٨   (٢) الديوان ص ٧٣
(٣) الشعر والشعراء حـ ٢ ص ٨٠٢
(٤) الديوان ص ٢٠٤   (٥) الديوان ص ٦٢١

القصيدة (*)

١ — دع عنك لومى فإن اللوم إغراء
ودا وى بالتى كانت هى الداء

٢ — صفراءُ لا تنزل الأحزان ساحتها
لو مسها حجــرٌ مسته سرّاء

٣ — قامت بإبريقها والليـل معتكر
فلاحَ من وجهها فى البيت لألاء

٤ — فأرسلتْ من فم الإبريق صافيةً
كأنما أخـــذها بالعين إغفاء

٥ — رقت عن الماء حتى ما يلائمها
لطـــافةٌ ، وجَفَا عن شكلها الماء

٦ — فلو مزجت بها نُورا لمازجها
حتى تولد أنـوارٌ وأضـواء

(*) القصيدة بالديوان ص ٦

(١) الداء : إدمان الخمر ، وهو الذى يتداوى منه بالشرب .

(٢) سراء : سرور .

(٣) قامت بإبريقها : يقصد الجارية التى تحمل الإبريق للسقاية ، وأشار إليها فى بيت لم نذكره لخلاعته ، معتكر : مظلم ، لألاء : ضياء وإشراق .

(٤) صافية : صفة لموصوف محذوف أى خمرا صافية ، إغفاء : نوم.

(٥) جفا : بعُد . (٦) مزجت : خلطت .

اتجه الشاعر فى مطلع القصيدة إلى لوم من لامه على شرب الخمرة ، لأن هذا اللوم يغريه بشربها ، ويزيد من تعلقه بها ، وفوق ذلك فهى الدواء لعلته وهى شرب الخمر ، وينتقل فى البيت الثانى إلى وصف الخمرة ذاكراً أنها صفراء ، وأنها تزيل الهموم والأحزان ، ولها تأثير عجيب فى شاربها ، بل إنها تبعث النشوة فى الحجر ، فيشعر بالسرور .

ويصف الجارية التى تحمل الإبريق فى الظلام ، ويذكر أن وجهها فيه من الجمال والضياء ما يجعله مشعا وسط العتمة الحالكة، وينتقل إلى وصف الخمرة المنسكبة من فم الإبريق بالصفاء الذى يجعل العين تسبح فى إغفاء جميل ، وصار يتذوقها بعينيه إلى جانب استمتاعه بمذاقها، وذكر أن روح

---

(١) راجع كتاب (تاريخ المذاهب الإسلامية) للشيخ محمد أبى زهرة ص ١٢١ طبع دار الفكر العربى .

٧ — دارت على فتية دان الزمان لهم
فما يُصيبهم إلا بما شاءوا

٨ — لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة
كانت تَحُلُّ بها هندٌ وأسماء

٩ — حاشا لدُرة أن تُبنى الخيام لها
وأن ترُوح عليها الإبل والشاء

١٠ — فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة
حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

١١ — لاتحظر العفو إن كنت امرأ حرجا
فإن حظركه فى الدين إزراء

الباعث على القصيدة .

الخمرة قد رقت عن روح الماء، فهى لا تمتزج به ، بينما تساوت مع النور، فلو مزجت به لتولدت منهما الأنوار والأضواء .

وينتقل إلى وصف رفاق المجون الذين تدور الخمرة بينهم، وهم يخضعون الزمان لإرادتهم أى أنهم ليسوا مجبرين على شىء ، ولهم القدرة على اختيار ما يصيبهم ويقع عليهم ." وذكر أنه يبكى على حاله مع الخمرة ، ولا يبكى على منازل الحبيبة (هند وأسماء) ، وكأنه يعرض بالعرب ، ويسخر منهم وينزه الخمرة عن بناء الخيام لها ، وأن تروح عليها الإبل والشياة .

ويعود فى البيتين الأخيرين إلى مجادلة (النظام) ويقول له : إنك تدعى الفلسفة فى العلم، وإنك حفظت شيئا وغابت عنك أشياء كثيرة ، ويقصد — حسب قوله — أن حظر العفو والتحرج به ليس فى مصلحة الدين ، إذ أنه يزريه ، وكأنه يطلب منه أن يتسامح معه ، وأن يبسط العفو وييسر فيه ، ولا يجعله صعبا محظورا .

مناقشة الأفكار :

الهمزية التى بين أيدينا واحدة من خمريات أبى نواس ، وربما كان فى شعره أفضل منها ، غير أنها تجمع بعض الأفكار التى لهج بها فى حياته ، مثل التداوى بالخمرة ، وكونها داء ودواء ، ومثل لطافتها ولطافة النور ، والفتية الذين يتحكمون (بمصير القدر) والشعوبيين الذين يردون على موقف العرب من الأعاجم .

ويجرأ على (النظام) وهو واحد من شيوخ المعتزلة الكبار ، فيقول له فى موضع آخر من الديوان :

قولا لإبراهيم قولا هترا   غلبتنى زندقة وكفرا (١)

(١) الديوان ص ٥٣٠ ، وهترا : كلاما ساقطا! .

وكان النواسي يكره المعتزلة ويكره النظام بخاصة ، لرأيه في التوبة من الكبائر ، ولذلك اتجه إليه بالكلام في أول القصيدة وآخرها .

وفكرة التداوي بالخمر ليست من إبداع أبي نواس ، وإن كان قد صاغها بطريقة تتلاءم مع عصره ، وإلا فقد سبقه الأعشى (ميمون بن قيس) حيث قال :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها[1]

وكان أبو نواس يدعو إلى بدء القصائد بابنة العنقود ، ويتهكم من الوقوف على الأطلال ، والذي ردده أو تقيد به كثير من الشعراء ، قال :

صفة الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم[2]

وقال :

قل لمن يبكي على رسم درس ... واقفاً ، ما ضر لو كان جلس

اترك الربع وسلمى جانباً ... واصطبح كرخية مثل القبس[3]

وقال :

اترك الأطلال لا تعبأ بها ... إنها من كل بؤس دانية

واشرب الخمر على تحريمها ... إنما دنياك دار فانية[4]

---

(١) ديوان الأعشى ص ٢٢٣ طبع مؤسسة الرسالة عام ١٩٨٣ شرح الدكتور محمد محمد حسين .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٥٧ والقدم : العيي على الكلام في رخاوة وقلة فهم ، وابنة الكرم : الخمرة .

(٣) الديوان ص ١٣٤ وكرخية : نسبة إلى الكرخ وهو حي من ضواحي بغداد .

(٤) الديوان ص ١١٩

وهو متأثر بالحضارة الفارسية المادية من حيث الثورة على الأعراف والأخلاق والدين الحنيف وتكرر نداؤه بذلك فى الكثير من القصائد والمقطوعات .

أما البيت الثالث فإن المعنى فيه ليس من ابتكار أبى نواس، فقد سُبق إليه مع أنه كان يبحث فيما قاله القدماء روحاجديدة تميل إلى الصنعة والعمق والإغراب ، فهو يقول فى هذه القصيدة :

قامت بإبريقها والليل معتكر
فلاح من وجهها فى البيت لألاء

وكان امرؤ القيس قد قال :

تضيء الظلام بالعشى كأنها
منارةُ مُمْسَى راهب متبتل [1]

وقال طرفة :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها
عليه ، نقىُّ اللون لم يتخدد [2]

أما الرؤية فى قول أبى نواس فهى أن الجارية تضىء وتلمع فى الظلام ، بالإضافة إلى حملها لإبريق الخمر .

وشعر أبى نواس لم يتحرر من القدماء بالرغم من دعوته للتجديد . .

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٧ طبع دار المعارف تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

(٢) شرح المعلقات السبع الزوزنى ص ٦٨ . طبع مكتبة المعارف فى بيروت .

« فنحن نرى أن معانيه هي فى الواقع توليد من المعانى القديمة ، واشتقاق منها أو عبث بها »(١) .

وتتواصل المعانى أو الأفكار حول قضية الشاعر مع الخمرة والشعوبية والعقيدة والفلسفة مع ما بينها من علاقات ، وإن برزت قدرة النواسى على تقديم أفكاره — حتى وإن تأثر فيها بالقدماء — بصورة عميقة ومتسعة وذات أبعاد ومناح جديدة .

ويميل فى البيت (السادس) إلى تعميق رؤيته ، فلا يكتفى بمساواة روح الخمرة مع روح النور بل يجعل الأنوار والأضواء تصدر منها وهى مبالغة ، ويظهر التأثر بالفلسفة وعلم الكلام فى الأبيات (السابع والعاشر والحادى عشر) ، ويبدو أن اتصاله بعلماء الكلام فى البصرة وبغداد يسر له أن يتحصن ببعض الحجج والأدلة — بصرف النظر عن صحتها أو بطلانها — أما أنه قد وظف الخلاف بين المذاهب والنحل لخدمة مجونه وخلاعته فهذا شيء غير خاف ، وإن بان بعده عن الحقيقة التى كان المتداولون من الفلاسفة والمتكلمين يسعون لتثبيتها وإرساء دعائمها .

وظهر ميله للفرس وكراهته للعرب فى البيتين (الثامن والتاسع) ، ويبدو أن اضطراب حياته وضعة أصله قد أمليا عليه تلك النزعة التى استشرت فى شعره ، وشعر الكثيرين ممن كانوا من أصول غير عربية فى ذلك الوقت ، فالأفكار فى هذه القصيدة عميقة وإن كان بعضها ليس من ابتكاره حيث وضح تأثره بالقدماء ، كما أنها متسلسلة كل فكرة ترتبط بالأخرى فى تتابع عجيب ، وصاغها صياغة جديدة متميزة .

---

(١) فى النقد والأدب لإيليا الحاوى ج ٣ ص ٨٩ ، طبع دار الكتاب اللبنانى .

ملامح التعبير والتصوير :

تتميز القصيدة بالوحدة العضوية أو الفنية بالمنظور النقدى الحديث، ولذا جاءت الألفاظ والعبارات متواكبة تماما مع المضمون ، ولننظر كيف اتجه أبو نواس فى (البيت الأول) إلى إبراهيم النظام بفعل الأمر (دع) ، وهى صيغة تكشف عن ضيق الشاعر من هذا الرجل وسخريته منه ،وحدد النواهى (اللوم) ، ليتمكن من الدفاع عن رغبته فى شرب الخمر ، وكراهة الطلول وحظر الغزو ، لأن منعه إزراء بالدين .

وقوله فى وصف الخمرة (صفراء) تقرير لحالتها ، وإن كنا لاندرى قيمة هذا اللون وتأثيره فى الشارب ، ويكتمل البيت بوصفين آخرين ، وتتوالى النعوت كقوله : « والليل معتكر » ، « صافية » ، « دان الزمان لهم » ، « كانت تحل بها هند وأسماء » .

أما الطباق فقد أسهم فى إبراز الفوارق بين المتناقضات،ونراه متمثلا فى قوله : « معتكر ولألاء » ، و « أبكى ولا أبكى » ، و « حفظت وغابت » و « لا تحظر وحظركه » .

وإذا كان الشاعر قد بدأ القصيدة بأسلوب الأمر فإنه أنهاها بالأمر ، وبالنهى أيضا،وقصد بهما السخرية من خصيمه، ونلاحظ أنه عمد إلى إعمال الحجة ، وتقرير الأدلة ، ولم يهدف إلى تعميق الرؤية بالصور والأخيلة ، مع أنه استعان بالغلو والمبالغة فى وصف الخمرة والرد على النظام فى أكثر من بيت ، فقوله : « وداونى بالتى كانت هى الداء » مبالغة توسل إليها بهذا التعليل ، وهى أنها دواء لشربه ، ولجأ إلى المبالغة أيضا فى (البيت الثانى) ، فجعل الخمرة تبث النشوة والسرور فى الحجر ، وهى تتناسب مع عشقه لها.

وفى (البيت الثالث) تشبيه ضمنى ، حيث قال : « فلاح من وجهها

فى البيت لألاء، حيث وازن بين ضوء الوجه والتلألؤ، وفى (البيت الرابع) تشبيه فى قوله : «كأنما أخذها بالعين إغفاء»، حيث شبه انكسار رؤية الشارب عند رؤيته للخمر بالإغفاء، مع أن هذا التشبيه لايخلو فى صياغته من مبالغة . وقوله : «رقت عن الماء» تشبيه ضمنى من حيث المقارنة بين روح الماء وروح الخمرة، ثم ختم (البيت الخامس) بمبالغة فى قوله : «وجفا من شكلها الماء»، ونأتى إلى (البيت السادس) فنرى تشبيها ضمنيا آخر فى قوله «فلو مزجت بها نورا لمازجها» وهو يتمثل فى تشبيه لطافة الخمرة بلطافة النور مع أن الأسلوب ينم عن مبالغة واضحة .

وفى قوله : «دان الزمان لهم» مبالغة، وإن ارتبطت برؤية فلسفية سبقت الإشارة إليها .

وفى قوله : «هند وأسماء» مجرد رمز للمرأة العربية التى كانت تنزل بالدور أو الخيام، ونراه يهزأ منها فى (البيت التاسع) بالأسلوب الكنائى حيث قال : «تبنى الخيام بنا»، والتعبير يدل على هزال أصحاب الخيام، أما قوله : «تروح عليها الإبل والشاء» فهو كناية عن الأعمال المزرية للعرب، ولعل هذا مايؤكد وقوع الشاعر فى براثن الشعوبية .

وتبرز القصيدة بعض ملامح العصر ومن أهمها :

(ا) الصراع بين الشعراء وعلماء الكلام .

(ب) ثورة الشعوبيين على تاريخ العرب .

(ج) سيطرة المجون على بعض الشعراء فى القرن الثانى من الهجرة .

(د) الإغراق فى المعانى والتصورات الفلسفية وادخالها فى ساحة الشعر .

قصيدة أبي تمام

في معركة عمورية ومدح المعتصم

التعريف بأبي تمام :

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، والمولود بقرية جاسم (من قرى حوران بسورية)[١] في عام (١٩٠ هـ)[٢] ، والمتوفى بالموصل سنة (٢٣٢ هـ)[٣] وبين هذه وتلك حياة حافلة بالقراءة وقول الشعر وتأليف الكتب والتنقل بين البلدان .

كان أبوه مسلما عربيا من قبيلة طيء ، وقيل كان مسيحيا واسمه (تدّوس) وأسلم وأطلق عليه (أوس) . ونظن أن هذا ليس صحيحا ؛ لأن أبا تمام بعد أن كبر وارتقت حاسته الفنية هجا النصارى ، ولو أن أباه كان نصرانيا لحافظ هو على بعض الود والوفاء لأهل هذه الديانة .

وكان والده عطارا بدمشق ، وقد وجهه إلى حائك ليتعلم صنعته ، وأثناء ذلك كان أبو تمام يختلف إلى دروس العلم بالمساجد ، ثم ترك الشام كله وارتحل إلى مصر ، وعمل سقاء بمسجد عمرو بن العاص ، وداوم على تثقيف نفسه خاصة بعد تفتح شاعريته ونضوجها ، وامتدح عياش بن

---

(١) انظر (الأعلام) لخير الدين الزركلي ج ٢ ص ١٦٥ ، وذكر ياقوت في حديثه عن جاسم أنها (قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ) — معجم البلدان ج ٢ ص ٩٤ .

(٢) وقيل في سنوات أخرى هي (١٧٢) أو (١٨٢) أو (١٩٢) .

(٣) وقيل في إحدى هذه السنوات (٢٢٨) أو (٢٣٠) أو (٢٣١) .

لهيعة ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتنقل بين البلاد الإسلامية ، فزار بغداد وارتحل إلى الجزيرة وزار أرمينية ، واتجه إلى خراسان ، والتى احتفل به الشعراء ، كما احتفل به واليها عبد الله بن طاهر بعد أن امتدحه بالقصيدة التى تبدأ بقوله :

هن عوادى يوسُفٍ وصواحُبه
فعزما فقِدْماً أدرك السؤل صاحبه[1]

وعند عودته من خراسان أقام مدة فى همذان عند أبى الوفاء بن سلمة وحبسه الثلج ، فألف كتابه المشهور (ديوان الحماسة) ، وعاد إلى بغداد ، وامتدح انتصارات أبى دلف العجلى على بابك الخرمى واتصل بالمعتصم وأشاد بفتحه عمورية وانتصاراته المظفرة على الروم ، وهكذا كانت حياته مليئة بالتجارب الشعرية التى امتدح بها الكثيرين أثناء رحلاته بين البلدان ، كما تعكس تنقلاته رغبته فى المعرفة وتسخير شعره لخدمة أهدافه المادية ، وقد نعم بالهدوء والمال وروعة المديح فى آخر سنى حياته ، وظفر بالولاية على بريد الموصل ، وبقى فيه مدة سنتين إلى أن مات فى التاريخ المذكور ، وقيل إنه كان متشيعا لآل البيت رضوان الله عليهم .

ولم تتوسع المصادر الإخبارية فى بحث أحواله الاجتماعية ، وروى أنه تزوج ثم ماتت زوجته فى حياته فرثاها وأن له ابنا يسمى (تمام) .

كان شعر أبى تمام ثمرة للثقافة العربية التى امتزجت بالثقافة الأجنبية الوافدة ، كما تأثر بشعر بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد ، وبرع فى المديح والرثاء ، فقيل إنه : (مداحة نواحة) وكثر عدد ممدوحيه بسبب

---

(١) الديوان حـ ١ ص ٢١٦ بشرح التبريزى وتحقيق محمد عبده عزام طبع دار المعارف بمصر .

سعيه إلى المال وكثرة تنقلاته ، وبراعته فى المديح .

وتميز شعره بعدم الاستواء ، ولذلك اختلف الأدباء والنقاد حوله بمالم يختلفوا حول شاعر آخر ، بل إن بعض الشعراء تعصبوا ضده بدون حق ، ومن أشهر هؤلاء دعبل بن على الخزاعى ، وقد جاء فى (الأغانى) مرفوعا بسنده إلى محمد بن جابر الأزدى ، —وكان يتعصب لأبى تمام— ماياتى : « أنشدت دعبل بن على شعرا لأبى تمام ولم أعلمه أنه له ثم ، قلت له : كيف تراه ؟ قال : أحسن من عافية بعد يأس فقلت : إنه لأبى تمام فقال : لعله سرقه »[1] ، وتعصب ضده أو رفض شعره ابن الأعرابى وغيره . بينما أعجب بشعره ورضى عنه وأشاد به من القدماء عمارة بن عقيل ومحمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم الصولى[2] وغيرهم .

وأجاد أبو تمام فى الرثاء ، ومن أشهر مراثيه قصيدته فى رثاء ابن حميد الطوسى ، وقصيدته فى رثاء ابنى عبد الله بن طاهر ، وله شعر فى الوصف والغزل والزهد والفخر والهجاء . كما عرف بتأليف الكتب واختيار الأشعار وجمعها فى دواوين متميزة ، وله مواقف كثيرة أظهر فيها براعته فى النقد ، ومن كلماته الجامعة فى هذا الفن تلك الكلمة التى وجهها إلى تلميذه البحترى ، والتى رسم له فيها طريق الشعر ، وأحسن الوسائل لإجادة نظمه ، قال :

« .... يا أبا عبادة .. تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم ، واعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٣٨٨

(٢) هو إبراهيم بن عباس الصولى وهو غير العالم الأديب أبى بكر الصولى .

الراحة وقسطها من النوم ، وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقا والمعنى رقيقا، وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق ولوعة الفراق ، فإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد ، فأشهر مناقبه ،وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه وشرف مقامه ،ونضد المعانى ، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد . وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولاتعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بماسلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده، وماتركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله » (١) .

(أبيات مختارة من شعر أبى تمام) .

قال فى مدح بن أبى داود :

وما سافرتُ فى الآفاق إلا
ومن جدواك راحلتى وزادى (٢)

وقال فى مدحه والاعتذار إليه أيضا :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طُويت أتاح لها لسانَ حسود

لو اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يُعرف طيبُ عَرْف العود

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى حـ١ ص ١١٠ ، ص١١١ طبع الحلبي عام ١٩٦٩ م

(٢) الديون حـ١ ص ٣٧٤

لولا التخوف للعواقب لم تــزل
للحاسد النعمى على المحسود (١)

وقال فى مدح أبى المغيث الرافعى والاعتذار إليه :

كريم متى أمدحه ، أمدحه والورى
معى ومتى ما لمته لمته وحدى (٢)

وقال فى مدح الحسن بن رجاء :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
فالسيل حرب للمكان العالى (٣)

وقال يواسى إلياس بن أسد فى مرضه :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلى الله بعض القوم بالنعم (٤)

وقال فى مدح أبى دلف أو فى مدح عبد الله طاهر :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا
إن السماء ترجى حين تحتجب (٥)

وقال فى تحبيب الرحلة إلى الأوطان :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
لديباجتيه فاغــترب تتجدد

---

(١) الديوان ج١ ص ٣٩٧
(٢) الديوان ج٢ ص١١٦
(٣) الديوان ج٣ ص٧٧ يحدث عزيمته أو نفسه.
(٤) الديوان ج٣ ص ٢٨٠
(٥) الديوان ج٤ ص ٤٤٦ وراجع الأغانى ج١٦ ص ٣٩٦ لبيان التأكيد على أن أبا تمام كان لاقطا للمعانى .

فإنى رأيت الشمس زيدت محبة
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد[1]

وقال فى الغزل :

نقّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل[2]

وديوانه مطبوع ، وذائع بين الناس ، فليرجع إليه من شاء .

---

(١) الديوان جـ ٢ ص ٢٣
(٢) الديوان جـ ٤ ص ٢٥٣

القصيدة (*)

— ١ —

١ — السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

٢ — بيضُ الصفائح لا سود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب

٣ — والعلم في شُهب الأرماح لامعة

بين الخميسين لا في السبعة الشهب

٤ — أين الرواية أم أين النجوم وما

صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

٥ — تخرّصا وأحاديثاً ملفقة

ليست بنبع إذا عُدت ولا غرب

---

* الديوان ﺟ ١ ص ٤٠

(١) الكتب : المراد بها كتب السحر ، في حده : الحد الأول : السيف ، والحد الثاني الذي يفصل بين الشيئين .

(٢) الصفائح : السيوف ، والصحائف : الكتب . والريب (بكسر الراء المشددة) جمع ريب (بفتح الراء) .

(٣) شهب الأرماح : أسنتها ، بين الخميسين : بين الجيشين الكبيرين ، السبعة الشهب : الطوالع السبعة وهي (زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر) .

(٤) الرواية : رواية المنجمين باستحالة النصر في عمورية ، الزخرف القول المحسن المكذوب .

(٥) تخرصا : افتراء ، ملفقة : ليست من شكل واحد ، النبع شجر صلب تتخذ منه القسي ، غرب شجر ضعيف .

٦ — عجائباً زعموا الأيام مُجفلةً
عنهن فى صفر الأصفار أو رجب

٧ — وخوّفوا الناس من دهياءَ مظلمة
إذا بدا الكوكب الغربىّ ذو الذّنب

٨ — وصيروا الأبرُج العليا مرتبة
ما كان منقلبا أو غير منقلب

٩ — يقضون بالأمر عنها وهى غافلة
ما دار فى فَلَك منها وفى قُطُب

١٠ — لو بينت قطّ أمراً قبل موقعه
لم تُخف ما حل بالأوثان والصّلب

— ٢ —

١١ — فتحَ الفتوح تعالى أن يحيط به
نظمٌ من الشعر أو نثر من الخُطَب

---

(٦) مجفلة : مسرعة فى رعب ، صفر الأصفار : شهر صفر ، وعظمه لما ينتظر فيه من أمر شاق .

(٧) دهياء : داهية .

(٨) الأبرج : بروج السماء التى أولها الحمل وآخرها الحوت .

(٩) الفلك : مدار النجوم التى يضمها ، القطب : كل ما ثبت فدار عليه شيء .

(١٠) قبل موقعه : قبل حدوثه .

(١١) تعالى : عظم .

١٢ — فتحٌ تفتّح أبواب السماء له
وتبرز الأرض فى أثوابها القُشُب

١٣ — يايومَ وقعةِ عمورية انصرفت
منك المنى حُفلا معسولة الحلب

١٤ — أبقيت جَد بنى الإسلام فى صعدٍ
والمشركين ودارَ الشرك فى صبب

١٥ — أمٌ لهم لو رَجوا أن تفتدى جعلوا
فداءها كل أمٍّ منهمُ وأب

١٦ — وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها
كسرى وصدت صدوداً عن أبى كرب

١٧ — بِكرٌ فما افترعتها كفُّ حادثةٍ
ولا ترقت إليها همة النُّوب

---

(١٢) تفتح أبواب السماء : أى تتفتح بالغيث والرحمة من الله ، تبرز: تظهر ، القشب : الجديدة (جمع قشيب).

(١٣) حفلا : جمع حافل، وهى المليئة الضروع باللبن، معسولة: التى فيها العسل ، الحلب : ما حلب من اللبن .

(١٤) جد بنى الإسلام : حظ المسلمين، الصعد : مكان الصعود، الصبب: مكان الهبوط :

(١٥) أم لهم : أى أن عمورية أم لهم .

(١٦) برزة الوجه : لا تستتر عن الرجال، أو الحيية ، رياضتها : تدريبها على الخضوع، كسرى : ملك الفرس، أبو كرب : كنية ملك من تبابعة اليمن واسمه (سعد بن مالك الحميرى) .

(١٧) افترعتها : افتضتها ، النوب: المصائب (جمع نائبة).

١٨ — من عهد إسكندرٍ أو قبلَ ذلكَ قد
شابت نواصى الليالى وهى لم تَشِب

١٩ — حتى إذا مخّض الله السنين لها
مَخْضَ البخيلة ، كانت زبدة الحِقب

٢٠ — أتتهم الكربة السوداء سادرة
منها ، وكان اسمها فرّاجة الكرب

٢١ — جرى لها الفأل برحا يوم أنقرة
إذ غُودرت وحشةَ الساحاتِ والرِّحَب

٢٢ — لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كان الخراب لها أعدى من الجرَب

٢٣ — كم بين حيطانها من فارس بطل
قانى الذوائب من آنى دم سرب

٢٤ — بسنة السيف والحناءُ من دمه
لا سنة الدين والإسلامِ مختضِب

---

(١٨) من عهد إسكندر : أى قديمة .

(١٩) مخض اللبن : أخرج منه زبدته ، ومخض البخيلة أشد وأطول من مخض الكريمة ، الحقب : السنون ، أو الأزمان الطويلة .

(٢٠) الكربة : المصيبة ، سادرة : لا تبالى ، منها : أى عمورية .

(٢١) الفأل : يأتى كثيراً فى الخير وهو هنا فى الشر ، برحا: من البارح وهو ضد السانح، ويقصد: التشاؤم ، وحشة : موحشة ، الرحب: الواسعات (جمع رحبة — بسكون الحاء — أو رحبة — بفتح الحاء) .

(٢٢) أختها : أخت عمورية وهى أنقرة .

(٢٣) قانى الذوائب : محمرها ، الآنى : الحار ، سرب : سائل .

(٢٤) بسنة السيف : أى بماسنه وحكم به ، لا سنة الدين ، لأن الصحابة كان يخضبون شعورهم بالحناء ويكرهون الخضاب بالسواد .

٢٥ — لقد تركت أميرَ المؤمنين بها
للنار يوماً ذليلَ الصخر والخشب

٢٦ — غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يَشُلُّه وسطها صبح من اللهب

٢٧ — حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها، وكأن الشمس لم تغب

٢٨ — ضوءٌ من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان فى ضحى شَحِب

٢٩ — فالشمس طالعة من ذا وقد أَفلت
والشمس واجبة من ذا ولم تجب

٣٠ — تصرَّحَ الدهرُ تصريح الغمام لها
عن يوم هيجاء منها طاهرٍ جُنب

٣١ — لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على
بانٍ بأهل ولم تغرب على عزَب

٣٢ — ماربعُ مية معموراً يُطيف به
غيلانُ أبهى رُبىً من ربعها الخرب

---

(٢٥) بها : أى بعمورية ، يوما : مفعول به .
(٢٦) غادرت: تركت ، البهيم: الليل الذى لا ضوء له ، يشله : يطرده.
(٢٧) جلابيب : جمع جلباب ، الدجى : جمع دجية وهى الظلمة .
(٢٨) عاكفة : مقيمة : الشحب : المتغير اللون.
(٢٩) من ذا : من لهيب النار ، أفلت : غابت ، واجبة : غائبة، من ذا (الثانية) من الدخان .
(٣٠) تصرح . تكشف ، هيجاء : حرب.
(٣١) بان بأهله . معرس ، عزب : من لم يتزوج .
(٣٢) يطيف به : يلم به ، غيلان: هو غيلان بن عقبة المشهور بذى الرمة الذى أحب (مية) المذكورة فى أول البيت ، أبهى : أجمل ، ربى : جمع ربوة وهى المكان المرتفع .

٣٣ — ولا الخدودُ وقد أدمين من خجل
أشهى إلى ناظر من خدّها الترِب

٣٤ — سماجةٌ غنيت منا العيون بها
عن كل حُسن بدا أو منظر عَجَب

٣٥ — وحسنُ منقلب تبدو عواقبُه
جاءت بشاشته من سوء منقلب

٣٦ — لو يعلمُ الكفر كم من أعصر كَمنت
له العواقب بين السُمر والقُضُب

— ٣ —

٣٧ — تدبيرُ معتصم ، بالله منتقمٍ
لله مرتقبٍ ، فى الله مرتغبِ

٣٨ — ومُطعَم النصر لم تَكهم أسنته
يوماً ولاحُجبت عن روح محتجب

---

(٣٣) أدمين من خجل : أحمرت من الخجل ، الترب : الذى لصق بالتراب .

(٣٤) سماجة : قبح .

(٣٥) بشاشته : فرحته .

(٣٦) أعصر : أزمان ، كمنت : خبأت ، السمر : الرماح ، القضيب : السهام .

(٣٧) المرتقب : يجعل ما يرقبه بين عينيه كأنه ينظر إليه ، مرتغب : راغب فيما يقربه إلى الله .

(٣٨) مطعم النصر : المعتصم الذى تعود النصر فيكون سبباً فى إطعام الوحوش ، لم تكهم أسنته . لم تكل أسنته .

٣٩ — لم يغز قوماً ولم ينهد إلى بلد
إلا تقـــدمه جيش من الرّعب

٤٠ — لوْ لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها فى جحفل لجِب

٤١ — رمى بك الله بُرجَيها فهدمها
ولو رمى بك غير الله لم يُصب

٤٢ — من بعد ما أشَّبوها واثقين بهـــا
والله مِفتاح باب المعقل الأشِب

٤٣ — وقال ذو أمرهم لامرتع صددٌ
للسارحين وليس الورد من كثب

٤٤ — أمانِيًّا سلبتهم نجحَ هاجسها
ظُبى السيوف وأطرافُ القَنَا السلب

---

(٣٩) لم ينهد : لم ينهض ، الرعب : الفزع .

(٤٠) جحفلا : جيشاً عظيما ، الوغى : الحـــرب ، اللجب : الضجيج والأصوات الكثيرة .

(٤١) برجيها : مثنى البرج وهو الحصن .

(٤٢) أشبوها : حصنوها بالتفافهم حولهـــا ، واثقين بها : واثقين بحصانتها ، الأشب : الحصين .

(٤٣) ذو أمرهم : رئيسهم ، المرتع : المكان الذى تستقر فيه الدواب للأكل والشرب ، صـــدد : قريب ، الورد : مكان ورود الماء كثب : قرب .

(٤٤) الهاجس : الخاطر ، ظبى السيوف : حدها : القنا : الرماح ، السلب جمع سلوب أى يسلب الناس أموالهم أو جمع سلب وهو الطويل (بتصرف عن شرح التبريزى لديوان أبى تمام).

٤٥ — إن الحامين من بيض ومن سُمر
دلوا الحياتين من ماء ومن عُشُب .

٤٦ — لبيت صوتا زِبَطريًّا هرقت له
كأس الكرى ورُضاب الخُرَّد العرُب

٤٧ — عداك حرّ الثغور المستضامة عن
برد الثغور وعن سَلسالها الحصب

٤٨ — أجبته معلنا بالسيف منصلِتا
ولو أجبت بغير السيف لم تُجِب

٤٩ — حتى تركت عمود الشرك منعفرا
ولم تعرّج على الأوتاد والطّنب

---

(٤٥) الحام : الموت ، البيض : السيوف ، السمر : الرماح ، دلوا الحياتين : سبيلا الحياتين .

(٤٦) زبطريا : منسوب إلى زبطرة وهى مدينة فى طرف بلاد الروم، هرقت : أرقت ، الكرى : النوم .

الخرد : جمع خريدة والخريدة أى الحيية ، العرب : جمع عروب : وهى المتحببة إلى زوجها .

(٤٧) عداك : صرفك ، الثغور : جمع ثغر وهو الموضع الذى يقام على الحدود ، والثغور (الثانية) جمع ثغر ، وهو الفم ، السلسال : الماء الذى يجرى فوق الحصى ، ويقصد الريق ، الحصب: الذى فيه صغار الحصى ويقصد الأسنان :

(٤٨) أجبته . أى أجبت الصوت الزبطرى ، منصلتا : ماضيا ، والانصلات للرجل ويجوز أن يكون للسيف ، لم تجب : لم تنفع أجابتك.

(٤٩) عمود الشرك: أعظم ما فى بيت الشرك ، منعفرا: ملتصقا بالتراب الأوتاد : الأخشاب التى توضع فى الأرض، الطنب بضم النون ، ولسكينها: حبل الخباء والجمع أطناب .

— ٤ —

٥٠ — لما رأى الحرب رأى العين تُوَفِلسٌ
واخرب مشتقة المعنى من الحرَب

٥١ — غدا يُصرف بالأموال جِرْيَتها
فعزه البحر ذو التيار والحدب

٥٢ — هيهات ا زُعزعتِ الأرض الوقورُ به
عن غزو محتسبٍ لا غزو مُكتسب

٥٣ — لم ينفق الذهب المُرْبِي بكثرته
على الحصى وبه فقر إلى الذهب

٥٤ — إن الأسُود أسود الغِيل همتها
يوم الكَريهة فى المسلوب لا السَّلَب

---

(٥٠) توفلس : تيوفيل امبراطور بيزنطة ، مشتقة :مأخوذة ، الحرب بفتح الراء الغضب وذهاب المال .

(٥١) عزه : غلبه ، التيار : الموج أو معظم الماء ، الحدب : ارتفاع الماء تارة وانخفاضه تارة أخرى :

(٥٢) هيهات : بعد ، زعزعت: حركت حركة عنيفة ، به : أى بتوفلس محتسب : مدخر .

(٥٣) المربى : الزائد .

(٥٤) الغيل : الشجر الكثيف الملتف ، همتها : غايتها التى تهتم بها الكريهة : الشديدة من كل شىء ، والمراد الحرب ، المسلوب أى القتيل أو الرجل المسلوب ، السلب : المال الذى يسلب من القتيل .

٥٥ — ولىّ وقد ألجم الخطىّ منطقَه
بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب

٥٦ — أحذى قرابينه صَرف الردى ومضى
يحتثّ أنجى مطاياه من الهـرب

٥٧ — موكلا بيفاع الأرض يُشرفه
من خفة الخوف لا من خفة الطرب

٥٨ — إن يعد من حرها عدوَ الظليم فقد
أوسعتَ جاحمها من كثرة الحطب

٥٩ — تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت
أعمارهم قبل نضج التين والعنب

---

(٥٥) ولى : الضمير راجع إلى (توفلس) ، ألجم : أسكت ، الخطى الرمح المنسوب إلى الخط وهو سيف عمان ، الصخب : كثرة الكلام فى غضب والمراد هنا : اضطراب القلب .

(٥٦) أحذى : أعطى ، القرابين : جلساء الملك ، يحتث : يطلب الإسراع فى الهرب .

(٥٧) موكلا : مسلما ، يفاع الأرض : ما ارتفع منها ، يشرفه : يعلوه خفة الطرب : نشوة الفرح .

(٥٨) إن يعد : إن يجر ، الظليم : ذكر النعام ، ويوصف بالسرعة ، الجاحم الذى يسعر النار .

(٥٩) الشرى : موضع تنسب إليه الأسود ، ويقال الشجعان ، نضجت أعمارهم : بلغت مبلغ الحكمة .

٦٠ — يارُبَّ حَوباءَ لما اجتُثَّ دابرُهم
طابت ولو ضُمِّخت بالماء لم تَطِب

٦١ — ومُغضبٍ رجعت بيضُ السيوف به
حيَّ الرضا من رَدَاهُم ميت الغضب

٦٢ — والحرب قائمة فى مأزق لجج
تجثو القيامُ به صُغراً على الرُّكب

٦٣ — كم نيل تحت سناها من سنا قمر
وتحت عارضها من عارض شَنِب

٦٤ — كم كان فى قطع أسباب الرقاب بها
إلى المخــدَّرة العذراء من سبب

---

(٦٠) حوباء : نفس ، اجتث دابرهم : قطع أصلهم ، ضمخت : طليت بالطيب ، لم تطب : لم تسر من الطيب الذى هو سرور النفس .

(٦١) ومغضب أى ورب مغضب ، من ردامم : من هلاكهم .

(٦٢) مأزق لجج : مضيق ضيق ، تجثو : تقعد على الركب ، صغرا : صاغرين .

(٦٣) سناها : ضوؤها ، والضمير عائد على الحرب ، من سنا قمر : من ضوء جارية كالقمر ، عارضها أى عارض الحرب ، وهو ما يستقبلك منها ، عارض شنب : العارض هنا للناب والضرس فى عرض الأسنان ، وشنب : برد الأسنان ، أو حدة أطرافها ، أو عذوبتها .

(٦٤) الأسباب : الأشياء التى يتوصل بها إلى غيرها ، أسباب الرقاب عروقها : المخدرة : المرأة المكنونة ، وربما قصد بها (عمورية) .

٦٥ — كم أحرزت قُضُب الهندى مُصْلَتَةً
تهتز من قضب تهتز فى كُثُب

٦٦ — بيض إذا انْتُضيت من حُجبها رجعت
أحقّ بالبيض أترابا من الحُجُب

— • —

٦٧ — خليفةَ الله جازى الله سعيك عن
جُرثومة الدين والإسلامِ والحَسَبِ

٦٨ — بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تُنــال إلا على جسر من التعب

٦٩ — إن كان بين صُروف الدهر من رحم
موصولة أو ذِمام غــير مُنقَضِب

---

(٦٥) أحرزت : كسبت ، القضب : السيوف المصنوعة فى الهند ، مصلتة : قاطعة ، قضب الثانية : قدود ، كثب : جمع كثيب وهى مجتمع الرمل .

(٦٦) بيض : سيوف ، انتضيت : سلت ، من حجبها : من أغمادها ، أحق بالبيض : أحق بالنساء البيض ، الأتراب : المتماثلات فى السن ، من الحجب : من الستور .

(٦٧) خليفة الله : المعتصم ، جرثومة الدين (أصله) ، الحسب : الشرف .

(٦٨) بصرت : نظرت .

(٦٩) صروف الدهر : أحداثه ، ذمام : حرمة أوحق ، غير منقضب غير منقطع .

٧٠ – فبين أيامك اللاتى نُصرتَ بها
وبين أيامِ بدر أقربُ النّسب

٧١ – أبقتْ بنى الأصفر المراضِ كاسمهم
صفرَ الوجوه وجلت أوجُهَ العرب

الباعث على النص :

كان (تيوفيل بن ميخائيل) أمبراطور بيزنطة قد أغار على زبطرة ، وهى مدينة على الحدود بين أرض العرب وأرض الروم ، أو فى طرف بلاد الروم – كما ذكر ياقوت بمعجم البلدان – وكان أهلها من المسلمين التابعين لخلافة المعتصم ؛ وأهان الجيش الرومى المسلمين من أهل زبطرة ، وأهلك أهلها وسبى نساءها ، واسترق أطفالها ، وأحرق المدينة ، وعلم المعتصم بذلك ، وفجع بنبأ المرأة التى استغاثت به ، ونادت ، وامعتصماه ، واستشاط غضبا ، وصمم على هزيمة جيش الروم ، وفتح إحدى بلاده ، ولتكن أحصن مواقعهم ، واختار (عمورية) .

وأشاع المنجمون من الروم أن المعتصم لن يقدر على فتح هذه المدنية ، وذكروا أنهم وجدوا فى كتبهم أنها لن تفتح إلا فى زمن نضج التين والعنب ، وأن الثلوج سوف تمنعه من الوصول إليها قبل ذلك الوقت ، ولم يعبأ المعتصم بهذه الأقوال والأراجيف ، وزحف إليها وفتحها فى رمضان وشوال من عام ٢٢٣ هـ ، وسحق الجيش الرومى تماما ، وقضى على فلوله فى آسيا الصغرى .

واهتزت مشاعر أبى تمام لهذا النصر العظيم فقال القصيدة فى وصف المعركة ومدح المعتصم .

---

(٧٠) أقرب النسب : أقرب الصلات .

(٧١) بنو الأصفر : الروم ، المراض : الكثير المرض ، كاسمهم وهو بنو الأصفر ، جلت : عظمت .

شرح الأفكار :

١ — الأبيات من (الأول إلى العاشر) فى الموازنة بين عمل السيوف وأقوال المنجمين .

بدأ أبو تمام القصيدة بمطلع حماسى أشاد فيه بالسيف ، وأبان عن قوته وتأثيره ، وذكر أنه أصـــدق من أقوال المنجمين ، وبه يظهر الفارق بين الجد والهزل ، وأن السيوف وليس الكتب تكشف الأمر فيتضح الباطل من غيره ، واستمر فى رده على المنجمين قائلا : إن الحقيقة تكمن فى عمل أسنة الرماح بين الجيوش ، وليس فى طوالع الشهب ، وأخذ يسخر من صنيع المنجمين بمـــا فيها من أقوال مزخرفة وكذب وأحاديث ملفقة ، وهى لا تساوى شيئا على الإطلاق . وزعم المنجمون أن أموراً عظيمة ستقع فى صفر أو رجب ، وأن الأيام ستسرع فى إظهارها ، كما خوفوا الناس من مصيبة كبرى عند ظهور الكوكب الغربى ، وأخذوا يرتبون أحكامهم على أساس قولهم بالمنقلب وغير المنقلب من البروج ، وهم يحكمون عنها بأمور وهى لا تدرى شيئاً ، ولو كانت تعلم أمراً قبل حدوثه لعرفت ما كان سيحل بعمورية ويقع على أرضها .

٢ — الأبيات من (الحادى عشر إلى السادس والثلاثين) عن فتح عمورية ومكانتها عند الروم ووصف القتال عليها وبيان الخراب الذى حل بها .

تحدث أبو تمام عن هذا الفتح الجليل فذكر أنه يعظم على ما يقال فيه من شعر ونثر ، وأن السماء فتحت أبوابها له بالرحمة والغيث ، وأن الأرض ازينت له بأثوابها الجديدة المتمثلة فى الخضرة والأزهار ، وأن الأمانى اللذيذة الحلوة تحققت فى يوم الفتح حيث سما حظ المسلمين وانحدرت مكانة المشركين إلى الحضيض وتحدث عن القلعة ، فقال : إنها بمثابة الأم للروم ، حيث كانوا يتمنون فداءها بأمهاتهم وآبائهم ، وهى مع بروزها

(أو تسترها) لم يقدر عليها ملك الفرس أو حاكم اليمن ، وبقيت عذراء لم تفتح قبل ذلك ، ولم ينل الإسكندر منها شيئاً ، واستمرت مع طول الزمن شابة فتية ، وأن فيها من البهاء ما ليس لغيرها ، إذ أن الله سبحانه وتعالى استخلصها زبدة نقية على مر السنين .

ويعرض للمعركة فيذكر أن الكارثة المؤلمة قد حلت بعمورية مع أنها لم تتأثر بمصائب قبل ذلك ، وأن النحس انتقل إليها من أنقرة التى وقعت بها المصائب ، وأن الخراب انتقل إليها منها ، وكأنه جرب ينتقل بالعدوى ، وأن جثث الأبطال كانت مخضبة بين حيطان عمورية بدماء حارة بحكم السيف ، وليس ذلك كخضاب المسلمين الذى يسيل بسنة الدين وحكم الشرع .

ويصف الحريق الذى أحدثه المعتصم فى يوم القتال ، حيث لم يبق شيء على أرض القلعة حتى الذليل من الصخر والخشب أتت النار عليه وأحرقته ، وقال إن النيران حولت الليل إلى ضحى بسبب اللهب المتقد كالإصباح ، أو كأن الطبيعة قد ألبست الظلام ثيابا بيضاء ، أو كأن الشمس تجمدت وتوقفت عن المغيب ، وتحدث عن المزج بين ضوء اللهب وظلام الليل ، والمزج بين ظلمة الدخان والضوء الأصفر فى الضحى ، فالشمس غائبة ، ولكنها طالعة بسبب لهيب النار ، والشمس طالعة ، ولكنها كالغائبة بسبب الدخان .

وأبان عما حل بقلعة عمورية من مصائب وتدمير ، فقال إن الدهر قد كشف لنا فى الحرب عن يوم طاهر لما فيه من غزو وجهاد ولكنه جنب ، واحتاج إلى الغسل لما وطىء فيه من السبى ، ولم تطلع الشمس فى ذلك اليوم على شخص باق على حالته حيث قتل المتزوجون ، ووطئت السبايا فصرن عزبا ، ولم يكن ربع مية المعمور الذى أكثر ذو الرمة وصفه بأحسن حالا من ربع عمورية الخرب فى عين فاتحيها ، وأن نظرتهم إلى

خدها الترب أشهى لديهم من النظر إلى الخدود المحمرة خجلا ، وأن الفاتحين قد استغنوا بقبحها — فى نظر أهلها — عن كل حسن ومنظر عجيب ، وأسفر النصر عن حسن المنقلب للفاتحين وسوء المنقلب للروم الذين غفلوا عما لحق بهم من قتل وتخريب بالرماح والسهام .

٣ — الأبيات من (السابع والثلاثين إلى التاسع والأربعين) فى مدح المعتصم .

انتقل أبو تمام إلى مدح المعتصم فذكر أن نتائج النصر بتدبير رجل معتصم بحبل الله ، منتقم من الأعداء بقوة الله وسلطانه ، ومراقب لله فى تصرفاته ، ومرغب بما يفعله إلى الله تعالى . أى أنه خادم للدين فى جميع تصرفاته ، وأنه متعود على النصر ، يقاتل بسهام لا تكل فتصل إلى الأرواح المختبئة ، وأنه يغزو فيتقدمه جيش يصيب الأعداء بالفزع ، وأنه لعظم شأنه يعدل جيشا بأكمله ، وأنه انتصر فى معركة عمورية بتأييد الله ، ولو كان قتاله لغير دين الله لم يحقق شيئاً ، وأنه فتحها بعد ما وثق أهلها بمنعتها بعون الله الذى يستعان به على فتح المعاقل الحصينة ، وكان القائد الرومى قد طمأن نفسه بأن الفاتحين لن يجدوا ما يشجعهم على القتال عليها مثل الكلأ والماء ، ولكن أدوات الحرب قضت على هذه الأمانى ، وأن الحياة بما فيها من أكل وشرب لا تنال إلا بالسيوف والرماح ، وأن المعتصم فزع للصوت المستغيث فى زبطرة وهرع له ، فترك شرابه ونساءه ، وأنه فضل حرارة الثغريين الأعداء على برودة الأفواه بما فيها من رضاب وأسنان . وأشاد الشاعر باستجابة المعتصم لذلك الصوت بالسيف الباتر ، ولو كانت إجابته بغير السيف فكأنه ما أجاب ، وأنه حرص على فتح عمورية ، ولم يعرج على القرى والرساتيق .

٤ — الأبيات من (الخمسين إلى السادس والستين) فى بيان أثر الحرب على الروم .

قال أبو تمام : عندما رأى (توفلس) الحرب بما فيها من غضب وضياع تجرى إليه بالرجال كما تجرى السيول حاول إغراء المعتصم بالمال ليرجع عن القتال ، ولكن المعتصم غلبه وفاز عليه .. وهيهات أن يرجع وقد اضطربت الأرض بسبب الغزو الذى كان فى سبيل الله ، وليس لكسب المال ، وأن ما أنفقه على الحرب من ذهب وهو كثير عنده ليس طمعاً فيما عند (توفلس) ، ولكن لينتقم منه أو يدخل فى الإسلام ، وقال إن المعتصم غير محتاج إلى المال ، وإن همته منصرفة ، إلى الحرب ، وقد فر (توفلس) بعد أن ألجم بالرعب ، واضطربت أحشاؤه : وهو لا يفكر إلا فى نفسه ، حيث أسلم جلساءه للموت ، ومضى يحث ما نجا من مطاياه على الهرب . وأخذ يصعد ما ارتفع من الأرض لينظر إلى الطرق إن كان يتبعه أحد فيها ، وإنه كان فى عدوه كالظليم لشدة النار بالقلعة ، فقد ترك بها جيشاً كبيراً وسع به على مسعر الحرب حيث استعمله وقوداً لنارها ، وإنه ترك تسعين ألفاً من رجاله الشجعان نضجت أعمارهم قبل نضوج التين والعنب — وفى هذا تكذيب لأقوال المنجمين الذين أكدوا أن الفتح سيكون فى وقت إدراك التين والعنب .

وقال : إن نفوس المسلمين قد طابت بقطع دابر المشركين ، ولا يتحقق لها ذلك إذا ضمخت بالمسك ، وقال : إن السيوف قد أحيت الرضا فى نفس المعتصم وكل مغضب على الكفر ، وأماتت الغضب لديه ، وإن أمر الحرب أتعب الناس فجثوا على ركبهم صاغرين ، لثقل ما حملوه ، وإن الحرب — بضوئها وشررها — قد أفاءت على المسلمين كثيراً من الجوارى الجميلات اللاتى يشبهن القمر ، وذات عوارض أى جوانب جميلة من

الأسنان، وإنه اتبع في الحرب من الأسباب ما ظفر به المسلمون من نساء جميلات حيث أفاءت السيوف بذوات قدود كالأغصان، وذوات أرداف كالكثبان، وإن تلك السيوف التي خرجت من أغمادها أحق بهذه النساء من الحجب والستور.

٥ — الأبيات من (السابع والستين إلى الحادي والسبعين) في مدح المعتصم.

عاد أبو تمام في الأبيات الأخيرة إلى مدح المعتصم، فدعا له بالجزاء الحسن لسعيه في الدفاع عن أصول الدين والعروبة، وهو لا يجد راحته إلا في المشقة والسعي المخلص، وأن الصلة الممتدة عبر الزمن تجعل أيامه العامرة بالانتصارات كتلك الأيام التي عاشها المسلمون في زمن موقعة بدر، وقد أخاف الروم وأبقاهم صفر الوجوه، وأضاء وجوه العرب، وعظم قدرهم بهذا الفتح الجليل.

ملامح التعبير والتصوير:

إن التفهم لمناسبة هذه البائية يرشدنا إلى كثير من أسرار التعبير من ألفاظ وتراكيب، كما يبصرنا بمواقع التصوير الخيالي ومغزاه.

وقد حشد أبو تمام فيها كل قدراته الفنية، وسخر لها موهبته الفذة في فن الشعر، خاصة وأنه عايش بعض الحروب التي دارت رحاها على الحدود بين الشام وأرض الروم، ورأى كيف تحول القتال إلى صراع ديني يكفر كل طرف من المتحاربين الطرف الآخر.

والقصيدة ليست في موضوع واحد، بل تتناول عدة موضوعات. فقد وازن بين عمل السيوف وأقوال المنجمين، وتناول القتال على أرض عمورية، ورصد الخراب الذي حل بها، ومدح المعتصم من خلال فتح هذه القلعة، وأبان عن آثار الحرب على الروم، وعاد في النهاية إلى مدح المعتصم والإشادة بآثره.

وقد تعانقت الألفاظ والتراكيب وغيرهما من أدوات التعبير مع العناصر المختلفة للصورة الخيالية فى إبراز المضمون وإخراج النص الشعرى بهذا الشكل الذى رأيناه .

الأبيات من الأول إلى العاشر :

أشاد أبو تمام فى هذه الأبيات بقوة السيف التى فضلها على أقوال المنجمين ، وسخر من كل الأحاديث والعجائب والبروج التى خوفوا الناس منها ، ويتضح لنا ذلك فى الأبيات المذكورة كما يلى :

(البيت الأول) بدأ الشاعر القصيدة بذكر السيف وهو رمز للقوة ، وفضله على غيره ، وأتى بكلمة (أنباء) فى صورة الجمع ، ليفيد أن السيف أصدق من الكتب فى كل الأنباء والأحوال ، وطابق بين السيف والكتب ، ثم طابق بين الجد واللعب ، وجانس بين (حده) و(الحد) لاتفاق الكلمتين فى اللفظ ، واختلافهما فى المعنى ، على أن الطباق فى الشطر الأول ، والطباق فى الشطر الثانى يؤكدان التباين الكبير بين السيف والكتب ، والتباين الآخر بين الجد واللعب .

وفى قوله (السيف أصدق) استعارة مكنية جعل السيف فيها مشخصاً، وذا إرادة واختيار مثل الإنسان تماماً .

ونلاحظ أن افتتاح القصيدة بهذا البيت يأتى مخالفاً لما درج عليه أكثر الشعراء الأقدمين حيث كانوا يبدؤون قصائدهم بالوقوف على الأطلال أو الديار بالبكاء عليها أحياناً أو بالغزل المجرد من الوقوف والبكاء فى أحيان أخرى .

(البيت الثانى) بدأ الشاعر هذا البيت بالسيوف أيضاً ، والتى أطلق عليها (بيض الصفائح) ليقابل بينها وبين كتب المنجمين التى ذكرها

بـ (سود الصحائف) أى أن بيض الصفائح كناية عن السيوف ، وسود الصحائف كناية عن كتب المنجمين .

ولا يخفى الطباق بين (بيض وسود) مستعملا البياض للسيوف والسواد لكتب المنجمين ، وكأن ما فى تلك الكتب يدع الشخص ضالا أو فى ليل حالك ، وجانس بين (الصفائح والصحائف) ، وأكد المعنى فعبر بالقصر عن طريق العطف بـلا فى الشطر الأول ، كما استعمل القصر عن طريق التقديم فى الشطر الثانى ، ومزج بين هذه الأصباغ والاستعارة المكنية فى الشطر الثانى وهى فى قوله : « جلاء الشك والريب » ، وصورهما — أى الشك والريب — بشىء يجلى .

(البيت الثالث) يواصل أبو تمام استكمال الصورة بالأسلوب الخبرى الملائم ، لتأكيد أن القوة أجدى من الكلام ، وأصدق من النجوم والشهب السبعة ، وجانس بين (شهب والشهب) ، وفضل العلم ورفع شأنه فى مقابل التنجيم بالشهب ، وعبر عن ذلك بالقصر بلا العاطفة .

(البيت الرابع) جمع هنا بين المرويات المكتوبة ومظاهر الطبيعة المشاهدة من خلال الاستفهام الذى كرره ، وقصد به السخرية من المنجمين وصور كلامهم بشىء حسى مزخرف ، من خلال التصوير باستعارة مكنية قصد بها إبراز كذب دعاواهم .

(البيت الخامس) واصل الشاعر الحديث عن صنائع المنجمين ، وكنى عن عدم النفع منها فى الشطر الثانى ، وشبه القوة أو الفائدة بالنبع (استعارة تصريحية) كما شبه الضعف أو عدم الفائدة بالغرب (استعارة تصريحية) أيضا ، وطابق بين النبع والغرب ، لينفى الفائدة تماما عن هذه الأحاديث الملفقة .

(البيت السادس) تتوالى الأساليب الخبرية لبيان السخرية من كتب

المنجمين ، وقد وظف الشاعر معطياته من صور وأساليب لتأكيد غرضه، واختار الألفاظ الملائمه للجو النفسي المحيط بتلك الأحداث المصاحبة ، وقدم (عجائبا) على عامله لبيان خطورة تلك العجائب ، وقوله : «زعموا» يؤكد أن العجائب والادعاءات ليست بيقين .

وعبر بقوله : «صفر الأصفار» لبيان عظم هذا الشهر حسب رأى المنجمين .

وفى (صفر الأصفار) ما يعرف بجناس الاشتقاق .

وصور الأيام بصورة الدواب التى تفر عند ظهور الخطر ، وحذف المشبه به ، وذكر بعض لوازمه ، وهو كلمة (مجفلة) .

(البيت السابع) سعى أبو تمام إلى الاستقصاء فى عرض الصورة البيانية ، وهو يتابع أقوال المنجمين عن المظاهر المختلفة للطبيعة ، وذكر الفعل (خوفوا) على هذه الصورة لزيادة المعنى ، ووصف الدهياء بأنها (مظلمة) ، حيث اقترنت المصائب فى أذهان الناس بالسواد .

(البيت الثامن) فى الرواية التى اعتمدنا عليها ، والتى تكسر التاء فى (مرتبة) يكون بالكلام استعارة مكنية ، فقد أعطيت الأبرج العليا ما ليس لها من صنع الترتيب ، وكأنها شخصت بالصورة التى تفعل ذلك .

أما رواية (فتح التاء) فى الكلمة المذكورة فإن المسألة لا تعدو أن تكون تجاوزاً من المنجمين ، لأنهم يدعون بتصيير الأبرج على هذا الترتيب ، وهم يزعمون أن الأبرج على ثلاثة أقسام : أربعة منقلبة وأربعة ثابتة ، وأربعة ذوات جسدين (انظر شرح التبريزى لديوان أبى تمام ج ١ ص ٤٤) والأبرج المنقلبة هى : الحمل والسرطان والميزان والجدى ، والثابتة هى : الثور والأسد والعقرب والدلو ، وذوات الجسدين هى الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت ، على أن المطابقة بين (منقلب وغير منقلب) لم تستوف كل الأبرج التى زعمها المنجمون .

(البيت التاسع) مازال الشاعر يستقصى عمل المنجمين ، ليرد عليهم ، وقال قبلا : « ما كان منقلباً أو غير منقلب » وقال هنا : « مادار فى فلك منها وفى قطب » ، وقوله : « وهى غافلة » أسلوب قصد به تشخيص النجوم (استعارة مكنية) ؛ ولبيان التناقض فى صنيع المنجمين ، فكيف يحتكمون إلى النجوم ، وهى غافلة عما يدور فيها .

(البيت العاشر) فى هذا البيت استعارتان مكنيتان فى قوله : « لو بينت » وقوله : « لم تخف » . وفى تعبيره بالأوثان والصلب مايؤكد حرص الشاعر على إبراز القتال فى أرض عمورية فى صورة صراع عقدى بين الإسلام والنصرانية ، وبعد أن استقصى الشاعر فى هذه الأبيات مزاعم المنجمين انتقل إلى جزئية أخرى لها ملامح متميزة .

٢ — الأبيات من الحادى عشر إلى السادس والثلاثين :

عرض الشاعر فى هذه الأبيات لمجموعة من الأفكار التى تتصل كلها بفتح عمورية والانتصار على جيش الروم ، وتمازجت العناصر المختلفة للتجربة الشعرية فى إبراز المعانى على هذه الصورة المتميزة .

(البيت الحادى عشر) فى قوله : « فتح الفتوح » مبالغة ، حيث فضل النصر فى عمورية على جميع الفتوحات الأخرى ، وفى التعبير جناس اشتقاق وفى قوله : « نظم من الشعر أو نثر من الخطب » ما يلائم المبالغة التى استهل بها البيت . وتعانق التصوير مع التعبير ، فجاءت الاستعارة المكنية فى قوله : « أن يحيط به نظم من الشعر . . » مصوراً النظم بصورة حسية مجسمة ، ولبيان التقصير عن الإحاطة بهذا الفتح سواء من ناحية العاطفة التى يمثلها الشعر ، أو من ناحية العقل الذى يمثله النثر .

(البيت الثانى عشر) يواصل أبو تمام تزيين أسلوبه بأصباغ البديع

المختلفة ، وهى تعبر عن حالة من التعبير التى عشقها شعراء التجديد فى العصر العباسى ، ويقول : « فتح تفتح » وهذا ضرب من الجناس عرفناه فى أمثلة سابقة ، وقوله : « تفتح أبواب السماء له » مبالغة ملائمة ومقبولة ، ويقصد أن السماء تباركه بالغيث والرحمة ، والأسلوب كناية عن أن الفتح فى سبيل الله ، وقوله : « وتبرز الأرض » مجاز مرسل علاقته المحلية حيث يقصد من على الأرض ، أو أن يكون قوله « وتبرز الأرض فى أثوابها » استعارة مكنية لتشبيهها بإنسان يلبس الأثواب الجديدة ، وجاء الطباق (بين السماء والأرض) مؤكداً للمعنى ، فالاحتفال بالفتح صدر من السماء ونبع من الأرض .

(البيت الثالث عشر) نادى الشاعر على يوم عمورية ، وقصد الإشارة إلى عظم شأنه وقدره ، ولا زال البعض ينظر إلى مثل هذا الأسلوب من النداء على أنه استعارة مكنية حيث خاطب من لا يسمع ، وفى البيت بعض الصور الاخرى مثل تشخيص المنى بالاستعاره المكنية فى قوله : « انصرفت منك المنى » وتتسع دائرة التصوير الخيالى فى البيت من خلال كلمة (المنى) التى جعلها (حفلا) أى أنه شبهها بناقة يمتلىء ضرعها باللبن ، وهو تعبير يتلاءم مع البيئة العربية ، وجعل الأمانى عامرة ومعسولة ، بأسلوب الاستعارة المكنية .

(البيت الرابع عشر) ذكر أن يوم عمورية أبقى حظ المسلمين فى صعد (ارتفاع) ، مصوراً الحظ بصورة مجسمة ، كما أن حظ المشركين فى صبب (انحدار) ، وتتضح من البيت المقابلة بين شطريه ، وقصد تعظيم يوم الفتح ، وبيان أثره على المسلمين .

(البيت الخامس عشر) شبه الشاعر (عمورية) بالأم بالنسبة للروم ؛ ليؤكد على قيمتها عندهم ويعظم شأنها فى نظر المسلمين ، وشاكل بين هذه الأم وتلك الأم التى يودون مفاداة عمورية بها إلى جانب الأب .

(البيت السادس عشر) جعل عمورية أنثى بارزة الوجه ، أو حيية مستترة ، وأن الفرس والعرب عجزوا عن النيل منها ، وهذا استطراد للصورة الاستعارية التى وظف أبو تمام أحداث التاريخ فيها .

(البيت السابع عشر) — جعل عمورية بكراً ، ورشح الاستعارة بقوله : « فما افترعتها » ، وقوله : « ولا ترقت إليها » ، كما صور الحادثة تصويرا استعاريا فى قوله : « كف حادثة » ، ومثل ذلك فى قوله : « همة النوب » حيث شخص النوب ، وجعلها ذات همة لا ترقى إلى افتراع القلعة التى تشبه البكر .

(البيت الثامن عشر) — يواصل الشاعر استكمال الصورة الكلية ، ولذلك أوضح أن عمورية ما زالت شابة ، فقال: « وهى لم تشب » ، وتلك الصورة الجزئية استعارة مكنية ، شخص فيها القلعة ، وصورها بذلك الوصف ، وجعل الليالى نواصيا ، بالاستعارة المكنية ، ثم جعل النواصى تشيب . وهكذا تتداخل الصور الجزئية ؛ لتكتمل منها صورة كلية ، جعل الليالى فيها عجوزا ، بينما رسم عمورية فى صورة الفتاة الشابة وهنا تبرز قيمة الطباق بين (شابت) و (لم تشب) .

(البيت التاسع عشر) ينبنى هذا البيت على صورة كلية مركبة بها صور جزئية ، وجاء ذلك فى قوله : « مخض الله السنين » ، حيث شبه السنين باللبن الذى يمخض (استعارة مكنية) ، وشبه مخض السنين بمخض البخيلة ، لأنها أكثر حرصا وأشد اعتناء فى المخض ، ثم صور القلعة بأنها زبدة الحقب ، أى صفوة ما فى الزمن ، وهذا تشبيه جميل .

(البيت العشرون) — مزج أبو تمام بين الألفاظ والتراكيب و (بين) الصور الخيالية ، بهدف تعميق الأفكار وإثرائها ، ولننظر إلى كلمة (السوداء) وما تثيره من دلالات ، ومع ذلك فهى تسهم مع كلمة

(الكربة) فى تقديم صورة مجسمة ذات لون كئيب ، كما ربط آخر البيت بأوله بالمحسن البديعى المسمى برد العجز على الصدر ، فى قوله (الكربة والكرب) .

(البيت الحادى والعشرون) تظهر هنا بعض ملامح البيئة مثل التفاؤل والتشاؤم بحركة الطيور ، كما يسترجع الشاعر أحداث التاريخ حيث وقع الخراب بأنقرة . وفى قوله : «جرى له الفأل» استعارة مكنية جسم فيها الفأل ، وجعله يجرى من (أنقرة) إلى (عمورية) .

(البيت الثانى والعشرون) قال أبو تمام : «لما رأت أختها» مشخصا (عمورية) باستعارة مكنية ، وتحدث عن انتقال الخراب إليها ، وشبهه بالجرب .

(البيت الثالث والعشرون) تتلاءم (كم) مع وصف الخراب فى عمورية فتؤكد كثرة الأبطال الصرعى بين الحيطان ، وشبه الدم فى قوله : «من آنى دم» بالماء المغلى أو استعار الثانى الأول .

(البيت الرابع والعشرون) جاء التصوير هنا استكمالا لما بدأ فى البيت السابق ، فهؤلاء الأبطال مخضبون بسبب السيف وليس بسبب الدين ، وبذلك تبرز قيمة التضاد بين سنة السيف وسنة الدين ، مع أن الشاعر قابل الشطر الثانى بالشطر الأول .

(البيت الخامس والعشرون) استعان الشاعر بالنداء على المعتصم لبيان أنه رفيع الشأن عظيم القدر ، وأكد الكلام باللام وقد ، ثم استعار الذلة للصخر والخشب لتشخيصهما ، وبيان أن القلعة قد أحرقت فذل كل شىء فيها حتى الصخر والخشب .

(البيت السادس والعشرون) واصل أبو تمام تصوير الحريق الذى

أججه المتصم بالقلاة،وأبان كيف أحال الحريق الليل إلى نهار ، فكان ضوء اللهب يطرد الليل ، وفى قوله : « وهو ضحى » تشبيه ، وقوله « يشله .. صبح » تشخيص للصبح بالمكنية ، وطابق بين الليل والضحى ، وقابل بين المغادرة والليل فى الشطر الأول ، والطرد والصبح فى الشطر الثانى .

(البيت السابع والعشرون) شخص الدجى ، وجعل له جلابيب (استعارة مكنية) وأن الجلابيب رغبت عن لونها (ترشيح للاستعارة) أو بمعنى آخر استعار الجلباب للإظلام (استعارة تصريحية) وبالغ فى الصورة ، فشبه الإنارة من الحريق بعدم غياب الشمس .

(البيت الثامن والعشرون) قابل الشاعر بين الشطر الأول وما فيه من من ضوء اللهب وظلمة الليل المقيمة ، وبين الشطر الثانى وما فيه من الظلمة المنتشرة بسبب الدخان فى وقت الضحى ، وشخص الظلماء والضحى ، فالأولى عاكفة والثانى متغير اللون .

(البيت التاسع والعشرون) يرتبط التعبير فى هذا البيت بما قبله ، وقد قابل الشاعر بين ثلاثة أشياء فى الشطر الأول ، وثلاثة أشياء أخرى فى الشطر الثانى ، فالشمس طالعة بسبب اللهب وقد أفلت ، والشمس غائبة بسبب الدخان وقد طلعت ، وهذه المقابلة تبرز شدة اللهب وكثرة الدخان .

(البيت الثلاثون) نقع فى هذا البيت على طباق متميز فى (طاهر وجنب) وتتصل بهذا البيت إشكالية وصف اليوم بالطهر والجنابة ، فهو كما قلنا فى شرح الأبيات طاهر لما وقع فيه من الغزو ، وجنب لما وقع من الوطء ، فالأسلوب مجاز مرسل علاقته الزمانيـــة وفى (تصرح تصريح) جناس اشتقاق ، كما اشتمل البيت على تشبيه مقتبس من المظاهر الطبيعية، وهو أن الدهر قد كشف عن يوم الفتح بمثل كشف الغمام للسماء ، وأن هذا الكشف أسفر عن طلوع الشمس فى البيت التالى .

(البيت الحادى والثلاثون) أكد الشاعر أن الفناء شمل جميع الروم المقاتلين بالقلعة ، ولما كان قد ذكر الطهارة والجنابة فى البيت السابق ذكر الناس هنا وقسمهم إلى متزوجين وعزاب ، وقابل طلوع الشمس على بان وغروبها على عزب ، وقوله : « بان بأهله » مجاز مرسل علاقته السببية .

(البيت الثانى والثلاثون) وظف الشاعر معرفته بالحقائق والأحداث التاريخية فى تصوير الخراب الذى وقع بعمورية ، وأن النظر إلى الخدود المحمرة من الخجل ليس به شهوة تزيد عن النظر إلى خدها ، وبين (معمورا والخرب) طباق .

(البيت الثالث والثلاثون) وجد أبو تمام أن البصر خير ما يستعان به فى تصوير الخراب ، وقوله : « من خدها الترب » استعارة مكنية تتلاءم مع أبيات سابقة جعل القلعة فيها بكرا ، وتظهر المطابقة بين الخجل والخد الترب ، وأبرز المفاضلة فى النظر إلى الاثنين .

(البيت الرابع والثلاثون) واصل الشاعر تصويره لخراب عمورية بطرق الأداء المختلفة ، ولعل عنايته بالمحسنات البديعية وبخاصة الطباق والمقابلة تزيد عن أية عناية أخرى ، وذكر أنها مع سماجتها بالخراب فى نظر أهلها تزيد حسنا عند الفاتحين عن أى منظر آخر ، وهذا المعنى أحدثه الطباق بين (السماجة والحسن) .

(البيت الخامس والثلاثون) يكشف الطباق بين (حسن وسوء) مقدار ما لحق بالمسلمين من سعادة وبالروم من سوء وتعاسة ، ويتضح فى البيت حسن تقسيم بين الفقرات ، فأسهم فى إشاعة جو من الموسيقى بالبيت .

(البيت السادس والثلاثون) يتضح الطباق بين (يعلم وكنت) ، وفى

قوله : « يعلم الكفر » و « كنت له العواقب » تشخيص ، والتعبيران استعارتان مكنيتان ، وهكذا يمزج الشاعر بين التعبير والتصوير .

وقد لمسنا فى الأبيات السابقة حرص أبى تمام على وصف القلعة وتصوير ما جرى فيها من قتال ، وإبراز الخراب الذى لحق بها بطريقة تبدو عليها ملامح الصنعة الشعرية والتى تمزج بين المحسنات البديعية والصور الخيالية مع الغوص على الأفكار والتفرد فى المعانى .

٣ — الأبيات من السابع والثلاثين إلى التاسع والأربعين .

خلع الشاعر على المعتصم فى الأبيات التالية صفة دينية بطولية ، فجعل قتاله فى سبيل الله ، وأن نصره بأمر الله ، وتأتى بعد ذلك أدوات القتال

(البيت السابع والثلاثون) السجع هو أبرز المحسنات فى هذا البيت ، حيث نقله الشاعر من النثر إلى الشعر ، وبنى الفقرتين فى الشطر الأول على حرف الميم ، وبنى الفقرتين بالشطر الثانى على حرف الباء ، وكرر لفظ الجلالة للتأكيد على أن سعيه ابتغاء وجه الله .

(البيت الثامن والثلاثون) استعار الشاعر إطعام الوحوش بسبب النصر إلى المعتصم ويعنى هذا التشخيص كثرة القتلى من الأعداء ، وبين (حجبت ومحتجب) جناس اشتقاق .

(البيت التاسع والثلاثون) أراد أن يؤكد قوة جيش المعتصم فى كل غزواته ، فجعل الجيش رعبا ، وهو تشبيه قصد به تشخيص الرعب وإبرازه فى صورة محسوسة .

(البيت الأربعون) أشاد بالمعتصم ، وجعل منه بالتشبيه جيشا بمفرده لعظم شأنه .

(البيت الحادى والأربعون) وظف المقابلة لبيان ما لحق بالقلعة من تهديم ، كما استعان بالألفاظ (المفردة) والجمل المركبة ، لتأكيد هدف التهديم وهو أنه فى سبيل الله ، ثم إن تضعيف الفعل (فهدمها) يتلاءم مع المعنى ويؤكده .

(البيت الثانى والأربعون) ذكر أن الدخول إلى القلعة كان بتوفيق الله ، وأفاد بأنها لم تكن سهلة ميسرة للغزو ، وإنما كانت كالمعقل الحصين وفى (أشبوها والأشب) جناس اشتقاق ، ولننظر إلى قوله : أشبوها ، حيث شبه القلعة بالغيضة التى التفت الأشجار بها فحصنتها .

(البيت الثالث والأربعون) تتجلى بهذا البيت بعض المظاهر البيئية كمرتع السارحين ومكان ورود المياه .

(البيت الرابع والأربعون) شخص الشاعر ظبى السيوف وأطراف القنا وجعلها تقضى على نجاح الأمانى التى كان يتشدق بها أهل الروم ، وإذا كانت السُّلب جمع سلوب ففى (القنا السلب) استعارة مكنية شخص فيها القنا وجعلها تسهم فى الاستيلاء على ما فى القلعة .

(البيت الخامس والأربعون) كرر أبو تمام السيوف والرماح كثيرا وجعلهما (هنا) دلوا الحياة بالماء والحياة بالنبات (تشبيه) ، أى أنهما سبيل الحياة ، ولا تنال لذتها إلا بهما .

(البيت السادس والأربعون) ذكر أن المعتصم ترك النعاس والمرأة فى سبيل الفتح ، وفى قوله : « كأس الكرى » إبراز للكرى فى صورة مجسمة جعلت المعتصم يريق الكأس المليئة بالدعة والراحة من أجل الفتح ، وقوله : « هرقت .. رضاب الخرد » مبالغة وتصوير للرضاب بصورة يراق فيها ، والأسلوب مع هذا كناية عن هجر المرأة وتركها من أجل القتال .

(البيت السابع والأربعون) وازن فى المعنى بين شطرى البيت ،

وطابق بين (حر وبرد) وجانس بين الثغور والثغور ، وفى قوله : « عن سلسالها الحصب ، خيال رائع شبه فيه رضاب الفم بما فيه من أسنان نقية بالماء المشوب بصغار الحصى .

(البيت الثامن والأربعون) قابل الشاعر فى المعنى بين شطرى البيت ، وتجلى ذلك فى الإجابة بالسيف والإجابة بغير السيف وبينهما طباق ، ووضح فى البيت طباق آخر بين (أجبت ولم تجب) .

وفى قوله : « أجبته معلنا بالسيف » مجاز مرسل علاقته الجزئية ، فاكتفى به ، لأنه رمز القوة والشجاعة .

(البيت التاسع والأربعون) جعل أبو تمام عمورية عمودا للشرك عند الروم (كناية) كما جعل الأوتاد والطنب كناية عن القرى والرساتيق الصغيرة ، وفى البيت مقابلة بين شطرية ، أما كلمة الشرك فهى تؤكد ماذكرناه من اتجاه الشاعر إلى تحويل القتال إلى نوع من الصراع العقدى بين المسلمين والروم ، وقد اعتمد فيما سبق على المقابلات والأصباغ البديعية الأخرى التى وشى بها استعاراته وصوره الخيالية .

٤ — الأبيات من الخمسين إلى السادس والستين :

عرض الشاعر فى هذه الأبيات لبيان أثر الحرب على الروم وأشاد فيها بجهود المعتصم ، فقد كانت نتيجتها أثرا من جهده ونضاله .

(البيتان الخمسون والحادى والخمسون) يرتبط هذان البيتان ببعضهما كما تأتى بعدهما بعض الأبيات التى تكمل الصورة التشبيهية المتخيلة فذكر أنه لما عايش (توفلس) الحرب مثل مشاهدته لها ، ورآها تجرى إليه بالرجال مثل جرى السيول بذل أموالا ليرجع المعتصم عنه فغلبه أى المعتصم الذى يشبه البحر ، ولا يخفى ما بين الحرب (باسكان الراء) والحرب (بفتحها) من جناس اشتقاق وتكتمل الصورة فيما يأتى .

(الأبيات من الثانى والخمسين إلى الرابـــع والخمسين) ذكر قبلا أن المعتصم لم يبال بالمال ، وذكر هنا أنه يحتسب الغزو عند الله ، ولا يهدف منه إلى اكتساب المال، ولذلك تبرز قيمة الطباق بين (محتسب) و(مكتسب) كما أن بينهما جناسا ناقصا ، وصور الأرض بصورة ترتج فيها بتوفلس ، وشبه المال فى كثرته بالحصى، كما شبه الجنود بالأسود (استعارة تصريحية) وعاد إلى جو القتال بالمسلوب والسلب وبينهما طباق وجناس اشتقاق .

(البيت الخامس والخمسون) ذكر الشاعر (هنا) توفلس ، وجعل السيف مثل اللجام له ، كما أن بين المنطق والسكون طباقا ، وصور الأحشاء بصوره بارزة تثير فيها الصخب والاضطراب .

(الأبيات السادس والخمسون إلى الثامن والخمسين) عرض أبو تمام فى هذه الأبيات لصورة امبراطور الروم (بيزنطة) وقائدهم فى حرب عمورية ، فهو يعطى جلساءه للموت (استعارة مكنية) ، وأن نظراته إلى الطرق بسبب الخوف لا بسبب السرور (طباق) وأنه يعدو عدو الظليم (تشبيه) ، كما جعل الشاعر جيش الروم حطبا (استعارة تصريحية) وأن هذا الحطب كثير جدا .

(البيت التاسع والخمسون) شبه جيش الروم بآساد الشرى ، وجسد الأعمار وشبهها بفاكهة تنضج (استعارة مكنية) ، ثم قابل نضج الأعمار بنضج التين والعنب ، وفى ذلك استهانة بجيش الروم الذى هان على قائدهم وهم الذين يشبهون الأسود ، كما أشار أبو تمام إلى مقولة المنجمين بفتح القلعة فى زمن نضج التين والعنب .

(البيت الستون) تحدث الشاعر عن جيش الروم ، وذكر أن نفوس الموتى تطيب بموتهم ، ولكنها لا تطيب إذا ضمخت بالمسك ، وأسهم فى بيان هذا المعنى المطابقة بين (طابت ولم تطب) .

(البيت الحادى والستون) مزج الشاعر بين التعبير والتصوير ، إذ

قابل بين (حى الرضا، وميت الغضب) وشخص السيوف والرضا والغضب وجعلها فى صورة يتأتى منها الرجوع والحياة والفناء، وهى استعارات مكنية، كما رد آخر البيت على أوله بمحسن بديعى وهو (رد العجز على الصدر) وهكذا تتداخل الاستعارات مع المحسنات البديعية، وقد غمض المعنى غموضا زاهيا مشرقا بسبب المعنى البعيد الذى غاص الشاعر عليه، وصاغه فى هذه الصياغة البديعية المحكمة.

(البيت الثانى والستون) شخص أبو تمام الحرب وجعلها قائمة أى واقفة (استعارة) وشبه الحرب بهذه القائمة التى تشبه الأسنان (تشبيه) وتجثو القيام به صغرا كناية عن تبعة الحرب وثقلها على الناس.

(البيت الثالث والستون) عبر الشاعر بكم لإفادة الكثرة وتأكيد المبالغة، وفى (سناها وسنا) جناس، وفى (عارضها وعارض) جناس آخر، وجسم الحرب باستعارتين مكنيتين فى قوله: تحت سناها، و«تحت عارضها» وفى قوله: «سنا قمر» استعارة تصريحية شبه فيها ضوء الجارية بضوء القمر، وهكذا مزج بين المحسنات البديعية والصور الخيالية.

(البيت الرابع والستون) لا يختلف بيان (كم) هنا عن نظيرتها فى البيت السابق، وفى قوله: «قطع أسباب الرقاب» استعارة مكنية، لأنه شبه أسباب الرقاب بالحبل، وكنى عن المخدرة العذراء بالمرأة أو بالقلعة وفى البيت محسن بديعى وهو رد العجز على الصدر بين كلمة (سبب فى آخر البيت وكلمة (أسباب) فى حشو المصراع الأول.

(البيت الخامس والستون) مارس الشاعر هوايته وموهبته بضروب الصنعة فكرر (كم) فى ثالث بيت على التوالى، وكرر كلمة (قضب) فى شطرى البيت مع اختلاف معنيهما، وبينهما طباق، ورد العجز على الصدر.

(البيت السادس والستون) فى قوله : « بيض وبيض » جناس تام ، وفى قوله « حجبها والحجب » جناس ناقص ورد العجز على الصدر .

• — الأبيات السابع والستون إلى الحادى والسبعين :

فى قوله : « خليفة الله » أسلوب نداء للتعظيم ، وفى قوله : « جازى الله سعيك » أسلوب خبرى فى اللفظ ، وقصـد بمعناه الدعاء للخليفة ، وقد طابق بين الراحة والتعب ، كما شبه التعب بالجسر ، وقصر نيله الراحة على جسر من التعب ، وشخص صروف الدهر وأيام بدر ، وربط بينها بالرحم والنسب وبين (أيامك وأيام) جناس ، وشبه أيام عمورية بأيام بدر فى الرفعة والعظمة ، وطابق بين (صفر الوجوه) و (جلت أوجه العرب) ، ولعل الشاعر قد تنبه إلى ذلك فى آخر القصيدة حتى لا يكون النزاع قاصراً على الدين ، بل يمتد ليشمل الجنس أيضاً .

نقدات عامة :

١ — جاءت بائية أبى تمام فى واحد وسبعين بيتاً ، وهو قدر كبير أو قريب منه ، خاصة وأن القصيدة ليست فى موضوع واحد بل اشتملت على عدة موضوعات يتناول كل منها مجموعة من الأفكار العامة والتى تندرج تحت كل منها بعض الأبيات ، وهى تشبه قصـائد بعض الجاهليين من هذا الجانب ، ونقصد به تعدد الموضوعات فى القصيدة الواحدة .

ونراها تختلف كثيراً عن معلقة زهير بن أبى سلمى ، والتى قالهـا فى حروب عبس وذبيان ، فزهير بدأ قصيدته بالغزل ، وتحدث عن الحرب ، وامتدح الحارث وهرما ، وتكلم عن تجاربه وحكمه فى الحياة ، أما أبو تمام فقد اختلف الأمر لديه حيث وازن بين قوة السيف وعمل المنجمين الذين

أشاعوا استحالة النصر وتحقيق الفوز إلا فى زمن نضج التين والعنب ، واستطرد فذكر كل مايدعيه المنجمون حول رواية الأحاديث الملفقة وادعاءاتهم الكاذبة بالنجوم ، وتغنى بالفتح ووصف القلعة ، وصور مشاهد القتال فيها ، ومدح المعتصم الذى حقق النصر ، وعاد إلى أرض المعركة فتحدث عن هزيمة الروم فى نهاية القصيدة .

ولا شك فى أنه سعى إلى مدح المعتصم بمناسبة انتصاره العظيم ، ولذلك تعد هذه البائية من أبرز القصائد الحماسية فى العصر العباسى الأول.

وقد بالغ فى الرد على المنجمين وأصحاب كتب السحر ، وفى وصف الخراب الذى حل بعمورية ،كما خلع على الخليفة الصفة الدينية ، وكرر لفظ الجلالة فى العديد من الأبيات ، وقال إن القتال ليس بين العرب والروم، وإنما بين الإسلام والكفر وأنهى القصيدة بخاتمة ذكر فيها الجنس بدلا من الدين فى هذا الصراع .

أما الأفكار الجزئية فهى كثيرة وتتميز بالعمق والابتكار، وقد لوحظ أنه أجهد فكره كثيراً ، فجاءت بعض المعانى غامضة ، ولأنه لم يكن يرغب فى صوغها صياغة مباشرة ، بل كان يحرص على توشيتها بالأصباغ التى تزيد من غرابتها[1] ، وتحولت بعض الأفكار إلى حكم عامة ، وصاغها بأسلوب علمى منطقى ، وظهر تأثر الشاعر بالثقافات الجديدة النابعة من الوطن أو الوافدة إليه .

٢ — جاء الأسلوب فى أكثره خبرياً ، ليتلاءم مع طبيعة الوصف والمدح باستثناء عدد قليل من الأساليب الإنشائية التى أوردها للتعبير عن السخرية أحياناً مثل قوله : « أين الرواية »؟ و « أين النجوم »؟

---

(١) راجع كتاب (الغموض فى شعر أبى تمام) للمؤلف .

وتتميز الألفاظ المفردة بالجزالة والعمق ، وقد استعمل بعض الكلمات الأعجمية مثل (عمورية وكسرى وأنقرة ، وإسكندر) ، وذكر العديد من جموع الكثرة التى تتلاءم مع المضمون مثل الكتب والصفائح والصحائف والأحاديث والأيام والناس والأبرج والفتوح والسنين والحيطان والجلابيب وغيرها .

أما التراكيب فقد اختارها ، ووشاها بالأصباغ البديعية ، فأكثر من الجناس والطباق بصفة خاصة ، وكان الشاعر يمثل اتجاهاً فى العصر العباسى الأول عرف بمدرسة البديع ، فلا غرابة إذن فى أن يبالغ فى الاستعانة بالمحسنات التى تعرفنا عليها عند التحليل السابق للأبيات . وجنح كثيراً إلى المبالغات ، وزاد منها فى حديثه عن الحرب وآثارها على الروم ، وكان يمزج بين المحسنات البديعية حتى يخرج المعنى محكما بديعاً ، وهكذا جاءت الألفاظ والتراكيب متناسقة تماما مع المعنى .

٣ — كان أبو تمام صادقاً فى عاطفته ، وظهر أثرها فى المعانى والألفاظ والموسيقى وهى عاطفة قوية جياشة تتلاءم مع الحرب التى قال إنها حرب بين الإسلام والكفر ، وليس بسبب الصراع على منطقة أو تلمة فى الثغور وتجاوزت العاطفة فى صدقها حدود الاكتساب بالمديح ، بل كانت ثمرة لإيمان أبى تمام بدينه ووطنه وخليفته وبمذهبه الفنى الذى يقول خلاله مايراه صدقاً وحقاً وعدلا .

ويعد صدق العاطفة وعمقها أبرز العناصر للتجربة الشعرية ، وأسهم ذلك فى إخراج المعنى على هذه الصورة المتميزة فضلا عن المكونات الأخرى للتجربة .

٤ — إن الخيال وليد العاطفة ، وقد أثمر خيال أبى تمام عن العديد من الصور الخيالية التى ابتكر الكثير منها ، واستوحى بعضها من البيئة

أو تأثر به من الآخرين ، وقدم هذه الصورة بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل ، وتجلت موهبته فى التأليف بين الصور والمزج بينها ، وسبق أن بينا العديد من هذه التصاوير المجازية التى صاغها ، وألف بينها فى مقدرة غريبة .

ومن الاستعارات التى انفرد بها ما جاء فى قوله :

حتى إذا مخض الله السنين لهـــا
مخض البخيلة كانت زبدة الحقب

وقال أبو العلاء : « هذه الاستعارة لم تستعمل قبل الطائى »[1] .

وقد ذكر أن المخض يشبه مخض البخيلة ، وأن الحدث أسفر عن عمورية التى كانت زبدة السنين ، وهكذا كان يستطرد فى عرض الصورة ويستقصى أبعـــادها ، وهو كثير الاختراع لها لدرجة أن المعنى كان يغمض أحياناً ، وقد قال له أبو العميثل وأبو سعيد الضرير : لماذا تقول ما يفهم ، فقال لهما : ولما لا تفهمان ما يقال ، وكان بصدد إنشاد قصيدة يمتدح بها عبد الله بن طاهر فى خراسان .

٥ — لم تقتصر الموسيقى فى هذه البائية على بحر البسيط بتفاعيله ورويه وموسيقاه المعروفة ، بل أضاف إليهـــا كثيراً من التقسيمات والمزاوجات والأسجاع والطباقات التى أسهمت فى التطريب والتنغيم ، وأسهم الجناس بصوره المختلفة فى التعبير عن الجو الحماسى المتلألئ من الأبيات .

٦ — كشفت القصيدة عن البيئة وأبرزت بعض الملامح التى تدل

---

(١) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ج ١ ص ٤٩

عليها مثل كتب المنجمين وأكاذيب الشهب والنجوم ، وحوادث الشهور ، وصورة المرأة العربيـــة التى تمخض الحليب ، والتفاؤل والتشاؤم بالبارحات ، وتخضيب الذوائب ، واستحضار التاريخ تمثل صدود عمورية لكسرى وأبى كرب ومثل عهد الإسكندر وربع مية محبوبة الشاعر ذى الرمة وعدو انظليم ، والقتال من أجل نصرة الدين والعروبة إلى غير ذلك من الملامح والدلالات .

* * *

رائية البحترى فى رثاء المتوكل

التعريف بالبحترى :

كان اتجاه الشعراء فى أوائل العصر العباسى إلى ما عرف بمدرسة البديع طفرة تجديدية فى الحياة الأدبية ، ثم تلاشت العناية بهذا الاتجاه شيئا فشيئاً بعد وفاة أبى تمام ، ولا عجب إذ رأينا البحترى يحتذى أثره ، ويتتلمذ على يديه فى الحقبة الزمنية التى جمعت بينهما خاصة وأنهما من الشام ، ومن قبيلة طيء ، ثم مالبث البحترى أن استقل بالريادة الشعرية وغلب عليه طبعه ، وظهرت فى شعره ملامح المذهب الآخر الذى عرف بعمود الشعر وعظم الفرق بين الطائيين ، وانفتح البـــاب أمام النقاد للحكم عليهما والموازنة بينهما فيما بعد .

والبحترى هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائى ، والذى نسب إلى عشيرته (بُحتر) والمولود فى بادية منبج إلى الشمال الشرقى من حلب عام ٢٠٦ هـ .

وليس فى نشأته المبكرة شىء يتميز به عن أقرانه سوى اتصاله بأهل البادية ، واستفادته من الحياة بينهم ممـا كان له تأثير واضح على شعره ، ولمـا تفتقت موهبته الفنية اتجـه إلى حمص والتقى بأبى تمام ، وعرض عليه بواكير نتاجه ، فقال له : « أنت أشعر من أنشدنى »[1] .

وشكا فقره ، فوجهه أبو تمام إلى أهـــل معرة النعمان ، وشفع له بالحذق عندهم ، فرتبوا له مبلغاً كبيراً كل عام ، وذاق حلاوة المال على فقرة وبذاذته .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢٤٩ .

واتبع مذهب أبي تمام في تلك المدة، وأقر بمعروفه، وجميل صنعه، وقد قال له الحسين بن إسحاق: «إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام، فقال: والله ما ينفعني هذا القول، ولا يضر أبا تمام، والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أن الأمر كان كما قالوا، ولكني والله تابع له، آخذ منه، لائذ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه»[1].

وتعلق قلبه بفتاة من حلب تسمى علوة، ولكن حبه لها لم يحقق ما كان يسعى إليه ويطمح فيه، وتزوج في منبج ثم هجر الشام كله وترك زوجته وابنه أبا الغوث وارتحل إلى العراق ـ مثل أكثر الشعراء في عصره ـ في آخر حكم الخليفة الواثق بالله[2]، ثم توثقت صلته بالمتوكل، ولزمه في بغداد وسامراء، ومدحه بما يقرب من ثلاثين قصيدة، وعاش معه أغلب مدة خلافته التي بلغت أربعة عشر عاما وتسعة أشهر وعشرة أيام[3].

كما مدح نديمه الفتح بن خاقان، وأقام معهما إلى أن قتلا في أحداث مأساوية سنتحدث عنها في مناسبة القصيدة التي رثى بها المتوكل.

وترك العراق، واتجه إلى المدائن، ووصف إيوان كسرى بقصيدته المشهورة:

صنتُ نفسي عما يدنِّس نفسي   وترفعت عن جَدا كل جِبس[4]

---

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٤٠.
(٢) تولى الواثق (ابن المعتصم) بين عامي (٢٢٧ هـ — ٢٣٢ هـ).
(٣) انتهت خلافة المتوكل بمصرعه في الرابع من شوال عام ٢٤٧ هـ
(٤) الجبس: الجبان الفدم (راجع القصيدة بالديوان ج ٢ ص ١١٥٢ طبع دار المعارف تحقيق حسن كامل الصيرفي.

وقال عنها عبد الله بن المعتز : « ليس للعرب سينية مثلها »[1] .

ورجع البحترى إلى سامراء ، وذهب منها إلى منبج ، ويبدو أن رغبته فى التكسب وحبه فى الشهرة لايتوافقان مع بقائه فى الشام ، فعاد إلى العراق ، وعاصر خمسة آخرين من الخلفاء العباسيين[2] .

ومدح المنتصر بعد أن ذمه لتورطه فى قتل والده (المتوكل) ، كما مدح المستعين والمعتز ، وبدأت رغبته فى المديح تضعف مع أن شهيته فى جمع المال والضياع والاقطاعات كانت كبيرة جدا ، ويبدو أنه وجد البلاط العباسى لم يعد راغبا فيه أو حريصاً عليه ، فعاد إلى الشام مع نهاية حكم المعتمد (تقريبا) وذلك فى عام ٢٧٩ ﻫ ، على أنه لم يقل فى هذه المدة من الشعر ، ولم يجمع فيها من المال قدر ما قاله وجمعه فى السنوات الأولى من حياته بالعراق والتى قضاها فى رحاب المتوكل .

وعاش السنوات الأخيرة من عمره فى منبج غنيا مترفا ، وصاحب قافلة من العبيد ، إلى أن توفى بالسكتة القلبية فى سنة ٢٨٤ ﻫ .

جمع أبو بكر الصولى شعر البحترى ، كما جمعه على بن حمزة الأصفانى ، وديوانه الآن مشروح ومتداول بين الناس ، وله كتاب اقتفى فيه أثر أبى تمام وهو ديوان الحماسة ، وقيل إن له كتابا بعنوان (معانى الشعر) وهو مجهول ولم يقل أحد إنه أطلع عليه فى مدى علمنا .

وأجاد البحترى فى أكثر أغراض الشعر ، وتميز فى المديح والوصف

---

(١) مقدمة الديوان ص ه ، وذكر الشارح أن البحترى نظم هذه السينية عام ٢٧٠ﻫ ، وأنه لم يذهب إلى المدائن بعد مصرع المتوكل ، وإنما ذهب إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى سامراء وامتدح المنتصر (راجع الديوان جـ ٢ ص ١١٥٢) .

(٢) هم (المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد) .

وجاء فى الأغانى أنه لما حضرته الوفاه أمر ابنه أبا الغوث بحرق ما قاله فى الهجاء[١] ، مع أن بالديوان أشعارا ليست قليلة فى هذا الفن ، وذكر أبو الفرج أن ليس له هجاء جيد إلا قصيدتان .

و « قيل لأبى العلاء : أى الثلاثة أشعر : أبو تمام أم البحترى أم المتنبى ؟ فقال : المتنبى وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحترى ، وقيل للبحترى : أيكما أشعر أنت أم أبو تمام ؟ فقال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه »[٢] .

وصدق البحترى فى هذه الكلمة . فقد عظم الكثير من شعر أبى تمام وبلغ شأوا كبيرا ، وانحدر بعضه وساء كثيرا ، أما شعر البحترى فكان متقاربا لم تؤثر فيه الثقافات والمعارف الجديدة ، ولم يتلاعب فيه بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية ، ولذلك قيل عن شعره « سلاسل الذهب » .

---

(١) انظر الأغانى ج ٢١ ص ٣٧ .

(٢) عبث الوليد ص ١٤ طبع النهضة المصرية عام ١٩٧٠ م .

القصيدة (*)

— ١ —

١ — محل على القاطول أخلق داثره
وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

٢ — كأن الصَّبا توفى نذورا إذا انبرت
تراوحه أذيالها وتباكره

٣ — ورُب زمانٍ ناعم ثَمَّ عهده
ترق حواشيه ويُونق ناضره

٤ — تغير حسن الجعفرى وأنسه
وقُوض بادى الجعفرى وحاضره

٥ — تحمَّل عنه ساكنوه فُجاءةً
فعادت سواءً دوره ومقابره

(*) الديوان جـ ٢ ص ١٠٤٥ .

(١) القاطول : (نهر) حفره الرشيد فى موضع سامراء ، قبل أن يبنيها المعتصم ، أخلق : بلى ، داثره : الذى درس وامحى ، وفى رواية (عامره) ، صروف الدهر : نوائبه ، تغاوره : تغير عليه وتحاربه .

(٢) الصبا : ريح تهب من الشرق ، وانبرت : ظهرت ، تراوحه : تهب عليه فى العشى ، تباكره : تهب عليه فى الصباح .

(٣) حواشيه : جوانبه ، يونق ، وفى رواية يورق ، وهما بمعنى متقارب .

(٤) الجعفرى : قصر المتوكل بسامراء ، قوض : هدم ، بادى : ظاهر حاضره : داخله .

٦ — إذا نحن زرناه أجدَّ لنا الأسى
وقد كان قبل اليوم يَبهج زائره

٧ — ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه
وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذره

٨ — وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت
على عجل أستاره وستائره

٩ — ووحشته حتى كأن لم يُقم به
أنيس ولم تحسُن لعين مناظره

١٠ — كأن لم تَبت فيه الخلافة طلقة
بشاشتُها والملك يُشرق زاهره

١١ — ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها
وبهجتها والعيش غض مكاسره

١٢ — فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت
بهيبتها أبوابه ومقاصره

---

(٦) أجد : جدد ، الأسى : الحزن ، يبهج : يفرح .

(٧) سربه : قطيعه ، الأطلاء : الظباء ، الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية .

(٩) وحشته : خلوته من الناس .

(١٠) طلقة : متهللة .

(١١) المكاسر : جذوع الأشجار حيث تكسر منها الأغصان .

(١٢) الصعب : المنيع . تمنعت : استعصت ، المقاصر : الحجرات والدور الواسعة المحصنة .

— ٢ —

١٣ — وأين عميد الناس فى كل نوبة
تنوب ، وناهى الدهر فيهم وآمره ؟

١٤ — تخفى له مغتاله تحت غـــرة
وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

١٥ — فما قاتلت عنه المنونَ جنودُه
ولا دافعت أملاكه وذخائره

١٦ — ولا نصرَ «المعتزَ» من كان يُرتجى
له وعزيز القوم من عزّ ناصره

١٧ — تعرّض ريب الدهر من دون «فتحه»
وغُيب عنه فى خُراسان «طاهره»

١٨ — ولو عاش ميْت أو تقرب نازح
لدارت من المكروه ثَم دوائره

---

(١٣) عميد الناس : كبيرهم ، نوبة : شدة ، تنوب : تنزل .
(١٤) مغتالة : باغر التركى وكل من شارك فى الاغتيال ، غرة : غفلة .
(١٥) المنون : الموت ، الذخائر : المدخرات .
(١٦) المعتز : هو ابن المتوكل الذى لم يجد له نصيراً أمام أخيه (المنتصر) ، عز : قل .
(١٧) ريب الدهر : مصائبه ، فتحه : يقصد الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج ، والذى قتل مع المتوكل ، طاهره : هو طاهر بن عبد الله بن طاهر والى خراسان بعد وفاة أبيه . وكان يميل إلى المعتز بن المتوكل .
(١٨) ميت : يقصد الفتح المذكور فى البيت السابق . نازح : يقصد طاهر بن عبد الله : دوائره : شدائده .

١٩ — ولو « لعُبيد الله » عون عليهمُ
لضاقت على وُرّادِ أمر مصادره

٢٠ — حُلوم أضلتها الأمانى ومدة
تناهت ، وحتف أوشكته مقادره

٢١ — ومُغتَصبٌ للقتل لم يخش رهطه
ولم يُحتشم أسبـابه وأواصره

٢٢ — صريع تقاضاه السيوف حُشاشةً
يجود بها والموت حُمر أظافره

٢٣ — أدافع عنه باليدين ولم يكن
ليثنى الأعادى أعزلُ الليل حاسره

٢٤ — ولو كان سيفى ساعةَ القتل فى يدى
درى القاتل العجّلان كيف أساوره

---

(١٩) عبيد الله : هو وزير المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو ابن أخى الفتح بن خاقان .

(٢٠) حلوم : عقول ، أضلتها : أغوتها ، تناهت : انتهت ، حتف : هلاك ، أوشكته : أسرعته .

(٢١) مغتصب : يقصد المتوكل ، والاغتصاب : الأخذ عنوة ، رهطه : جماعته ، يحتشم : يصان ، الأسباب والأواصر : القرابة بين المتوكل وولى العهد .

(٢٢) صريع : بمعنى مقتول ، تقاضاه : تطالبه ، الحشاشة : بقية الروح .

(٢٣) يثنى : يرد ، حاسره : منكشف للأعداء .

(٢٤) أساوره : أنازله .

٢٥ — حرامٌ عليَّ الراحُ بعدك أو أرى
دما بدم يَجرى على الأرض مائره

— ٣ —

٢٦ — وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر
يدَ الدهر ، والموتور بالدم واتره

٢٧ — أكان ولىُّ العهد أضمر غَدوة ؟
فمن عجب أنْ ولى العهدَ غادره

٢٨ — فلا مُلى الباقى تراثَ الذى مضى
ولا حَملت ذاك الدعاء منابره

٢٩ — ولا وأل المشكوكُ فيه ، ولا نجا
من السيف ناضى السيف غدراً وشاهره

٣٠ — لنعمَ الدمُ المسفوح ليلة «جعفر»
هرقتم ، وجنحُ الليل سود دياجره

---

(٢٥) الراح : الخمر ، المائر : الجارى الواسع .

(٢٦) واتر : ظالم ، يد الدهر : أبد الدهر ، الموتور : طالب الثأر (من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه) .

(٢٧) أضمر : أخفى شيئاً فى نفسه ، غدوة : المرة من الغدو وهى أول النهار .

(٢٨) ملى : متع ، الباقى : يريد المنتصر ، الدعاء : الدعاء للمنتصر .

(٢٩) وأل : طلب النجاة ، المشكوك فيه : يقصد المنتصر ، ناضى السيف : مسله .

(٣٠) المسفوح : المراق (جعفر) : المتوكل ، هرقتم : أرقتم ، جنح الليل : جانبه ، دياجى : ظلمات .

٣١ — كأنكم لم تعلموا مَن وليه
وناعيه تحت المرهفات وثائره

٣٢ — وإنى لأرجو أن تُرد أموركم
إلى خَلف من شخصه لا يغادره

٣٣ — مُقلبِ آراءٍ تُخاف أناته
إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

مناسبة القصيدة :

عقد المتوكل ولاية العهد لأبنائه (المنتصر والمعتز والمؤيد) بالترتيب، ثم تغير على المنتصر لأسباب أفاض المؤرخون فيها ، وذكروا منها أن المتوكل كان يميل إلى (قبيحة) أم المعتز ، وقد أنابه عنه فى صلاة الجمعة بالناس ، كما أن وزيره (عبيد الله بن خاقان) ونديمه (الفتح بن خاقان) كانا يوغران صدره على المنتصر ، ويرغبانه فى عزله من ولاية العهد ؛ ليكون الأمر من بعده للمعتز .

وكره المنتصر ذلك من أبيه . فجمع حوله طائفة من القواد الأتراك الناقمين على أبيه ، منهم بغا الشرابى ، واتفقوا على قتله ، ليلا ، وخطط (بغا) لتنفيذ الجريمة ، وأمر باغر التركى المكلف بحراسة الخليفة بغلق كل

---

(٣١) وليه المطالب بثأره ، ناعيه : باكيه ، المرهفات : السيوف المرهفة الحد ، ثائره : طالب الثأر له ، ويقصد (المعتز) .

(٣٢) من شخصه : من صلبه ، لا يغادره : لا يترك منهجه .

(٣٣) مقلب : بصير بتقليب الآراء ، الأناة : التمهل ، الأخرق : الأحمق ، البوادر : ما يبدر من إنسان عند حدته من خطأ .

الأبواب إلا باب الماء، ودخل منه المتآمرون، وضربه باغر وعاونه الآخرون بسيوفهم ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ﻫ، وألقى (الفتح) بنفسه عليه، فقتلوه معه، وأوردت أكثر المراجع أن البحترى كان حاضرا فى مجلس المتوكل، ولكنه اختبأ عن القتلة.

وقد عاش المتوكل واحدا وأربعين عاما، ومات ابنه المنتصر بعده بفترة قصيرة إذ لم يقض فى الخلافة إلا ستة أشهر عاشها حزينا مهموماً.

أما القصيدة التى معنا فهى واحدة من أصدق المراثى بديوان البحترى، وقد نظمها — كما قيل — فى يوم الحادث، وأغلب ظنى أنه قالها بعد أن غرب عن وجه المنتصر، وأشاد بها (ثعلب) فقال عنها: «ما قيلت هاشمية أحسن منها، وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب»[1].

شرح الأفكار:

١ — الأبيات (من الأول إلى الثانى عشر) عن وصف القصر.

قال البحترى فى الأبيات الأولى التى استهل بها القصيدة: إن قصر المتوكل قد بلى وظهر عليه الفناء بعد أن أغارت عليه مصائب الزمان، وإن رياح الهموم تتكرر هبوبها عليه فى المساء والصباح، وأين هو الآن مما كان عليه فى الماضى من حيث السعادة والهناء ورفاهية الحياة؟ لقد ذهب جمال القصر ورونقه، وتهدم ما ظهر وخفى منه، وارتحل عنه من كانوا به، وصار قبرا موحشا، وإذا زرناه جدد لنا الحزن، على عكس حالته السابقة التى كنا نسعد فيها عندما نزوره ونلجأ إليه.

---

(١) زهر الآداب للحصرى ج١ ص٢١٦

واستعاد الشاعر ذكرياته مع الجعفرى فى تلك المأساه التى روعت جماعات النساء أو الحيوانات الموجودة فى حديقته، وإنه لا ينسى الخراب الذى لحق به، وكأنه لم يعمر بالأنيس. وبالمناظر الجميلة والخلافة السعيدة والملك الزاهر المضىء، وكأن لم تجتمع فيه كل ما فى الدنيا من بهاء وبهجة ونعيم، ويسأل فى حسرة عن تغيب الحارس، وافتقاد القصر الهيبة التى كانت تصان وتحترم بها الأبواب والحجرات.

٢ — الأبيات (من الثالث عشر إلى الخامس والعشرين) عن مصرع المتوكل.

انتقل البحترى من وصف المتغيرات التى لحقت بالجعفرى إلى الأحداث الدامية المصاحبة لمصرع المتوكل، فقال: أين الخليفة الذى كان الناس يلجؤون إليه فى وقت الشدة، وهو الناهى والآمر لكل من على الأرض؟ لقد اختفى حيث جاء إليه مغتاله على غفلة لعجزه عن المواجهة جهارا، ولم يقاتل جنود الخليفة الموت، ولم يردوه عنه، كما لم تدافع عنه أملاكه ومدخراته، فأجل الله إذا جاء لا يؤخر، وافتقد ابنه (المعتز) — الذى كان محبا لأبيه — الأعوان والأنصار، لكى يصد هؤلاء المتآمرين، وهو العزيز فى قومه الذى قل نصراؤه فى ذلك الوقت الذى علا فيه صوت الغدر والكراهية، حيث قتل الفتح مع المتوكل، وغاب طاهر بن عبد الله بخراسان، ولو عاش الفتح، ووجد (الطاهر) لدارت الدوائر على المعتدى.

ولو تهيأ العون للوزير عبيد الله بن يحى بن خاقان لسد الطريق على هؤلاء الخونة، وهكذا أبدى الشاعر حسرته على افتقاد النصرة ممن كان يظن فيهم الحماية للمتوكل، وهم ابنه المعتز، ونديمه الفتح، وعامله على خراسان طاهر بن عبد الله، ووزيره عبيد الله بن يحى، وأن الأمانى قد أطاحت بعقول الخونة، وأسهم فى ذلك أن الفرصة أتيحت لهم بمصرع الخليفة الذى اغتصبه القتل بدون مراعاة لأواصر القربى التى تجمع بينه

وبين ولى العهد ، فسقط صريعا ، وأجهزت السيوف على بقايا الحياة فيه، وتنافسها الموت فى الانقضاض عليه، وحاول الشاعر أن يحمى ما يسكه بيديه ولم يكن فى مقدوره أن يثنى الأعداء ، إذ ليس معه سلاح يدفعهم به ولو وجـــد سيفه معه أثناء القتل لاستطاع أن يرد القاتل المتعجل عن جريمته ، ويعلمه كيف يكون القتال ، وقد حرم على نفسه الملذات، ما لم ير دماء القتلة تجرى على الأرض .

٣ — الأبيات (من السادس والعشرين إلى الثالث والثلاثين) عن ولى العهد .

تبدو الحيرة على الشاعر، فيعجب كيف يطالب بدم القتيل أبد الدهر، وطالب الثأر هو ابنه ، وهو ظالمه ، والمحرض على قتله ، ثم يتساءل هل أضمر ولى العهد الغدر لأبيه ؟ ويعجب من أن يحدث هذا الغدر ممن كان وليا لعهده ، ويدعو عليه بعدم التمتع بميراث أبيه ، وبحرمانه من دعاء المنابر له ، وبعدم النجاة ، ويدعو على من شهر سلاح الغدر والخيانة لإراقة دم الخليفة فى سواد الليل ، وكأنهم لا يعرفون شيئا عن (المعتز) الذى بكاه ، ورفع السيوف طلبا للثأر والانتقام .

ثم ختم القصيدة فى البيتين الأخيرين بنهاية موفقة رجا فيهـــا أن يخلف المتوكل ولى يسير على منهجه، ويقلب الأمور على وجهها ، ويحرص على الأناة والصبر حتى يخشاها الناس منه أكثر من خوفهم من تسرع الأخرق المتعجل .

مناقشة الأفكار :

جاء حديث البحترى عن مصرع المتوكل بعد أن عاش معه ما يقرب من خمسة عشر عاما لازمه فيها ، ونعم خلالها بالكثير من فيوضات

كرمه ، وشاهد أحداث الجريمة بنفسه ، ولذلك فحديثه عن تلك المأساة حديث الصادق المعاين للتجربة ، لم يقتصر على بكائه ، وإنما شمل (الجعفرى) كله ، وامتد بمعايشته للتجربة ليصف الأحداث التى وقعت ليلة الجريمة ، وما كان من افتقاد للأعوان ، واتهام لولى العهد . فالأبيات التى توجه بها لرثاء المتوكل قليلة بالنسبة لعدد أبيات القصيدة ، ولكنه بكى فيها الخلافة كلها ، وحزن على ضياع الوفاء بين الأسرة الواحدة ، وتدخل العناصر الأجنبية فى تحريك دفة الحكم إلى حيث يريدون .

وأتصور أن الشاعر قدم قصيدته فى صورة مأساه « تراجيديا » حزينة عرضت لوصف مجموعة من الأحداث المصاحبة للطبقة الحاكمة ، والتى بلغت ذروتها بحادثة القتل المروعة ، وبدأها بوصف المكان فى مجموعة من الأبيات (الأول إلى الثانى عشر) ووازن فيها بين حالة القصر قبل الجريمة وبعدها ، ثم عرض فى الأبيات التالية للصراع المتجسد فى القتل نفسه ، وافتقاد الخليفة لمن يدافع عنه ، وهنا تصل الأحداث إلى ذروة التعقيد .

وتمثل الأبيات الأخيرة الحل لهذا الصراع ، فولى العهد له يد فى الجريمة ، وهو متهم بالمشاركة فى الاغتيال ، ويرى الشاعر أن الحل يتمثل فى عدم التفريط فى دم المتوكل ، وضرورة اختيار ولى للعهد يمشى على منهاج والده ، ويكون معتدلا وغير متهم بالأناة المفرطة والتسرع الأحمق .

وتميل الأفكار فى معظمها إلى الذاتية ، فقد حصرها الشاعر فى دائرة القصر والنظام الحاكم .

أما حالتها بين الوضوح والغموض ، فلاجدال فى أنها جاءت واضحة مترابطة ، ولم يكن بها من تعقيد للصنعة أو تغميض للكلمات ، أو تعميق للمعانى ، باستثناء البيت السادس والعشرين الذى وضحت فيه بعض آثار التلاعب اللفظى .

والأفكار فى معظمها مبتكرة ، لأن الشاعر عمـــد فيها إلى وصف الأحداث التى شاهدها بعينيه ، وهى تتكرر نادراً ، فكانت معايشته للتجربة ذات مغزى كبير فى ظهور الصدق الواقعى والصدق الفنى ، ووضحت شخصيته وبيئته فى هذا النص الفريد .

ملامح التعبير والتصوير .

تواكبت الألفاظ والتراكيب مع العاطفة الصادقة والخيال الوثاب فى التعبير عن هذه المأساة الحزينة ، والتى بكى الشاعر فيها على القصر والمتوكل وضياع القيم والمثل والوفاء ، ونلحظ ذلك فى الأبيات على النحو التالى :

أولا : الأبيات التى تحدث فيها عن القصر .

(البيت الأول) اختار البحترى كلمة (القاطول) وهو اسم لنهر بناه الرشيد ، وتقع عليه (سامراء) ليؤكد على مدى الترابط بين المتوكل والرشيد ، وقد تحدثت كتب التاريخ عن محاولة المتوكل التشبه بالرشيد ، ولم يوفق الشاعر فى استعمال كلمة (دائره) ، ونعتقد أن الرواية الأخرى للكلمة وهى (عامره) أوفق بكثير ، وجاءت كلمة (صروف) فى صورة الجمع لتسهم فى بيان ضخامة المأساة .

و(محل على القاطول) كناية عن قصر المتوكل ، والذى سماه (الجعفرى) ،

وفى قوله : « أخلق دائره » مبالغة فى بيان البلاء لما كان بالياً أصلا ، ثم شبه صروف الدهر بالجيش وهى لذلك تعاود الإغارة على القصر .

(البيت الثانى) أكد الشاعر شمول القصر بالأحزان التى تحملها الرياح فى المساء والصباح ، وتجسد ذلك فى الطباق بين كلمتى (تراوحه وتباكره) ثم شبه (الصبا) وهى ريح الشرق بمن فرض على نفسه نذراً ، فهو ملتزم بالوفاء به ، أى أن رياح الأحزان لا تكف عن الإغارة على القصر ، وتلك استعارة مكنية .

(البيت الثالث) جاء بكلمة (زمان) نكرة ؛ ليفيد التعميم والشمول والإطالة ، وقوله : « زمان ناعم » و« ترق حواشيه » و« يونق ناضره » كنايات عن السعادة والنعيم التى لا تخفى على من لمسها وعايشها .

(البيت الرابع) ذكر (الجعفرى) مرة فى كل شطر ، لأن الشاعر يتحسر على مالحق بالقصر ، كما صور ذلك بالطباق بين (بادى ، وحاضر) أى أن التخريب شمل القصر كله ، وطابق أيضاً فى المعنى بين البيتين الثالث والرابع .

(البيت الخامس) اختار الشاعر لبيان شدة المأساة كلمة (فجاءة) أى أن ساكنى القصر أجبروا فجأة على الرحيل بدون مقدمات ، فعظم بذلك خطبهم ، وعبر عن مدى الكارثة التى لحقت بالجعفرى ، فشبه دوره وحجراته بالقبور ، وهو تشبيه يدل على الحزن والأسى .

(البيت السادس) قوله : « إذا نحن زرناه » يدل على أن الشاعر قال القصيدة بعد المأساة بوقت كاف للتفكير ، وبين (الأسى) و (يبهج) طباق وفى البيت رد للعجز على الصدر .

(البيت السابع) إذا قصد الشاعر بالسرب والأطلاء والجآزر

الحيوانات التى كانت بالقصر فإنه يدل بذلك على شمول المأساة للإنسان والحيوان أيضاً ، وإذا أراد بها جماعات النســاء ، فيكون الأسلوب استعارة تصريحية ، ويؤكد المعنى الحقيقى ما كان يفعله الفرس القدماء حيث كانوا يجعلون حير الوحوش متصلا بالقصر الملكى (انظر هامش الديوان جـ ٢ ص ١٠٤٦) .

(البيت الثامن) تتجلى المأساة فى بعض الألفاظ بهذا البيت ، فقوله : « صيح » دلالة على فقد المرشد والدليل ، كما أن قوله «الرحيل» ... وعلى عجل » يتواكب مع جو الحزن المخيم على القصر ، وجاءت كلمة « هتكت » على هذه الصورة ، للدلالة على شدة الهتك والافتضاح ، وفى قوله «أستاره وستائره » جناس .

(البيت التاسع) كنى الشاعر بالبيت كله عن الخراب الذى لحق بالجعفرى وبين وحشته وأنيس طباق .

(البيت العاشر) شبه الخلافة بشخص كان يبيت بالقصر ، وقوله : « والملك يشرق زاهره » كناية عن السعادة والنعيم .

(البيت الحادى عشر) قوله عن جمع الدنيا بهاءها وبهجتها فى القصر يدل على شموله على أنواع الزينة والجمال ، وقوله : «والعيش غض مكاسره» استعارة مكنية صور فيها العيش شجرة عظيمة الجذوع غضة لينة ، والأسلوب كناية عن الرفاهية والرخاء .

(البيت الثانى عشر) عبر بالاستفهام عن غيبة الحارس ، وفهم منه التحسر والتوجع على حالة القصر بعد الجريمة ، وشخص الأبواب والمقاصر بأنها ذات هيبة يصعب اجتيازها ، وتجلى حزنه فى الأبيات السابقة من خلال عرضه لمسرح الجريمة .

ثانياً : الأبيات من الثالث عشر إلى الخامس والعشرين ــ تحسر الشاعر

فيها على مصرع المتوكل ، وبكى على المثل والمبادىء والوفاء ، وتجلى ذلك بالطريقة التالية .

(البيت الثالث عشر) خرج الاستفهام من الحقيقة إلى المجاز ، ودال به على حسرته وجزعه من هول الكارثة ، وفى (ناهى الدهر — وآمره) طباق ، (وعميد الناس) كناية عن المتوكل ، وجعله ينهى الدهر ويأمره باستعارتين مكنيتين حيث شخص الدهر ، وجعله فى صورة يتحمل فيها النهى والأمر ، والأسلوب مبالغة اقتضتها طبيعة المناسبة .

(البيت الرابع عشر) يشير التعبير إلى نفى الجبن والخوف عن المتوكل ، وجاء هذا فى الشطر الأول ، وقوله : «يخفى» يفيد أن الأعداء قد بالغوا فى الاختفاء و(تخفى ويجاهره) طباق .

(البيت الخامس عشر) شبه المنون بعدو يهاجم الخليفة ، ولم توجد الجنود التى ترده عنه والتعبير استعارة مكنية ، ومثلها فى الشطر الثانى .

(البيت السادس عشر) ذكر الشاعر أن الخليفة افتقد العون من أقرب الناس إليه ، وأن المعتز لم يجد الأعوان ، لكى يصد بهم قتلة والده ، وفى (عزيز وعز) جناس .

(البيت السابع عشر) فى قوله : «أغيب» بالبناء للمجهول إشارة إلى أن عدة عوامل أسهمت فى وقوع الجريمة منها غياب طاهر بن عبد الله ، وفى قوله : « تعرض ريب الدهر » استعارة مكنية ، جعل فيها مصائب الدهر تواجه المتوكل وتعرض له .

(البيت الثامن عشر) فى هذا البيت ثلاث كنايات جاءت فى (ميت) و(نازح)و(المكروه) ، وقصد بها على الترتيب الفتح بن خاقان وطاهر بن عبدالله والموت .

(البيت التاسع عشر) أكمل الشاعر مابدأه فى البيت السادس عشر ، وهو فقد المتوكل للعون من بعض بنيه وبطانته والتى كان غيابها من أسباب تنفيذ

الجريمة ويشير إلى غياب عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وفى (وراد أمر مصادره) طباق .

(البيت العشرون) لجأ البحترى إلى نوع من التنغيم الموسيقى من خلال حسن التقسيم الذى وضح فى عدة مقاطع ، وفى قوله: « حلوم أضلتها الأمانى » استعارة مكنية ، شخص فيها الأمانى ، وجعلها تضل العقول ، وقوله : « مدة تناهت » كناية عن انتهاء الأجل وفى قوله : « وحتف أوشكته مقارده » استعارة مكنية شخص فيها المقادير ، وجعلها تتحكم فى زمن الخليفة .

(البيت الحادى والعشرون) فى قوله : « مغتصب للقتل » كناية عن المتوكل ، وقوله : « ولم يخش رهطه » كناية من تفرق الكلمة وضعف الأسرة الحاكمة ، واستهانة القتلة بكل المبادىء والقيم ، وقوله : « ولم يحتشم أسبابه وأواصره » كناية عن تورط ولى العهد .

(البيت الثانى والعشرون) عبر بقوله : « حشاشة » للتأكيد على أن السيوف قد قضت عليه ، ولم تترك لديه بقية حياة و « تقاضاة السيوف » استعارة مكنية شخص فيها السيوف . وأبرزها وهى تطالب ما تبقى من روح الخليفة ، كما صور الموت بصورة وحش كاسر ذى مخالب ملطخة بالدماء ، أى أن السيوف والدم كانت تتنازع على ما تبقى من روحه .

(البيت الثالث والعشرون) فى قوله : « أدافع عنه باليدين » إشارة إلى عجز الشاعر عن حماية مليكه والدفاع عنه ، والكلام ليس على الحقيقة ، وإنما قصد به إظهار نوع من التصدى للقتلة ، وقوله : « أعزل الليل » كناية عن البحترى نفسه ، وكلمة (الليل) تسهم فى تأكيد عجزه .

(البيت الرابع والعشرون) الأسلوب الخبرى بالبيت يفيد التحسر والتفجع والندم على الجريمة .

(البيت الخامس والعشرون) ليست الخمر حلالا حتى يحرمها الشاعر

على نفسه ، واعتقد أنه قصد تحريم سائر الملذات وقوله : « يجرى على الأرض » مبالغة فى إظهار رغبته فى التشفى والانتقام .

ثالثا — الأبيات من السادس والعشرين إلى الثالث والثلاثين :

تحدث الشاعر عن اتهام ولى العهد فى جريمة القتل ، وماذا يأمل من الخليفة الجديد ، وعرض لذلك بالتعبير والتصوير على النحو التالى :

(البيت السادس والعشرون) بدأ البيت باستفهام أبدى فيه رغبته وأمـله فى الانتقام من المعتدين ، وقوله : « أن يطلب الدم » كناية عن الثأر ، وتتجلى فى البيت بعض مظاهر الصنعة ، أما تكريره لبعض الكلمات مثل : الدم ، والواتر (الظالم) فيكشف عن غضبه وثورته على المتآمرين ، ورغبته فى الانتقام منهم . وقوله (واتر وموتور) طباق .

(البيت السابع والعشرون) يستنكر البحترى بأسلوب الاستفهام أن يحدث الإضمار من ولى العهد ، ويعجب فى الشطر الثانى أن يغدر به من كان وليا لعهده .

(البيت الثامن والعشرون)— قوله : « الباقى » كناية عن المنتصر ، وقوله : « الذى مضى » كناية عن المتوكل ، وبين (الباقى والذى مضى) طباق ، والشطر الثانى جمـلة دعائية فى المعنى ، دعا الشاعر فيها على ولى العهد بعدم الاستفادة من الدعاء الذى يردد له على المنابر ، وفى الشطر الثانى استعارة مكنية جسم فيها الدعاء ، وجعله شيئا محسوسا يحمل ، وفى (حملت منابره) مجاز مرسل علاقته المحلية حيث قصد من على المنابر .

(البيت التاسع والعشرون) قوله : « المشكوك فيه » كناية عن المنتصر

وقوله : « ناضى السيف » كناية عن القاتل ، وهو باغر التركى ومن كان معه ، والجملتان بالبيت دعائيتان فى المعنى على الشخصين المذكورين :

(البيت الثلاثون) توحى الكلمات بخطورة الجرم وفداحة المأساة .

(البيت الحادى والثلاثون) قوله : « وليه » و « ناعيه » و « ثائره » ثلاث كنايات عن المعتز الذى كان يميل إليه والده ومن حوله ، والمرهفات كناية عن السيوف .

(البيتان الثانى والثلاثون والثالث والثلاثون) أبدى الشاعر رغبته فى أن يلى الخلافة واحد من صلب المتوكل لايحيد عن منهجه ، مع التوسط فى الأمور والجمع بين الأناة والتعجل ، وأكد ذلك بقوله : « وإنى لأرجو » أما قوله : « مقاب آراء » فهو استعارة مكنية جسم فيها الآراء وجعلها فى حالة قابلة للتقليب والفرز .

كلمة أخيرة حول القصيدة :

لقد اتضح من تحليل الأبيات كيف تواكبت الألفاظ والعبارات مع الخيال والعاطفة فى التعبير عن هذا الجو الحزين الذى بكى له البحترى بحزن وألم ، وتجلى صدق التجربة فى أن الشاعر — كما سبق القول — شاهد الأحداث بنفسه ، ولم تنقل إليه مشافهة ، ووضح من النص كيف كانت العاطفة صادقة وعميقة ، ولذلك جاءت أبيات الرثاء مجللة بالحزن والرغبة فى الثأر والانتقام .

انتقل البحترى بالرثاء إلى عالم واسع فسيح ، إذ لم يقتصر على ذكر أوصاف المتوكل وسرد فضائله ، بل انتقل إلى وصف القصر كله ،

وتصوير المأساة تصويرا حياً صادقا ، ونقلها فى صورة قريبة من تلك المآسى التى كان يهتف بها أصحاب الملاحم والأناشيد الحزينة .

وفى القصيدة بعض الدلالات على طبيعة الشاعر نفسه ، فهو معايش للأحداث ، وفى للمليكة ، جرىء فى انتقاد ولى العهد ، حريص على أن يتم الثأر ، أمين فى النصيحة ، راغب فى بقاء سلالة المتوكل فى السير على منهاجه .

أما دلالة القصيدة على العصر فتتجلى فى العناية بالقصور التى بكى الشاعر عليها قبل أن يبكى على من مات فيها ، والصراع على الحكم بين الأسرة العباسية ، وتدخل الأتراك فى تصريف شؤون الدولة ، ووجود الشعر إلى جانب الخلفاء .

وجاءت الموسيقى الخارجية من بحر الطويل ، وكانت الراء وهاء السكت بعدها متواكبة مع النواح والبكاء الذى قدمه الشاعر من خلال الأبيات ، أما الموسيقى الداخلية فتتمثل فى بعض الأنواع من المحسنات البديعية كالطباق وحسن التقسيم واختيار الحروف الملائمة كالغين فى البيت الرابع عشر . وقد كتب الدكتور يوسف خليف عن حرفى السين والفاء فى البيت الرابع والعشرين من هذه القصيدة فقال : « فى هذا البيت يتردد حرف السين وحرف الفاء ليشيعا فيه رنينا حارا كأنه أصداء لتلك الثورة التى سيطرت على نفس البحترى ، وهو ينظم هذه القصيدة » [1] .

وكشفت هذه الرائية عن الفوارق بين فن الشعر عند كل من البحترى وأبى تمام ، التى شغلت الكثيرين قديما وحديثا على السواء .

---

(١) تاريخ الشعر فى العصر العباسى ص ١٤٥ طبع دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٨١ م .

ثانيا — النثر :

فى وصف الأخ لابن المقفع

نشأ عبد الله بن المقفع بالبصرة فى أوائل القرن الثانى من الهجرة وهو فارسى الأصل واسمه (رُوزْبِهْ بن داذُويهْ) .

وكان والده مجوسيا من (جُور)[١] ، ويتولى خراج فارس للحجاج ابن يوسف، واختلس مبلغا من مال السلطان، فضربه الحجاج حتى تقفعت يده (أى تشنجت) فقيل له (المقفع)، أو لقب (بالمقفِع) بكسر الفاء لقيامه بعمل القَفْعة على وزن القصعة وهى تشبه الزنبيل بلا عروة . وتعمل من الخوص واسمه بين العرب (المبارك).

ومات على ديانته ، ونشأ عليها ابنه (روزبه) الذى ولد فى البصرة عام مائة وستة من الهجرة ، وكنى بأبى عمر ، واشتهر بابن المقفع .

ظفر ابن المقفع بعناية من والده ، وأتقن اللغتين الفارسية والعربية ، وبقى على ديانة أبيه ، وصار كاتبا لآل هبيرة فى أواخر العصر الأموى .

وكتب لسليمان بن على[٢] الوالى على البصرة فى العصر العباسى ، ثم انتقل للكتابة عند عيسى بن على الوالى على الأهواز ، ونعم بالحياة معه ، وأسلم على يديه ، وتسمى عبد الله وتكنى بأبى محمد .

---

(١) جور مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخا (معجم البلدان حـ ٢ ص ١٨١) .

(٢) سليمان بن على هو عم أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور، وأخ عيسى بن على الوالى على الأهواز .

وقد قتل ابن المقفع فى عام مائة واثنين وأربعين[1] من الهجـــرة ، بالتقطيع والإحراق حيث قتله سفيان بن معاوية بن المهلب بن أبى صفرة والى البصرة آنذاك . وقيل إن قتله بسبب إلحاده وزندقته ، وقيل لسبب آخر حيث نهض بكتابة الأمان لعبد الله بن على والذى كان قد خرج على عمه (المنصور) ثم هزم من جيوشه ،ولجأ إلى أخويه سليمان وعيسى.

ولكن تشدد ابن المقفع فى كتابة الأمان ، أهم ما أحفظ المنصور عليه ، فاختزن كرهه له ، وأفاض به إلى سفيان المهلبى الذى كان يكره هو الآخر ابن المقفع ، وربما كان القتل لهذه الأسباب مجتمعة بما فيها الاتهام بالزندقة .

لقد جمع ابن المقفع بن عدة ثقافات متنوعة ، فتعلم اللغة الفارسية بما فيها من مؤثرات هندية ويونانية وغيرها ،وتعلم اللغـــة العربية وعرف أسرارها ، وتمازجت ثقافات هذه الأمم فى عقله وتفكيره الناضج ، وتمخضت عن نتاج متميز فى الترجمة والإنشاء .

نقل ابن المقفع من اليونانية إلى العربية عدة كتب من أهمها كتب أرسطو الثلاثة فى المنطق ، ونقل من الفارسية عدة مؤلفات أشهرها كليلة ودمنة ، وهو كتاب هندى كتب بالفارسية القديمة (الفهلوية) أو ترجم إليها ، ثم نقله ابن المقفع إلى اللغة العربية ، وربما أخذ روح الكتاب (أفكاره) ، ثم صاغه صياغة جديدة عربية تلائم البيئة العربية »[2].

أما فى مجال التأليف فله عـــدة رسائل فى الوصايا والأخلاق الاجتماعية والعلاقة بين الأفراد والسلطان وهى مسائل تتصل بمهام وظيفته

---

(١) وقيل فى سنة (١٤٣) أو فى سنة (١٤٥) .
(٢) تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ حـ ٢ ص ٥٥

فى الكتابة الإدارية ، غير أنه صاغها بأسلوب أدبى (إخوانى) يتوافق مع قدراته ومواهبه الأدبية والفكرية .

وقد ألف الأدب الصغير والأدب الكبير والدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وكان « شديد الذكاء ، عقله أكبر من علمه ، دقيق الملاحظة ، بارعا فى معالجة الموضوعات المادية الحسية والعقلية المجردة مع سعة فى العلم ، واتزان فى الأحكام وإصابة فى الرأى » [1] .

وسئل عن البلاغة فقال : « البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها مايكون فى السكوت ، ومنها مايكون فى الاستماع ، ومنها مايكون فى الإشارة ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها مايكون جوابا ، ومنها مايكون ابتداء ، ومنها مايكون شعرا ، ومنها مايكون رسائل ... » [2] على اننا لايعنينا التفسير العلمى لهذا الفن فإنه لم يكن قد نضج واستقر فى عهد ابن المقفع ، وإنما تقصد إلى بيان الأسلوب ومايشتمل عليه من ترتيب ودقة ووضوح ، ومن رسائله الإخوانية الموجزة التى كتبها إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة قوله :

« أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم ، والمعروف إذا وضع عند من لايشكره فهو زرع لابد لزارعه من حصاده . أو لعقبه من بعده وكتبت إليك ، وحالنا التى نحن بها فيما نذكر لك حاجة ، أول مافيها معروف تستوجب به الشكر

---

(١) تاريخ الأدب العربى عمر فروخ حـ ٢ ص ٥٥

(٢) البيان والتبيين للجاحظ حـ ١ ص ١١٥ ، ص ١١٦

علينا ، وتدخر به الأيادى قبلنا »[1] . «وكان محجما عن قول الشعر ، وقيل له : لما لا تقول الشعر ؛ فقال : الذى أرضاه لا يجيئنى ، والذى يجىء لا أرضاه »[2] .

النص المختار * :

قال ابن المقفع : « كان لى أخٌ أعظم الناس فى عينى ، وكان رأسَ ما عظمه فى عينى صغرُ الدنيا فى عينه ، وكان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتهى مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ،وكان خارجا من سلطان فرجه، فلا تدعوه إليه مؤنة ، ولا يستخف له رأيا ولا بدنا . وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى فيما علم ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتا ، فإذا قا بز[3] القائلين ، وكان ضعيفا مستضعفاً ، فإذا جد الجد فهو الليث عاديا ، وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشارك فى مراء[4] ، ولا يدلى بحجة، حتى يرى قاضيا فهِما وشهوداً عدولا ، وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما عذره .

وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء[5] ، ولا يستشير

---

(١) جمهرة رسائل العرب جمع أحمد زكى ج ٣ ص ٦٠

(٢) زهر الآداب للحصرى ج ١ ص ٢٥ طبع الحلبى (شرح على محمد البجاوى) .

(*) زهر الآداب ج ٢ ص ١٩٨

(٣) بز : فاق وغلب .

(٤) مراء : جدال .

(٥) البرء : الشفاء .

صاحبا إلا أن يرجو منه النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخط، ولا يتشكى ولا يتشهى، ولا ينتقم من العدو، ولا يغفل عن الولى، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

المضمون :

حديث إلى أخ قطعة أدبية إنشائية خالصة تمثل فن الرسائل الإخوانية، وقد كتبها ابن المقفع إلى أحد أصدقائه، ووضع فيها المثل الأعلى للأخوة الكاملة، بحيث تتجاوز حدود الشخص الواحد إلى جميع الناس.

والنص غير محتاج إلى زيادة بيان، فلا يحمل كلمة غامضة، أو جملة مبهمة أو رمزا لا مجهول.

والأخ الذى تكلم عنه سواء أكان معروفا أو غير معروف يعبر عن مجموعة من الأسس والمبادىء والأخلاق، لكى يتصف بها الأخ الكامل أو الرجل المثالى، حسب إرادة الكاتب

وكان ذلك الأخ الذى تكلم عنه أعظم الناس فى عينه. بسبب أن الدنيا كانت صغيرة عنده أى أنه قانع بما لديه، ولا ينهزم أمام ما يفتقده، وهو أقوى من سلطان البطن وشهوة الجوع، ولا يشتهى شيئاً لا يقدر عليه، ولا يسرف فيما بين يديه، وهو أقوى من الشهوة والرغبة الطبيعية أى أنه متماسك، فلا يجاهر بحاجته، ولا يقصر فى تحقيق رغباته المعقولة منها.

ولا يبطر مع النعمة ولا ينهزم عند المصيبة، ولا يتكلم إلا بما يعلمه،

---

(١) الولى : السلطان أو الوالى.

ولا يجادل فيما يجهله، وهو على يقين بما يفعل، حيث يقدر لرجله قبل الخطو موضعها فلا يتقدم إلا وهو واثق من النفع والفائدة. ويؤثر الصمت، فإذا تكلم فاق الآخرين، وتميز عنهم، وهو هادئ مستكين، ولكنه عندما يغضب لأمر جد يثور ويتحول إلى ليث هصور.

ولا يرمى الناس بالباطل، ولا يشتكو من أحد إلا إذا قدم دعواه أمام القاضى الفاهم والشهود العدول، ولا يتسرع بلوم شخص على أمر يستحق الاعتذار حتى يستمع إلى عذره وحجته.

وهو غير شكاء، فلا يتكلم إلى سائر الناس، وإنما إلى من يرجو عنده السلامة والبراءة، ولا يشكو إلا إلى من يقدر على النصيحة والإفادة، وأنه — أى ذلك الصديق — قانع راض مسالم متسامح ودود، وغير مقصر فى حقوق الولى أو السلطان، وليس أنانياً، إذ لا يخص نفسه بشىء من دون إخوانه. ثم يطلب من صديقه الذى بعث إليه برسالته أن يعمل على الاتصاف بهذه الأخلاق أو ببعضها، فإن العمل بالقليل والحرص عليه خير من ترك كل ذلك.

التعبير :

نهض ابن المقفع بدور تربوى أخلاقى، وغلب عليه الإطناب وهو طريقة فى التعبير عرفها الناس فى الخطابة، ولم يعتادوها فى النثر الإنشائى إلا فى مرحلة تالية من العصر العباسى، وأعتقد أنه كان هنا خطيباً أكثر من كونه أديباً إنشائياً مترسلا.

ولقد وضحت الفوارق — فى أول العصر العباسى — بين النثر المعتمد على اللسان ويشمل الخطابة والوعظ والقصص والحوار والمناظرة، والنثر المعتمد على القلم.

ويشمل الرسائل (الديوانية والإخوانية) والعهـــود والوصايا والتوقيعات .

ويدخل فى النوع الثانى الأدب الوصفى (الإنشائى) فضلا عن الألوان الأخرى للتأليف مثل النثر العلمى وغيره .

تتجلى فى النص المذكور معظم الخصائص التى تميز بها أسلوب ابن المقفع فالألفاظ واضحة وغير حوشية، ودقيقة وملائمة للفكرة التى يعرض لها، غير أنه اتبع هنا ما ليس من طريقته. وهو التكرار ، وهو ليس معيباً حيث اقتضته طبيعة الموضوع، ويتجلى هذا فى تكرار الفعل (كان) و(لا النافية) الداخلة على الفعل المضارع ، وكرر جملة : « وكان خارجا من سلطان..) ، وربما كانت صياغتها بهذه الصورة من آثار وظيفته فى الكتابة الإدارية .

ويتميز الأسلوب بعدم التكلف فى اللفظ أى أنه يجرى مجرى الطبع كما يقولون ، ويخلو من الصناعة والمحسنات البديعيـة إلا ما جاء منها عفوا أى طبيعيا بدون تكلف .

ويتوخى العناية بالمعانى ويميل إلى التفريق والتشعيب فيها ، ويحرص على تقديم السامى والجيد منها فى صورة مرتبة دقيقة منظمة ، وكان إيمانه بمعانيه كبيراً وعظيما ، ولذا لم يتضمن نثره أشعارا أو أمثالا أو أقوالا لآخرين .

ويحرص على بساطة الفكرة ووضوحها ، فلم يلجأ إلى تعقيد فى الصنعة أو تغميض فى المعنى ، وإذا اقتضى الموقف تشبيها أو استعارة جاء التعبير بهما من غير أن يشعر القارىء بنبو أو التواء . ولننظر إلى صياغته وتصاويره المتميزة .

مثل : « صغر الدنيا فى عينه — من سلطان بطنه — ولا يستخف له

رأياً — فهو الليث عادياً — يرجو عنده البرء — أخذ القليل خير من ترك الجميع ».

وهكذا تميز بأسلوبه السهل الواضح البليغ ، وقد سئل عن البلاغة فى الأسلوب فقال : « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » .

وبقيت طريقة ابن المقفع محل عناية الأدباء والبلغاء لمدة لا تقل عن نصف قرن من الزمان ، ولم يعرفوا شخصا جاء بعده وتميز عنه إلى أن جاء الأديب الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ) .

ابن المقفع بين عصره وبيئته .

ابن المقفع واحد من الأدباء الذين تعربوا وأسلموا فى العصر العباسى، وقدموا أدبا حديثاً متطوراً يمثل حضارة الفرس وأصالة العرب ، وقد توسعوا فى فهم اللغة العربية ، وكتبوا بها مؤلفات متعددة فى الأدب والنقد والبلاغة والأخلاق وغيرها . أما إسلامهم فقد بقى مشكوكا فيه ، ولذلك اتهم أكثرهم بالإلحاد والزندقة ، وقتل بعضهم جزاء عليها ، وأسفر وجود هذه الطائفة من الأدباء والمفكرين الأعاجم عن ظهور قضية خطيرة عرفت بالشعوبية ، وأرقت أولى الأمر كثيراً ، وبذل العرب والفرس جهداً شاقاً وكبيراً فى التخاصم حولها والكتابة عنها .

وعندما نرجع إلى قوائم التأليف فى هذا العصر فسوف نجد الفرس يمثلون نسبة كبيرة فيها ، ولا زالت آثارهم البديعة متواجدة بين أيدينا إلى الآن ، وتشهد كلها بنبوغهم وعبقريتهم خاصة وأن الإسلام قد وحد بين الأجناس فليس لعربى فضل على أعجمى إلا بمقدار تقواه غير أن تواجد الأعاجم فى المجتمع العربى آنذاك جر عليه كثيراً من الأضرار والمساوىء حيث أشاعوا فيه نوعا من التحلل والترف الذى لم تعرفه البيئة العربية ، فضلا عما كان لديهم من شجاعة وجرأة ومعارف جعلتهم

يتدخلون فى أمور الدولة ، وكره بعض العرب هذه الرياح الجديدة التى هبت من الشرق، وطفح المجتمع بأخطر قضية فى ذلك الوقت وهى الشعوبية التى تمثل قمة الكراهية بين العرب والعجم .

أما القضية الثانية ، ولعلها أهم من الأولى فهى العقيدة حيث لم يظهر أكثر هؤلاء الأعاجم (المسلمين) ، والفرس منهم بخاصة ولاء لدينهم الجديد ، وصار انتماؤهم له مشكوكاً فيه ، ولهذا قتل بعضهم من خلال وظائف الحياة (الدينية واللغـــوية والسياسية والعسكرية والاجتماعية وغيرها) بسبب العقيدة والعروبة ، ولم يكن ابن المقفع إلا واحداً من هؤلاء الذين قتلوا لهذين السببين معاً .

رسالة إخوانية للجاحظ

نبذة موجزة عن نشأته وأدبه .

الجاحظ أديب متميز ، ومؤلف متفرد ، وعالم بارع ، عاش حياة هادئة ، استنفر فيها موهبته الفذة ، فتمخضت عن نتاج ضخم فى فروع الأدب والمعرفة ، وعزف عن المناصب ، فانساقت إليه الدنيا ببعض المال الذى رضى به ، ولم يسع إلى ماليس له .

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، ولقب بالجاحظ لنتوء حدقتيه وجحوظهما ، وهو كنانى من البصرة ، وقيل هو كنانى بالولاء . وكان جده أسود ، ويقال له (فزارة) وكان جمالا لعمر بن قلع الكنانى (١) . وقد ولد أبو عثمان فى البصرة عام مائة وتسعة وخمسين من الهجرة (٢) ، وتلقى تعليمه الأولى فى بعض الكتاتيب ، ثم مالبث أن انتقل إلى الاستماع من الأساتذة الكبار فى المساجد ، فأخذ عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد الأنصارى ، وأخذ النحو عن الأخفش ، كما أخذ علم الكلام عن إبراهيم النظام .

ويبدو أن نشأته كانت بسيطة ومتواضعة جدا ، فاشتغل فى صباه ببيع الخبز والسمك لكن عطف العلماء الموسرين عليه خلصه من مشقة البحث عن الرزق ، وسهل له الطريق للاستماع والقراءة ، وقال بعض معاصريه : «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه

---

(١) انظر معجم الأدباء ج ١٦ ص ٧٤

(٢) ذكر ياقوت أنه ولد فى عام (١٥٠ ﻫ) ، ونؤكد أن التواريخ التى تذكر للمواليد آنذاك ليست منضبطة تماما .

لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنظر،[1] كما اطلع على كثير من الكتب المترجمة من الآداب الفارسية واليونانية والهندية، وانتقل إلى بغداد فى أوائل عصر المأمون وقد تجاوز الأربعين من عمره وطاب له المقام بها وأعجب المأمون بكتاباته، وقلده ديوان الرسائل، ولم يبق الجاحظ فيه سوى ثلاثة أيام، ولعله وجد فى الوظيفة الرسمية قيداً له ومضيعة لوقته، وانسال قلمه بالأساليب الرقراقة الجميلة على صفحات كتبه، ولزم المعتصم وانتقل معه إلى سامراء، وأحب الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، وأهداه كتاب (الحيوان) فأعطاه ابن الزيات خمسة آلاف دينار، وكتب (البيان والتبيين) وأهداه إلى أحمد بن أبى داود (كبير القضاة) فنفحه مثل المبلغ السابق، وأهدى كتابه (الزرع والنخيل) إلى إبراهيم بن العباس الصولى، فأعطاه أيضا خمسة آلاف دينار.

ولما نكب المتوكل (ابن الزيات) وقتله انتقل ولاء الجاحظ إلى ابن أبى داود، وعاش فترة طويلة من عمره فى بغداد وسامراء مريضا بالفالج (الشلل) والنقرس (الروماتيزم) ولم يتزوج، ولم يكن فى معيته سوى جاريتين وخادم، ولما اشتد عليه المرض عاد إلى البصرة قبل نهاية عصر المتوكل[2] تقريباً، وقضى فيها ما تبقى من عمره فى القراءة والتأليف. وكان الناس يتقاطرون إليه للأخذ عنه والسماع منه إلى أن توفى فى المحرم سنة مائتين وخمس وخمسين عندما سقطت عليه مجموعة من مجلدات الكتب وعمره ستة وتسعون عاما.

قال المبرد: «دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له: كيف

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٦ ص ٧٠

(٢) قتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ

أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس [1] لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ
كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب
دريس كالجديد من الثياب » [2]

كان الجاحظ أسود الجسم ، جاحظ العينين ، خفيف الظل ، لطيف الروح ، قوى البنية حاد الذكاء . كثير المعرفة ، واسع التفكير .

وتميز بتنوع ثقافته وكثرة مؤلفاته ، فقيل إنها تزيد عن المائتين ، ومنها فضلا عما ذكرت كتاب البخلاء ، ومجموعة رسائله ، والمحاسن والأضداد ، والتاج ويسمى أخلاق الملوك ، وكتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، وفضيلة المعتزلة ، كتاب المعلمين ، وكتاب الأصنام وغيرها ، فضلا عن أشعاره المجموعة والتى لاترقى إلى مستوى كتاباته فى الأدب والنقد والبلاغة والاعتزال والحيوان .

وقد أشاد بعلمه وأدبه السابقون واللاحقون ، وعد أكبر كاتب فى العصر العباسى الأول بأسلوبه وكثرة مؤلفاته ، وتنوع كتاباته ، وجودة معانيه ، وحسن صياغته .

وقد كتب رسائل أدبية كثيرة لايتوجه بها إلى شخص بذاته ، وإنما يعرض فيها لطوائف وأنماط من المجتمع ، ولبعض القضايا التى تروق له ،

---

(١) منقرس : أى مصاب بداء النقرس .
(٢) دريس : قديم وبال (معجم الأدباء ج ١٦ ص ١١٣) .

ويعجب الناس بها ، وهى تختلف — بالطبع — عن الرسائل التى يتوجه بها إلى أشخاص بذاوتهم ، ففى هذا اللون المعروف بالرسائل الإخوانية تكثر عبارات الود والمجاملة والدعاء ، وتأتى قصيرة موجزة لتتلاءم مع مقتضى الحال ، وقد خص الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ببعض هذه الرسائل وها نحن نعرض بالشرح والتعليق لواحدة منها .

النص المختار (*) (الجاحظ يستعطف ابن الزيات)

قال :

« ... أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة [1] ، فقد خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق [2] السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امــرأ أمسى وأصبح سالما
من الناس إلا ما جــنى لسعيد

وقال آخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك — أصلحك الله فلم اجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالاهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة [3] .

---

* زهر الآداب حـ ١ ص ٤٩٥ .

(١) الأناة : الحلم.

(٢) نزق : خفة وطيش.

(٣) المكافأة : المجازاة.

ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة[١] لعثمان رحمه الله : عمر كان خيرا لى منك أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى ، فإن كنت لا تهب عقابى — أيدك الله — لخدمة ، فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة[٢] ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والإنعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة .

واعلم — أيدك الله — أن شين غضبك على كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى من انقطاع سببى منك كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم ، والسلام » .

الجاحظ وابن الزيات[٣]

عاش الجاحظ مدة طويلة ببغـــداد وسامراء فى صحبة الوزير الشاعر

---

(١) عيينة بن حصن بن حذيفة (من فزارة) أسلم بعد الفتح ، وقيل قبله ، وشهد حنينا أو الطائف أيضا ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، ومن الأعراب الجفاة ، وارتد عن الإسلام ثم عاد إليه . وتزوج عثمان بن عفان ابنته ، فدخل عليه يوما ، فأغلظ القول له فقال عثمان: لو كان عمر ما أقدمت عليه بهذا فقال : إن عمر أعطانا فأغنانا وأخشانا فأتقانا (عن أسد الغابة)

(٢) الأحدوثة : ما يتحدث به ، أو الحديث المضحك أو الخرافة .

(٣) ابن الزيات هو : محمد بن عبدالملك بن مروان بن الزيات ، وهو عالم وأديب مشهور ، وله ديوان شعر مطبوع ، وعمل وزيرا للمعتصم ولابنه ←

محمد بن عبد الملك ، وقد طال أمد هذه الصحبة إلى أن كانت نكبة ابن الزيات فى أوائل حكم المتوكل ، وألف الجاحظ (الحيوان) وهو أكبر كتبه ، ولعله أجودها فأهداه إلى ابن الزيات ، بينما كان (هذا) ينعم عليه بالكثير من المال والهدايا ، ويكره أن ينصرف الجاحظ إلى مجالسة غيره ، وكان الجاحظ يستعطفه بالرسائل الإخوانية الرقراقة ، وقال فى مناسبة الرسالة التى نحن بصدد الحديث عنها : « تشاغلت مع الحسن ابن وهب أخى سليمان بن وهب بشرب النبيذ أياما فطلبنى محمد بن عبد الملك لمؤانسته ، فأخبر باتصال شغلى مع الحسن بن وهب فتنكر لى ، وتلون على فكتبت إليه رقعة نسختها »[١] الرسالة .

المضمون

بدأ الجاحظ الرسالة بالدعاء لابن الزيات بأكثر من جملة ، وطلب منه الانصاف والتمهل قبل الحكم عليه ، وخشى أن يكون معدودا عنده من السفهاء ، وليس من الحكماء ودعاه إلى الأخذ بمفهوم ما قاله ابن حسان ابن ثابت ، فى الاقتصار على محاسبته فى حدود ما اقترفه وليس بسبب ما قع من الآخرين ، كما استشهد بقول شاعر آخر ؛ ليؤكد له أن تغافله عنه شبيه بما حدث منه، وأن تكرار عفوه جعله يخشى العقاب.. ويستطرد إلى ذكر خبر لعيينه بن حصن مع عثمان بن عفان حول الفكرة نفسها ،

= الواثق ، وسعى إلى حجب الخلافه عن المتوكل وتولية ابن الواثق فلم يفلح ، ولذلك نكبه المتوكل فى أول ولايته حيث قبض عليه ، وعذبه فى تنور محمى بالنار إلى أن مات فى بغداد سنة ٢٣٣ هـ

واصطفى المتوكل أحمد بن أبى داود الذى كان خصما لدودا لابن الزيات وخشى الجاحظ على نفسه بسبب ذلك ، واستقدم لمجالسة ابن أبى داود فى خوف ووجل .

(١) زهر الآداب للحصرى حـ١ ص ٤٩٥

وطلب منه الرضا عنه لأسباب متعددة إما لخدمته له ، وأما لما قام به من نعمة له فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإما لحسن العادة ، وإما الحسن الحديث . وقال له : أنت أهل للعفو ، وأنا لست أهلا لاستحقاق العقوبة ، وأنت تعفو عن المتعمد والمصر على الخطأ ، ومن كان خطؤه بهذا القدر فإن عفوك عنه أسرع وإن غضبك للانشغال عنك يعدل الصفح منك للرجوع إليك ، ويؤكد رغبته فى العفو فيقول : إن الانقطاع بمثابة موت لى ، وإن الاتصال بمثابة حياة لك ، وإنه يفضل الحياة لابن الزيات ، والتى تتحقق مع العفو والمسامحة ، ويحيل ذلك على فطنته وتسامحه ثم ختم الرسالة بالسلام .

الأسلوب

لقد كتب الجاحظ فى معظم الآداب والفنون ، وتنوعت ثقافاته وألوانه البيانية ، وتمكن من الكتابة فى كل موضوع بأسلوب يختلف من موضوع إلى آخر ، أى أن الموضوع هو الذى يملى الأسلوب والطريقة فى التعبير .

ومن خلال الرسالة التى نتحدث عنها يمكن أن نستجلى بعض الخصائص الآتية .

١ — الجمل الدعائية .. استهل الجاحظ الرسالة بمجموعة منها ، ثم أورد بعض الجمل الاعتراضية الأخرى وهى للدعاء أيضا.

٢ — الاستشهاد بالأشعار والأخبار ، وقد ذكر بيتين من الشعر أحدهما لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت والثانى لآخر ، كما نقل خبراً لعيينة ابن حصن مع عثمان بن عفان .

٣ — جزالة الألفاظ ورصانتها ، وهى فى مجموعها تختلف عن التى شاهدناها فى أسلوب ابن المقفع ، فتلك تميل إلى البساطة والسهولة ، وهذه تميل إلى الجزالة والرصانة .

وإذا كان الجاحظ متعدد الأسلوب ، متنوع المهارات ، فإن له بعض الأنماط والصفات التعبيرية التى تكثر فى كتاباته ويتميز بها مثل الازدواج وهو الموازنة بين الجمل ، ولننظر إلى قوله : « هفوته ذكر وذنبه نسيان » وقوله : « ومن لا يعرف الشكر إلالك والإنعام إلامنك » . على أن هذه الميزة بالذات ليست صنعة متكلفة ، بل هى طبع أصيل عنده ، ونمط يغلب فى كل رسائله ومناظراته وكتبه ، وطريقة متميزة ، وقد كانت عنايته بالصياغة أهم وأوكد من عنايته بالمعنى ، فالمعانى مطروحة فى الطريق على حد قوله . والأسلوب المزدوج عنده هو : « الذى تتوازن فيه العبارات والصيغ ، وتتعدد إيقاعاتها تعادلا محكما »(1) .

كما أن جمله قصيرة موجزة كأنها بديل عن الفن الشعرى .

٤ — الاستطراد — وهو طبع يغلب على طريقته فى الكتابة ، لكن قصر الرسالة ، واستظهار البلاغة فيها لم يسمح بالانغماس فى هذه الخاصية وإن قهر طبع الكاتب الموضوع والمناسبة ، فتطرق إلى ذكر بعض الشواهد فى رسالته ، وله كتابات أخرى تخلو من الخروج عن الهدف الذى ساق النص له ، ففى رسالة أخرى كتبها لابن الزيات أيضاً قال فيها : « .. لا والله ، ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئا هو أنفذ من شماتة الأعداء ، ولا أعلم بابا أجمع لخصال المكروه من الذل ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه ، والمبتلى مادام يجد من يرثى له ، فهو على سبب درك وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها ، وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك ، وفى حسن النية بينى وبينك ، لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الأمل ، على تقصير قد احتملته وتفريط قد اغتفرته ، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال ، ومهما كان من

---

(1) تاريخ الأدب العرب لشوقى ضيف جـ٤ ص٦٠٠

ذلك فان أجمع بين الإساءة والإنكار، وإن كنت كما تصف من التقصير وكما تعرف من التفريط، فإني من شاكري أهل هذا الزمان، وحسن الحال متوسط المذهب. وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المنعمين فوق مرتبتي من الشاكرين..» (١).

وقد قصدت من تقديم كلامه السابق — وهو معظم رسالة إخوانية له أن أبين أختلاف طريقته التعبيرية بين رسالة وأخرى، وإن التقى النصان على بعض الخصائص التي لا يغفل القارىء عنها.

٥ — الإطناب — وهو طريقة تغلب على أسلوبه بعامة، فيسوق أكثر من جملة في الفكرة الواحدة، ولعل طبيعة الرسائل الإخوانية قد أملت عليه هذه الطريقة من التعبير.

٦ — جاءت بعض المحسنات عفواً وليست قسراً، وإن كان ورودها تعبيراً عن نوع من الصياغة والأداء للنـــثر الفني في عصر الجاحظ مثل (ذكر ونسيان) و(لك ومنك) و(شين وزين) و(موت وحياة).

أما السجع فقد تسلل إلى أساليب الكتاب بعد عصر ابن المقفع وفي رسالة الجاحظ نرى السجع كثيراً غير أنه لم يكن ملتزماً ولا يصل أو يقترب من أسلوب ابن العميد، وسجعه الذي عرفناه في مرحلة تالية.

٧ — جاءت بعض الصور الخيالية ملائمة ومواكبة للصياغة التعبيرية مثل (موت ذكرى — وحياة ذكرك) و(.. تزين صفحك) و(كحياة ذكرك) وغيرها.

---

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٧٧

٨ — وضحت ثقافة الجاحظ فى رسالته التى تحدثنا عنها ، وتجلى فيها عمق أفكاره ودقة معانيه ، وحسن صياغته ، وجمال عباراته ، ووضحت فيها أيضا طريقة المعتزلة فى الاستدلال والقياس وإثبات الحجة ، وتحكيم العقل والمنطق .

ونؤكد أن الجاحظ كان متعدد الأساليب ، وأن طرائق الكتاب لم تكن واحدة على عصره ، ولكنه يتميز عليهم بالعديد من الخصائص والقدرات البيانية التى لا يضاهيه أحد فيها .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
القسم الأول من روائع الأدب العربى فى العصر الأموى	
قصيده فى الغزل الصريح لعمر بن أبى ربيعة	٦
التعليق العام على القصيدة	٥٠
الأخطل شاعر بنى أمية	٥٧
قصيدة خف القطين للأخطل	٦٣
فى المدح السياسى لابن قيس الرقيات	٩١
من شعر الكميت بن زيد الأسدى فى مدح الهاشميين	١١٦
من شعر النقائض	١٤٢
نقائض جرير والأخطل	١٤٣
نقائض جرير والفرزدق	١٤٥
فى الفخر والهجاء للفرزدق	١٤٨
نقيضه جرير فى الرد على الفرزدق	١٦٦
الموازنة (فى الأبيات المختارة)	١٨٤
خطبة الحجاج حين ولى العراق	١٩٢
من أدب الخوارج	٢٠٣
خطبة أبى حمزة الشارى فى أهل المدينة	٢٠٥
القسم الثانى من روائع الأدب العربى فى العصر العباسى الأول	٢١٧
قصيدة فى الغزل لبشار بن برد	٢١٨

الموضوع	الصفحة
قصيدة فى الخمر لأبى نواس	٢٣٥
قصيدة أبى تمام فى معركة عمورية ومدح المعتصم	٢٤٨
رائية البحترى فى رثاء المتوكل	٢٩١
فى وصف الأخ لابن المقفع	٣١٣
رسالة إخوانية للجاحظ	٣٢٢

كتب للمؤلف

١ — شعر الحماسة فى العصر العباسى الثانى صدر عام ١٩٨٤ م

٢ — ياقوت الحموى أديبا وناقدا صدر عام ١٩٨٨ م

٣ — امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين صدر عام ١٩٨٩ م

٤ — الغموض فى شعر أبى تمام صدر عام ١٩٨٩ م

٥ — شعراء الطائف فى الجاهلية والإسلام صدر عام ١٩٨٩ م

٦ — فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور صدر عام ١٩٨٩ م

٧ — من روائع الأدب العربى فى العصرين العباسى الثانى والأندلسى صدر عام ١٩٩٠ م

٨ — من روائع الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى الأول صدر عام ١٩٩١ م

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٧٠٠/١٩٩١ م
I, S . B · N · 977 - 00 - 2704 - 9